



إِخْلَامَاتُكُمْ

جَوْلَةٌ مَفَاهِيمِيَّةٌ فِي سُورَتِي الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ



فَايِزْبَنُ سَعِيدُ الزَّهْرَانِي



إصداراتنا الرقمية متوفرة عبر المنصات التالية:



amazonkindle



كن أول من يحصل على العروض المجانية وأحدث الإصدارات بالإشتراك في

النشرة البريدية



عَمَّانُ

جَوْلَةٌ مَقَاهِمِيَّةٌ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَالْأَمْرَانِ

عَمَّامَاتَانِ

جَوْلَةٌ مَفَاهِمِيَّةٌ فِي سُورَتِي الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ

فَائِزِبْنَ سَعِيدِ الزَّهْرَانِي

حقوق الطبع محفوظة

ح شركة آفاق المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الزهراني، فايز بن سعيد

غمامتان. / فايز بن سعيد الزهراني - الرياض، ١٤٤٢هـ.

٣٥٦ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٩-٤-٩١٥٣٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - تفسير

أ. العنوان

١٤٤٢/٦٥٦٥

ديوي ٦، ٢٢٧

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٦٥٦٥

ردمك: ٩-٤-٩١٥٣٨-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م



الإهداء

إلى الجيل الجديد؛

الجيل الذي قرر العودة إلى القرآن.

الجيل الذي رأته قافلاً من تيه الماديات.

بعد أن أبعد عن القرآن بمسافات طويلة.

بعد أن عُزل عنه في زوايا مظلمة.

أهدي هذا الكتاب.

فهرس الموضوعات

الصفحة	العنوان
١٣	مدخل
٢١	بين يدي السورتين
٣٧	الفصل الأول: الخروج من التيه
٣٩	أشرع لك الباب
٥٠	ليست هداية مجانية
٥٩	أم الكتاب
٦٩	هداية لا تعباً بالتاريخ
٧٧	الأسئلة الكبرى
٨٧	الفصل الثاني: الأمة وتاريخية الأديان
٨٩	العهد القديم
١٠٤	العقيدة البيزنطية
١٢٢	دين إبراهيم

١٣٦ الأمة المسلمة
١٤٥ امتحان الشكر
١٥٣ الفصل الثالث: حقائق الإيمان
١٥٥ الإله العظيم
١٧٥ امتحان العقل والإيمان
١٨١ الطاعة المطلقة
١٩٤ الأمانى والعمل
٢٠٦ الرسول المطاع
٢١٩ سفهاء المدينة
٢٢٨ حتمية الابتلاء
٢٣٧ الفصل الرابع: رعاية العلم
٢٣٩ أمة علم
٢٤٦ الجناية العلمية
٢٦٤ البواعث الخفية
٢٦٩ عقل الفقيه
٢٨٠ المسؤولية العلمية
٢٩١ الفصل الخامس: البناء الاجتماعي
٢٩٤ العقدة المباركة
٣٠٩ حركة الأموال

٣١٩ أسباب القوة والنصر
٣٣٨ أسباب الضعف والانهيارات
٣٤٩ قائمة المراجع

مدخل

الحمد لله وحده، وصلى الله وسلم وبارك على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه.

أما بعد، فأستغفر الله العظيم.

هذا ما ينبغي أن أستهل به كتابي هذا.

وقد اعتاد كثير من المصنفين والمؤلفين أن يستهلوا كتبهم بالثناء على ما فيها، وعلى جهدهم في تحرير الأقوال وسبر المسائل، وحق لهم ذلك، وأما الكاتب هنا فإنه يقدم لكم كتابه هذا وكله شعور بالعجز عن الوفاء بحق موضوعه، والعجز عن بلوغ أربه، والعجز عن سبر مسأله.

وفي الحقيقة لم يكن غرضي من هذا الكتاب تفسير سورتى البقرة وآل عمران، فأنا دون ذلك بكثير، وإنما قصدت إلى بيان الطريقة التي هداني الله لها في فهم موضوعات السورتين، وكيفية قراءتها قراءة تُستحضر معها المعاني والمفاهيم والموضوعات، لأشارك بها إخواني الكرام من باب المباحثة والمذاكرة، لا التاصيل ولا التركيز.

فلا تظن أن هذا كتاب تفسير. نعم؛ حشدت فيه كثيرًا من أقوال المفسرين وأهل العلم، لتفسير غريب أو حل مشكل أو استنباط فائدة أو استنباط حكم.

* * *

وقد كنت في زمن سابق أجد لسورة البقرة خصوصاً ثقلاً في القراءة لتشعب موضوعاتها وكثرة أحكامها، ثم يسر الله لي أن داومت على قراءتها زمناً، قراءة حذر بغرض الاستشفاء وطلباً للبركة، حتى وفقني الله تعالى لاستظهارها، ثم رزقني -بفضله وفيض منه وحده- التلذذ بقراءتها، ثم أصبحت المعاني تلمع في ذهني أحياناً، وصارت الآيات يترابط بعضها ببعض، وكنت أرجع أحياناً إلى كتب التفسير بغرض شرح غريب أو حل إشكال فيفتح لي مهيع من المعاني والدلالات.

أصدقك القول أيها القارئ الكريم..

لقد كانت دواء لقلبي.

ولقد كانت شفاء لصدري.

ورأيت فيها عظمة تخشع لها النفس وتخضع لها الجوارح اضطراراً لا اختياراً. وأعظم شيء تعلمته منها هو بعض ما يمكن تسميته معرفة الله تعالى.

ومع مرور الوقت تكوّن في خلدي أن سورة البقرة هداية في كل شؤون الأفراد والأمة، وأنها إجابة عن سؤال: كيف الاهتداء إلى الصراط المستقيم المذكور في سورة الفاتحة؟

هذه يا إخوتي سورة البقرة.

وصار بعض الآيات يبعث في نفسي رهبة لم أكن أعهد لها، وصرت أتلمس أسباب مجيء كلمات أو آيات في موقعها من كتب التفسير، فيزداد بناء السورة في عقلي، فمثلاً يقول تعالى في ختام آية من آيات الطلاق:

﴿وَلَا تَنخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ

وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١].

كيف يكون اتخاذ الآيات هزواً؟

ولماذا تكرر الامتحان بتبيين الآيات في سورة البقرة؟

وماذا تعني «آيات» أصلاً؟

وهلم جراً..

ثم وجدت سورة آل عمران تشبهها في كثير من الألفاظ والمعاني، بل وفي كثير من الموضوعات والمفاهيم، وهذا التشابه وحده جدير بالدراسة والتأمل، وكنت لا أستطيع أن أخفي دهشتي لنظم السورتين وطريقة توجيههما للمؤمنين في بداية العهد المدني، وكم اختلطت في وجداني من مشاعر الحب والرغبة والتعظيم والفرح وغيرها، وكم ازدحمت في نفسي معاني لم أستطع البوح بها إلى اليوم، ووالله الذي لا إله غيره إنَّ القلم واللسان ليعجزان عن بيان أشياء كثيرة من هذا الباب، وهذا اعتذار مبدئي عن القصور في العبارات.

وأجد في السورتين اللتين وصفهما النبي ﷺ بالزهاوين وبالغمامتين وبالغيايتين أهم الموضوعات والمفاهيم التي تحتاج إليها الأمة المسلمة في بداية تكوينها ونهضتها وانبعاثها، حيث حقيقة الإيمان وتعريفه، وقوة الأمة وضعفها، وتاريخ الأديان والأفكار ونقدها، والتشديد العلمي، والحديث عن القرآن والتعريف به، وكأنها مقومات النظر في بناء الأمة المسلمة، وقاعدة الانطلاق في التشديد الحضاري.

وأرجو للقارئ لكتاب الله تعالى أنه إذا فهم موضوعات سورتي البقرة وآل عمران ومعانيها ومراد الله فيها أن يسهل عليه فهم بقية سور القرآن الكريم، لا سيما المدني منها.

* * *

ومما منَّ الله به على أمتنا تلك التأليف العظيمة في تفسير كتاب الله وبيان معانيه واستنباط أحكامه وإرشاداته، شيدها علماء أجلاء وقامات عظيمة نادرة، أكرمهم الله بإعانتهم لهم في تأليفها، فظهرت مرصعة بالجمال، مزدانة بالجلال والبهاء، وقد وفقني الله للنظر في بعضها في تفسير السورتين، وأخص بالذكر الكتب الآتية:

١. جامع البيان للطبري.

٢. تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

٣. المحرر الوجيز لابن عطية.

٤. تيسير الكريم الرحمن للسعدي.

٥. التحرير والتنوير لابن عاشور.

٦. معالم التنزيل للبخاري.

فإدامة النظر فيها مجتمعة في قراءة الآيات يثريك للغاية، ويكسبك نظراً شمولياً في معانيها وفوائدها، ويجعل لك ملكة في فهم معاني القرآن وتفسيره.

ومما يفيد الباحث في المفاهيم الإسلامية أن يولي وجهه قبل كتب التفسير، فإنَّ بها -والله أعلم- غناء عن غيرها، وليس لغيرها غناء عنها في بيان المفاهيم، ذلك أن القرآن كتاب هداية في كل شيء.

وإنَّ من التيه الذي أصابنا أن ننظر في الموضوعات والمفاهيم في كل كتاب، فإذا ما أردت أيدينا أن تمتد إلى رفِّ كتب التفسير ثنينا عطفنا وانصرفنا، ربما ظننا منا أننا لسنا أهلاً لقراءة هذه الكتب!

لكنني أقول لك: كف عن هذا الورع البارد، واعمد إلى كتب التفسير، فاجعل لنفسك منها نصيباً، واقنتها وزين بها مكتبتك، وطالعها كلما عنَّ لك إشكال في فهم

المعاني واستنباط الفوائد، وارجع إليها كلما أردت البحث عن مسألة أو موضوع، واجعل لنفسك نصيباً من القراءة المنهجية فيها، ولو دورة واحدة في العام، فإن أعظم غبن هو أن تموت وأنت لم تعرف حقائق القرآن ولم تفهم مرادات الله تعالى. نعم. أنا وأنت بحاجة إلى أن نعرف الدار قبل أن ندخلها، علينا أن نتعرف إلى كتب التفسير قبل قراءتها، وذلك لنتمكن من الاستفادة المثلى منها وتجنب الأخطاء والمزالق التي تعترها أحياناً، وذلك بالقراءة الوافية عنها، أو بالاستماع إلى الدروس المسجلة في التعريف بها، وهي متوفرة.

* * *

وشهر رمضان هو شهر العودة إلى القرآن؛ عودة استصلاح واستهداء، وهو فرصة للتغيير القرآني وتحسين العلاقة بالقرآن، وسماع آيات الله في صلاة التراويح، أو القراءة بها لمن كان إماماً في مسجده:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وهذه دعوة إلى أن يكون لك برنامجك القرآني في رمضان، كما هو هدي النبي ﷺ وسلفنا الصالح من الصحابة والتابعين، لقد كان الانطلاق دوماً يبدأ من رمضان.

* * *

والكتاب الذي بين يديك يمثل إجابة عن سؤال: ما الموضوعات الكلية لسورتي البقرة وآل عمران - التي تفرعت عنهما الكثير من الموضوعات والإجابات - التي جعلها الله تعالى هداية للأمة المسلمة في بدايات العهد المدني؟

وهي إجابة وفق تحليلي الخاص، ولا ترقى أن تكون تحريراً دقيقاً، فهمتها من قراءتي للآيات والاطلاع على كتب التفسير والسيرة النبوية.

وقد قسمت الكتاب إلى خمسة فصول:

الفصل الأول: الخروج من التيه. ويتحدث في موضوعات الاهتداء بالقرآن الكريم.

الفصل الثاني: الأمة وتاريخية الأديان. ويتحدث في تاريخ الأديان الكبرى اليهودية والنصرانية ودين الإسلام وعلاقة الأمم بإبراهيم ودينه، وعرض القرآن لتفصيلاتها.

الفصل الثالث: حقائق الإيمان. ويناقش أهم القضايا الإيمانية في السورتين، كمفهوم الإيمان ومفهوم النفاق، والتعريف بالله تعالى.

الفصل الرابع: رعاية العلم. ويتحدث عن القضايا العلمية الرئيسة التي ناقشتها السورتان.

الفصل الخامس: البنيان الاجتماعي. ويناقش أسباب قوة الأمة وضعفها، وطريقة العرض القرآني لقضيتين اجتماعيتين بالغتي الأهمية: الزواج والمال.

* * *

وقد اعتمدت على طريقة السورة الواحدة للموضوع الواحد، أي بحث الموضوع بسورة واحدة، سواء كانت سورة البقرة أو آل عمران، لأن المقصود هو الإشارة إلى الموضوع وروحه، وليس تتبع كل تفاصيله، وقد أحتاج أحياناً إلى بحث الموضوع بالسورتين، فلم ألتزم في ذلك معياراً، إذ غلب على جو الكتابة الاختصار والإيجاز والإشارة.

وهذا يقتضي - من باب أولى - عدم تتبع الموضوع وبحثه في بقية آيات القرآن الكريم في شتى سوره، وذلك - أيضاً - لأنه ليس مقصود الكتاب.

ولقد سألت نفسي: ماذا لو كان القارئ لكتاب الله مسلماً جديداً، وابتدأ الاستهداء بالقرآن من أول المصحف.. لو فعل ذلك فهل ستكفيه السورتان وتشفيانه؟

فلعلك إذا اطلعت على الكتاب تستطيع الإجابة عن ذلك، سواء بالإثبات أو بالنفي.

وحاشية الكتاب إنما تفيد الذي يريد الرجوع إلى المصدر، وأما غير ذلك فلا أرغب لك أن تقطع قراءتك بالنظر فيها، لأنها ثانوية.

* * *

وأصدقك القول أنني هممت أن أجعل الكتاب مرسلًا بلا مقدمة، فقد صعب علي أن أقدم بين يدي هذه الفصول، وتزاحمت في ذهني كثير من النقاط التي أرغب قولها لك، ولكن خشية الإطالة وخشية الفوضى منعتاني من ذلك، ثم وجدت من الأهمية بمكان أن أكتب مدخلاً ربما يفيد القارئ لهذا الكتاب.

وبعد شكر الله تعالى على فضله وإنعامه وإلهامه، أشكر مراجع الكتاب على استقطاع جزء من وقته وإفادتي بملحوظاته القيمة، ولا أنسى أن أشكر أهل بيتي الذين بذلوا ما في وسعهم صبراً عليّ وخدمة لي وتسهيلاً لعملي.

وإذ أنشر هذا الكتاب فإني أسأل الله المولى الكريم ذا الجود الواسع والرحمة الواسعة والمغفرة الواسعة، الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، ويستر العيوب ويقلل العثرات، أن يقلل عثراتي يوم ألقاه.

اللهم اجعل هذه الصفحات ثقيلة في ميزاني ونورًا في قبوري وذخرًا لي يوم الحساب، واكتب لقارئها مثل ذلك، وزيادة في الأجر والحسنات، وصلاحًا في القلب والعمل، وفهمًا في المعاني والآيات. آمين.

اللهم اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيرًا. والحمد لله رب العالمين.

فَايْزِبْنَ سَعِيدَ الزَّهْرَانِي

٣ رجب ١٤٤٢ هـ

بين يدي السورتين

عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه. اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما)^(١).

وهذا الحديث في فضل سورتي البقرة وآل عمران معاً، وهو مروى عن عدد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وهو من أجلّ أحاديث فضائل القرآن، ومما تبتهج النفوس بقراءته ومذاكرته، لما فيه من الفيض الرباني والكرم الإلهي.

فهو يذكر لك فضل سورتي البقرة وآل عمران في الحياة الدنيا وفي الحياة الأخرى.

أما في الحياة الدنيا فهما زهراوان، والإزهار هو الإضاءة والإنارة، أي أنهما نيرتان مضيئتان، تنيران لصاحبهما طريق حياته، وتبديدان ظلمات طريقه، فلا يسير إلا بنورهما معه وأمامه.

وهذا الإزهار يكون في قلب القارئ المتدبر، فهما تضيئان له حياته كلها؛ حياته الخاصة وما فيها من أحكام فقهية تتعلق بأركان الإسلام، وما فيها من عبودية القلب وتعظيم الرب، وحياته الأسرية وما فيها من العلاقة الزوجية وتربية الأبناء والإحسان إلى الوالدين، وحياته الاجتماعية وما فيها من علاقات بالأقربين والبعيدين، المسلمين والكافرين، وحياته العلمية والمالية وهلم جراً..

هذه حال السورتين في الحياة الدنيا.

(١) أخرجه مسلم ١/٥٥٢، ح ٨٠٤.

أما في الآخرة، في ذلك اليوم المهيب، الذي سنقف فيه الوقفة الكبرى حفاة عراة غرلاً، والذي ستجلدنا فيه الشمس بسياطها الملتهبة، وتسלט علينا فيه أمواج العرق.. تأتي البقرة وآل عمران -كرامة من الله- فتظللان صاحبهما، الذي كان يحفظهما ويكثر من تلاوتهما ويتفقه على مدرستهما ويتخذهما دليلاً في حياته وسيره إلى الله تعالى، كأنهما الغمام.

ذلك الإنسان الذي كان ضالاً فهداه الله بسورتي البقرة وآل عمران، سيجهما معيته في اليوم الآخر، والناس ينظرون إليه وقد سلم من سيات الشمس وأمواج العرق؛ فيغبطونه ويقولون: يا ليت لنا مثل ما أوتي فلان، إنه لذو حظ عظيم، وتأكلهم الحشرات: كيف فاتنا هذا الفضل العظيم؟ وكيف غفلنا عن هذه الجائزة الكبيرة؟ وأين كنا حين وفق الله هذا الإنسان للاهتمام إليهما والاهتمام بهما؟ يا حسرتا على ما فرطنا فيهما!

هكذا ستكون أحاديث النفس في اليوم الآخر، وهكذا ستكون أناشيد الحزن والندم، حين تسليم الجوائز الأولية قبل دخول الجنة، جوائز المتأخين في الله وجوائز السبعة في ظل العرش وغيرهم. أما أصحاب الزهراوين فتعلوهما غماتان. فيارب اجعلنا من أهل الغمامتين في الآخرة بفضلك وكرمك.

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: (كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ فينا، يعني عَظُم) ^(١).

في الصدر الأول.. لم يكن المال هو الذي يرفع الناس.
ولا الجاه ولا المنصب ولا الزعامة.

لم يكن حجم العمامة التي يعتمرها الرجل يشير إلى منزلته، ولم تكن العبادة التي يشتملها تدل على مكانته الحقيقية. في الصدر الأول..

(١) أخرجه أحمد ١٩/٢٤٧، ح ١٢٢١٥.

الدين هو المعيار الذي به يقوّم الناس.

ذلك في الصدر الأول.

فكانت سورتا البقرة وآل عمران مؤشرتين على العلم والفقه والصدارة والتمكن والعظمة.

المدينة الجامعة

أثر عن التابعي الجليل خالد بن معدان رحمه الله تسمية سورة البقرة بـ«فسطاط القرآن»^(١). والفسطاط المدينة التي فيها مجتمع الناس. وكل مدينة فسطاط. وفي العين قال الخليل الفراهيدي: (والفسطاط مجتمع أهل الكورة حوالي مسجدهم؛ وهم الجماعة)^(٢). فالفسطاط إذاً المدينة المعمورة بأهلها والمرتبة في بنائها، إذ يتوسطها المسجد.

وهكذا سورة البقرة؛ هي كالمدينة الجامعة لعلوم القرآن وأحكامه وآدابه، قال ابن عطية: (يقال لسورة البقرة: فسطاط القرآن، وذلك لعظمها وبهائها وما تضمنت من الأحكام والمواعظ، وفيها خمسمئة حكم وخمسة عشر مثلاً)^(٣).

وقال ابن عاشور: (هذه السورة مترامية أطرافها، وأساليها ذات أفنان، قد جمعت من وشائج أغراض السور ما كان مصداقاً لتلقيها فسطاط القرآن، فلا تستطيع إحصاء محتوياتها بحسبان)^(٤).

(١) موسوعة التفسير بالمأثور ٢ / ٥١.

(٢) كتاب العين ٧ / ٢١٧، النهاية في غريب الحديث ٣ / ٤٤٥.

(٣) المحرر الوجيز ١ / ٢٦٥.

(٤) التحرير والتنوير ١ / ٢٠٣.

فالطاهر ابن عاشور يرى سورة البقرة متسعة للغاية، فقد جمعت الكثير من الأحكام والعلوم والآداب والأخبار، وأنها متنوعة في الأساليب والعرض والمحااجة، ويجد كثيرًا من مقاصد السور القرآنية قد أتت بها سورة البقرة، ويقول: (لا تستطيع إحصاء محتوياتها بحسبان)، أي إنك لو قمت بجمع لما اشتملت عليه هذه السورة من أحكام وآداب ونحوهما لأعجزك أن تنتهي من ذلك.

ويقول ابن العربي المالكي: (اعلموا وفقكم الله أن علماءنا قالوا: إن هذه السورة من أعظم سور القرآن؛ سمعت بعض أشياخي يقول: فيها ألف أمر، وألف نهي، وألف حكم، وألف خبر، ولعظيم فقهها أقام عبد الله بن عمر ثمانين سنين في تعلُّمها)^(١).

فلا تعجب من ورود الفضل فيها وتمييزها عن سائر سور القرآن الكريم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثًا وهم ذو عدد، فاستقرأهم، فاستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن، فأتى عليّ رجل من أحدثهم سنًا، فقال: «ما معك يا فلان؟».

وهذا هو معنى استقرأهم، يعني سألهم.

قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة.

قال: «أمعك سورة البقرة؟».

فقال: نعم.

قال: «فاذهب فأنت أميرهم».

هكذا عليّ الفور، أنت الجدير بالإمارة.

(١) أحكام القرآن ١ / ١٥.

لقد حزت أفضل مؤهلات الإمارة والصدارة.

سورة البقرة هي النيشان الذي يجب أن يعلق على صدر الأمير.

فقال رجل من أشرفهم: والله يا رسول الله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا خشية ألا أقوم بها.

فقال رسول الله ﷺ: «تعلموا القرآن فاقرووه وأقرووه، فإنَّ مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جرّابٍ مَحْشُوٍّ مَسْكَاً يَفُوحُ بريحه كل مكان، ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جرّابٍ أوكى على مسك».

قال الترمذي: هذا حديث حسن (١).

وفي الحديث الآخر، قال النبي ﷺ: (تعلموا سورة البقرة؛ فإنَّ أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة) (٢).

وأخذها يعني قراءتها والمواظبة على تلاوتها والتدبر في معانيها والعمل بها، هذا الأخذ يصبح بركة يجدها الإنسان في دينه وفي دنياه، في روحه وفي بدنه، في نفسه وفي عقله، ويزداد بها علمًا وفهمًا.

والحسرة متحتمة على من يهملها أو يهجرها أو يترك تعلمها، حسرة في الدنيا بفوات البركة وأدوية الروح والبدن والفقهاء في الدين، وبفقد النور في طريق الحياة المعتم، وحسرة في الآخرة بفوات الأجور والثواب، وبتضييع فرصة الاستغلال من حر شمس الآخرة.

ولا تستطيعها البطلة، أي السحرة، فهي درع متينة ضد السحر بإذن الله، وإذا كانت سورة البقرة حرزًا أمينًا وحصنًا قويًا من تأثير السحر؛ وهو ما هو في قوة تأثيره

(١) سنن الترمذي ١٥٦/٥، ح ٢٨٧٦.

(٢) أخرجه البغوي في شرح السنة ٤/٤٥٣، ح ١١٩٠.

ونفوذه إلى الإنسان وقوة حبه وصناعة عُقده وحبائله واجتماع العدد من الإنس والجن في إتمامه، فمن باب أولى قدرة هذه السورة العظيمة على شفاء النفس من سائر الأمراض كالعين والحسد والقلق والاكتئاب والرهاب، وقدرتها على دواء القلب من أمراض الشبهات والشهوات ووساوس الشيطان ونزغاته.

واليوم.. شباب الإسلام أحوج ما يكونون إليها، لدواء قلوبهم وشفاء صدورهم ودفع خصومهم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة)^(١). قال الملا علي القاري: (والمعنى يئس من إغواء أهله ببركة هذه السورة، أو لما يرى من جدهم في الدين واجتهادهم في طلب اليقين، وخص سورة البقرة بذلك لطولها وكثرة أسماء الله -تعالى- والأحكام فيها)^(٢). وهو أيضًا يئس من التسلُّط على أهله بأمراض النفوس وأدواء القلوب ووساوسه.

أرأيتم هذه العظمة لسورة البقرة: فسطاط القرآن؟!

هذا لبيد بن ربيعة الشاعر الكبير في الجاهلية، وصاحب المعلقة المعروفة:

عفت الديارُ محلُّها فمُقامُها بمنى تأبَّدَ عَوْلُها فِرْجائُها
فمُدافعُ الرِّيانِ عُرِّيَ رَسْمُها خلَقًا كما ضَمِنَ الوُحْيَ سَلامُها

الشاعر الذي لم تُخفِ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إعجابها بشعره -وهي العالمة بشعر العرب- فقد حكى ابن أبي الخطاب قولها: (رحم الله لبيدًا ما أشعره في قوله:

(١) أخرجه مسلم ١/٥٣٩، ح ٢١٢.

(٢) مرقاة المفاتيح ٤/١٤٦٠.

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقيت في خلفِ كجلد الأجرِبِ
لا ينفعون، ولا يُرجى خيرُهم ويُعب قائلهم، وإن لم يشغِبِ

ثم قالت: كيف لو رأى لبيد خلفنا هذا؟!^(١).

هذا الشاعر العظيم كان مركز فتيا في الشعر وأهله، ذُكر أنه مر بمجلس بني نهد بالكوفة، وبيده عصا له يتوكأ عليها بعد ما كبر. فبعثوا خلفه غلاماً يسأله: من أشعر الناس؟ فقال: ذو القروح بن حجر الذي يقول:

وَبُدِّلْتُ قَرَحًا دَامِيًا بَعْدَ صَحَّةٍ فَيَا لِكِ نُعْمَى قَد تَبَدَّلَتْ أَبُوسَا

يعني امرأ القيس، فرجع إليهم الغلام وأخبرهم، قالوا: ارجع فأسأله: ثم من؟ فرجع فسأله: ثم من؟ قال: ثم ابن العنيزتين، يعني طرفة. قال: ثم من؟ قال: صاحب المحجن، يعني نفسه^(٢).

أسلم شاعرنا وحسن إسلامه، فسأله عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته حين التقاه أن يقول أبياتاً، فماذا كان رد الشاعر لبيد بن ربيعة؟
ابتدر لبيد بن ربيعة سورة البقرة فشرع يقرأها.
فقال له عمر: إنما سألتك عن شعرك.

فقال لبيد كلمة عظيمة، كلمة من عرف البيان ونظم الكلام وميز أعالیه ورديته،
قال:

ما كنت لأقول بيتاً من الشعر بعد إذ علمني الله سورتي البقرة وآل عمران.

(١) جمهرة أشعار العرب ص ٨٢.

(٢) جمهرة أشعار العرب ص ٤٦.

فأعجب عمر بقول لبيد^(١).

لقد خرس لسان صاحب المعلقة عن الشعر!

نظام الذائقة الشعرية اختلف.

فنون البلاغة ارتقت درجات عن ما كانت عليه.

وهذا الأمر لا يدرك حقيقته وكنهه إلا أرباب المعاني وسلاطين الكلمة.

أنى لي أن أقول شعراً بعد سورتي البقرة وآل عمران؟

وكيف أستطيع أن أطرب الناس وأبث فيهم الحكمة والمثل بعد القرآن؟

لله هذا الصنيع من لبيد بن ربيعة.

أوتدري لماذا أعجب عمر؟

لأنه يعرف قدر سورة البقرة، فهو الذي استغرقت منه -لكي يتعلمها ويلم بما فيها من أحكام وتوجيهات وعلوم وأخبار- اثنتي عشرة سنة، ولما فرغ منها نحر جزوراً^(٢).

أما ابنه عبد الله فقد تعلمها في ثماني سنوات، وروي أنه تعلمها في أربع سنين، وهذه الرواية أثبت^(٣).

وهي سورة مدنية نزلت متفرقة.

قال عكرمة: (أول سورة نزلت بالمدينة سورة البقرة)^(٤). وذكر ابن حجر

الاتفاق على ذلك^(٥). وقيل غيرها من السور هو أول ما نزل.

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/١٠٨.

(٢) تاريخ الإسلام ٢/١٤٦.

(٣) الموطأ ١/٢٠٥ ح ١١، الطبقات الكبرى ٤/١٥٣.

(٤) موسوعة التفسير بالمأثور ٢/٤٨.

(٥) فتح الباري ٨/١٦٠.

وعلى أي حال فهي من أوائل ما نزل من سور القرآن بالمدينة، وإن لم تكتمل آياتها في النزول إلا متأخرًا. وعلى سبيل المثال، فإنَّ الصيام فرض في شهر شعبان من السنة الثانية من الهجرة^(١)، وبه نزلت الآيات في سورة البقرة:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وهذا واحد من الشواهد على أنَّ سورة البقرة نزل معظمها وصدورها في وقت مبكر من العهد المدني، بعد هجرة النبي ﷺ، وقد أصبح للمسلمين مدينة يظهرون فيها عباداتهم وشعائرهم، ويحتكمون فيها إلى نبيهم محمد ﷺ.

نزلت سورة البقرة وقد تكوَّن المجتمع المسلم الجديد الذي يتوسطه مسجد النبي ﷺ وتحفه بيوت المهاجرين إلى جنب بيوت الأنصار.

نزلت وقد تغيرت المرحلة، وظهرت أصناف جديدة من خصوم الدعوة الإسلامية غير مشركي قريش، حيث اليهود في المدينة، والذين لم يؤمنوا من الأوس والخزرج والأعراب؛ الذين انتظموا فيما بعد في سلك المنافقين.

فهي إيذان بمرحلة جديدة تنتظم فيها حياة المؤمنين وتتوحد توجهاتهم وسلوكهم في دائرة القرآن الحكيم.

(١) المجموع شرح المذهب ٦/٢٥٠.

نَعْمَ الْكَنْزِ

قال عبد الله بن مسعود: (نعمَ كنز الصعلوك سورة آل عمران، يقوم من آخر الليل فيقوم بها). وقال: (من قرأ آل عمران فهو غني)^(١).

هذه السورة العظيمة -السورة الكنز- نزلت بالمدينة، ونزلت سورة البقرة سابقة لها، أما شرطها الذي يبدأ من عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ الْبِقَاتِ﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى قرب انتهاء السورة، فقد نزل تعقيباً على غزوة أحد في السنة الثالثة، وأما صدر السورة من مبتدئها إلى (٨٠) آية تقريباً فقد نزلت في وفد نجران النصارى الذين وفدوا على النبي ﷺ يناقشونه في الإسلام والنصرانية.

والكثير من أهل التفسير قالوا: إنَّ ذلك كان في عام الوفود التاسع من الهجرة، وخالف ابن عاشور ذلك فقال: (من ظن من أهل السير أنَّ وفد نجران وفدوا في سنة تسع فقد وهم وهماً انجر إليه من اشتهاه سنة تسع بأنها سنة الوفود. والإجماع على أنَّ سورة آل عمران من أوائل المدنيات، وترجيح أنها نزلت في وفد نجران، يعينان أنَّ وفد نجران كان قبل سنة الوفود)^(٢).

ويؤيد ما ذهب إليه أنَّ ابن إسحاق ذكر وفد نجران الذي نزلت فيه الآيات وفرضت عليهم الجزية في بداية العهد المدني، في حين ذكر إرسال النبي ﷺ خالد بن الوليد إليهم ووفودهم معه إلى المدينة مسلمين في السنة العاشرة، فربما لو فودهم مرتين حصل الالتباس.

(١) مصنف عبد الرزاق ٣/ ٣٧٤، رقم ٦٠١٥.

(٢) التحرير والتنوير ٣/ ١٤٧.

فتأمل الفرق بين دلالة كل قول.

قال ابن حجر: (وقيل بل نزلت سابقاً في أوائل الهجرة، وإليه يومئ كلام ابن إسحاق)^(١).

ويتقوى هذا القول إذا علمت أن سورة آل عمران عالجت شبهات النصارى وعقائدهم على سبيل المحاجة والإقناع، وهذا يناسب حال الأمة المسلمة في بداية تكوينها، في حين جاءت سورة التوبة متأخرة تناقش علاقة الأمة بغيرها من المشركين على سبيل الصرامة والعداوة، ففي آل عمران يقول الله تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وفي سورة التوبة التي نزلت بعد الفتح وتغيرت المرحلة التي تعيشها الأمة المسلمة نزل قوله تعالى:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

كما يتقوى بأن أحبار اليهود كانوا يشوشون على وفد نجران حين قدموا المدينة، وهذا يلائمه أن يكون في أول العهد المدني، لأن اليهود بعد ذلك لم تقم لهم قائمة في المدينة، كما هو معلوم.
والله أعلم بالصواب.

(١) فتح الباري ١ / ٣٩.

وممن ناقش قول ابن إسحاق في تاريخ وفود نصارى نجران على النبي ﷺ أبو الفداء إسماعيل بن كثير، فقال في تفسيره للآية ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾: (وقد ذكر محمد بن إسحاق وغير واحد أنَّ صدر سورة آل عمران إلىٰ بضع وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران، وقال الزهري: هم أول من بذل الجزية. ولا خلاف أنَّ آية الجزية نزلت بعد الفتح، فما الجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح إلىٰ هرقل في جملة الكتاب، وبين ما ذكره محمد بن إسحاق والزهري؟

والجواب من وجوه:

أحدها: يحتمل أنَّ هذه الآية نزلت مرتين، مرة قبل الحديبية، ومرة بعد الفتح. الثاني: يحتمل أنَّ صدر سورة آل عمران نزل في وفد نجران إلىٰ عند هذه الآية، وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك، ويكون قول ابن إسحاق: «إلىٰ بضع وثمانين آية» ليس بمحفوظ، لدلالة حديث أبي سفيان.

الثالث: يحتمل أنَّ قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية، وأنَّ الذي بذلوه مصالحة عن المباهلة لا علىٰ وجه الجزية، بل يكون من باب المهادنة والمصالحة، ووافق نزول آية الجزية بعد ذلك علىٰ وفق ذلك كما جاء فرض الخمس وأربعة الأخماس وفق ما فعله عبد الله بن جحش في تلك السرية قبل بدر، ثم نزلت فريضة القسم علىٰ وفق ذلك.

الرابع: يحتمل أنَّ رسول الله ﷺ لما أمر بكتب هذا الكلام في كتابه إلىٰ هرقل لم يكن أنزل بعد، ثم نزل القرآن موافقة له كما نزل بموافقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الحجاب...^(١).

(١) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٣٦٠.

وابن إسحاق من أهل العلم والبصيرة في الروايات التاريخية، يقول ابن تيمية عنه: (وهو ذو علم وبصيرة بهذا الشأن، حفظ ما لم يحفظه غيره)^(١).

وعلى أي حال، فهي مدنية جاءت وكأنها تنتم لسورة البقرة، وتشابهها في كثير من المعاني والألفاظ، لتشكّل المجتمع المسلم الجديد، بل جاءت لترسي قواعد الأمة المسلمة التي دعا بها إبراهيم عليه السلام في سورة البقرة:

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٨].

جاءت لتجعل من الأمة المسلمة أمة متعلمة قوية، تعرف موقعها من العالم والديانات، وتحفظ كيائها من الآفات، وتكون فاعلة إيجابية. قال السعدي: (نزل صدرها إلى بضع وثمانين آية في مخاصمة النصارى وإبطال مذهبهم ودعوتهم إلى الدخول في الدين الحق دين الإسلام كما نزل صدر البقرة في محاجة اليهود)^(٢).

لقد أصبح لزاماً على الأمة المسلمة الناشئة أن تتخذ موقفها من الأمم الكافرة، وأن تتخذ موقفها من العقائد والديانات المحيطة بها؛ اليهودية والنصرانية، ولم تعد المسألة مسألة خصومة بينها وبين قريش فحسب، ذلك أن الله أراد لهذه الأمة قدرًا عالميًا، وليس محليًا أو إقليميًا فقط.

وأصبح المسلمون - في إثر نزول هذه السورة الكنز - علماء بالعقائد والأمم، ولديهم أصول الفكر الإداري والاجتماعي.

(١) الجواب الصحيح ١/ ١٧٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٤/ ٢٠٣١ - فروقات.

نعم كانت مدينة النبي ﷺ صغيرة، وكان مسجدها صغيراً، وكان ساكنوها قليلين، لكنهم بعد نزول آل عمران أصبحوا أمة من الأمم، بل خير الأمم، وأصبحت المدينة عاصمة هذه الأمة:

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وإذا كان عمران الذي تسمت به سورة آل عمران هو والد مريم الصديقة عليها السلام أم عيسى نبي الله، وهو اسم يعرفه النصارى، فإن البقرة التي تسمت بها سورة البقرة رمز يهودي مقدس تعرفه اليهود، فتأمل بارك الله فيك.

الفصل الأول

الخروج من التيه

أُشْرِعْ لَكَ الْبَابُ

من بديع نسق القرآن ونظمه أن جاءت سورة البقرة في ترتيب المصحف في أوله بعد سورة الفاتحة، وتعال معي لننظر في مناسبة مجيء سورة البقرة في أول المصحف وبعد سورة الفاتحة تحديداً.

إنك حين تقرأ الفاتحة فأنت تتلو في شطرها الآخر قول الله تعالى:

﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

إنك تسأل الله تعالى الاهتداء في كل مرة تقرأ فيها سورة الفاتحة؛ الاهتداء إلى الصراط المستقيم الواضح الذي لا اعوجاج فيه؛ الصراط الذي من سلكه رضي الله عنه، وأدخله جنته، وأسعده في دنياه، صراط الذين أنعم الله عليهم بالسير عليه من النبيين والمرسلين وأتباعهم من الصالحين والصادقين والشهداء والمتقين.

وهو صراط يختلف عن صراط الذين غضب الله عليهم؛ أعني اليهود الذين أعطوا نعمة الهداية، فأنحرفوا عنها وأبوا أن يحفظوها، فأشركوا مع الله غيره، وقاوموا دعوات الرسل والأنبياء، وسلكوا طريقاً آخر فيه التواءات وانحرافات.

وهو صراط يختلف عن صراط النصارى الذين ضلوا الطريق، وافتروا على الله تعالى؛ فجعلوا له ابناً، واتخذوا عيسى بن مريم وأمه إلهين من دون الله، وابتدعوا الرهبانية، وعادوا أهل التوحيد، فلم يوفقهم الله لسلوك الصراط المستقيم.

إذا أنت أمام ثلاثة طرق؛ طريق اليهود ومن شابههم، وطريق النصارى ومن شابههم، وطريق أهل التقوى والتوحيد وهو الطريق الصحيح والصراط المستقيم. فكأن سائلاً يسأل، وكأنك حين تختم قراءة سورة الفاتحة متدبراً تقول: وكيف أجد هذا الصراط؟

كيف لي يا رب أن أهتدي إلى هذا الصراط المستقيم، الذي هو أعظم نعمة من الله بها على الناس؟

يا رب! أنا بين يديك، مقبل بكليتي عليك، فدلني عليك، ودلني على صراطك المستقيم الذي من سلكه فقد سلم من الضلالة ونجا من الغضب.

يا رب! دلني على الطريق التي تكون فيها سعادتني وصلاحي وهدايتي وفوزي ونجاتي.

يا رب! الطرق كثيرة، والحُداة كثر، وليس لي أحد سواك يدلني على الصواب منها، وأنا التائه فدلني.

يا رب! أين هذا الصراط؟ أين الطريق؟

فتأتيك الإجابة فوراً وفي الحال:

﴿الْعَرَبِ ۝ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢].

خذ.

هذا هو دليل الحائرين التائهين..

هذا هو الضوء الذي ينير عتمات الحياة..

هذا هو داعية الصدق..

هذا هو الكتاب!

فيا لله!

هل لاحظت ما أعني؟ هل لامست ما أريد؟

أنت حين تطلب الهداية فإنَّ الله تعالى يقول لك: يا عبدي! الهداية هنا، في كتابي، يا عبدي! اقرأ كتابي وتدبره فستجد فيه الهداية، كل الهداية، وستجد في آياته ذلك الصراط المستقيم الذي تبحث عنه، وستجد بين دفتيه منهج الحياة الذي يبعث السكينة والطمأنينة في روحك، المنهج الذي يفضي إلى سعادتك وصلاح معاشك، المنهج الذي به تفوز الفوز الأبدي وتنجو النجاة الأبدية، المنهج الذي يرشدك في المدلهفات فيدلك على الصواب وقت الحيرة، ويسوقك إلى الرضا وقت الخيبة والمصيبة.

هنا الهداية فحسب.

أرأيت رحمة الله تعالى ونعمته علينا؟

يرشدنا إلى سؤال الهداية ثم يجيبنا عن هذا السؤال ويدلنا عليها، فله الحمد والمنة والفضل والإنعام.

ولذلك جاءت الفاتحة والبقرة في أول المصحف، فالأولى فيها سؤال الهداية، والثانية فيها بيان الهداية وإجابة سؤال أين الهداية؛ وإلى هذا المعنى أشار البقاعي رحمه الله^(١).

وهذا المعنى كثيرًا ما يؤكدُه القرآن، لأنَّ أكبر سؤال يسأله الناس أفرادًا وجماعات وأمَّا هو: أين الطريق الصحيح؟ وما المنهج الذي إذا سرنا عليه صلحت أحوالنا وأرزاقنا وأرواحنا، وصلحت حيواتنا وموتاتنا؟

(١) نظم الدرر ١/ ٢٢.

ولقد اجتهد الحكماء والفلاسفة في التأطير الفكري للحياة الاجتماعية والدينية لكنهم فشلوا، واجتهد الزعماء والأباطرة في الدول والأمم الغابرة في دسترة الحياة ورفضها بالقوانين وفشلوا كذلك، أما مفكر والحضارة الغربية وفلاسفتها فقد شيدوا أبنية للعلوم الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، محاولين إيجاد سبيل يُمنهج حياتهم ويؤطرها، لكنهم أخفقوا جميعاً في الوصول إلى الهداية المطلقة والرشاد التام، ليس لأنهم لم تخلُ اجتهاداتهم من أهواء بعضها ظاهر وبعضها خفي فحسب؛ بل لأنَّ البشر دائماً كانوا -وسيطلون- قاصرين عن إيجاد هذا المنهج الأكمل، فإنه أعلى منهم وأكبر من طاقاتهم وأوسع من إدراكهم، وصدق الله تعالى إذ قال: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء: ٨٨].

والمراد بالمماثلة للقرآن: المماثلة في مجموع الفصاحة والبلاغة والمعاني والآداب والشرائع، وهي نواحي إعجاز القرآن اللفظي والعلمي^(١). لذلك تحدى الله تعالى الناس قاطبة أن يؤلفوا سورة واحدة تضاهي سور القرآن الكريم، في نظمها وبيانها ومعانيها وآدابها وأحكامها وتوجيهاتها:

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣].

اجتمعوا وتشاوروا.

اعقدوا الورش وحلقات النقاش.

استكتبوا الخبراء والباحثين والأكاديميين.

(١) التحرير والتنوير ٢٠٣/١٥.

افعلوا كل شيء وأي شيء لتأتوا بسورة واحدة فقط.

لن تفعلوا.

بل وصل الحال بتفرد القرآن البلاغي إلى أن وقف الشعر العربي عن الحركة زمنًا حتى استعاد ذاته في إثر صدمته من نزول القرآن بهيئته البيانية في الساحات والنوادي، لقد ظل واقفًا مندهشًا يتأمل السياقات والشمول والإجمال والقوة والإيجاز والتنوع في كل سورة من سوره، حتى يقول ابن خلدون عن سبب توقف الشعر العربي زمنًا: (ما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فأخرسوا عن ذلك)^(١).

هل وعيت ما يقوله ابن خلدون؟

إنه يحكي حالة الشاعر العربي الفصيح الذي كان قبل قليل تعلق جرائده على جدار الكعبة في موسم الحج، لقد أصيب لسانه بالخرس اندهاشًا وذهولًا.

ونحن نقول: نعم؛ أخفقوا جميعًا في الوصول إلى الهداية المطلقة والرشاد التام، لكنهم لم تخل أطروحاتهم من خيرٍ وهدىٍ هما نتاج إرث قديم للنبوات والوحي السماوي، قال ابن تيمية: (وبالجملة فينبغي للعاقل أن يعلم أن قيام دين الله في الأرض إنما هو بواسطة المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلولا الرسل لما عبد الله وحده لا شريك له، ولما علم الناس أكثر ما يستحقه سبحانه من الأسماء الحسنی والصفات العُلا، ولا كانت له شريعة في الأرض).

ولا تحسبن أن العقول لو تركت وعلومها - التي تستفيد بها بمجرد النظر - عرفت الله معرفة مفصلة بصفاته وأسمائه على وجه اليقين، فإن عامة من تكلم في هذا الباب بالعقل فإنما تكلم بعد أن بلغه ما جاءت به الرسل، واستضاء بذلك واستأنس به، سواء أظهر الانقياد للرسل أو لم يظهر...

(١) المقدمة ١ / ٨٠٤.

بل يقال: إنه ليس في الأرض مملكة قائمة إلا بنبوة أو أثر نبوة، وإن كل خير في الأرض فمن آثار النبوات. ولا يستريين العاقل في هذا، فإن الذين درست النبوة فيهم مثل البراهمة والصابئة والمجوس ونحوهم - فلاسفتهم وعامتهم - قد أعرضوا عن الله وتوحيده، وأقبلوا على عبادة الكواكب والنيران والأصنام، وغير ذلك من الأوثان والطواغيت، فلم يبق بأيديهم لا توحيد ولا غيره^(١).

إذا فالقرآن العظيم هداية مطلقة.

وكيف لا يكون هذا القرآن هداية مطلقة وهو نزل من عند الله!

ولذلك اجتهد أئمة أهل السنة في إثبات نزوله من عند الله تعالى، وإثبات أنه ليس بمخلوق، وبدلوا لأجل هذه المعلومة الجوهرية أرواحهم ودماءهم وأموالهم وأوقاتهم، في مرحلة جهاد فكري مفصلي في تاريخ الأمة الإسلامية، إذ لو لم يكن كلام الله المنزل من عنده لما كان له كل هذا الأحكام، ولا ادعينا له هذه الإطلاقات من الهداية والحق والرشاد، وبذلك يتبين لك أي دور قدمه أئمتنا رضي الله عنهم في حفظ القرآن.

وسورة البقرة تؤكد بين الفينة والأخرى هذا المعنى..

فتارة تنص على إنزاله:

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ٤].

﴿ وَءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٤١].

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ، عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٩٧].

وتارة تنص على كونه هدى:

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢].

(١) الصارم المسلول ٢/٤٥٩.

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ، عَلَيَّ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩٧].

وتارة يعقب القرآن على الآية التي ذكرت توجيهًا بأنها مما يهدي الله به عباده:

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ، لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأْتِيَنَّكُمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٠].

وتارة تنص على أنه الحق، الحق الذي لا يحتمل الوهم ولا الخطأ ولا الاشتباه:

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٢٦].

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ [البقرة: ١٧٦].

﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

وتارة تشير إلى ما في القرآن من البيان والوضوح وقوة الحجة والبرهان،

فليست هداية القرآن ملتبسة:

﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾ [البقرة: ٩٩].

﴿ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٨].

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ

وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِّلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

[البقرة: ١٨٧].

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٩].

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ أَلْحَنَةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَبَيِّنُ ۙ آيَاتِهِ ۖ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾
[البقرة: ٢٢١].

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ۙ آيَاتِهِ ۖ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ۙ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

بل إن ابن تيمية أشار إلى قاعدة جليظة في تيسير هذه الهدايات، يقول فيها وفي مثلها: (إنَّ المطلوب كلما كان الناس إلى معرفته أحوج يسَّر الله على عقول الناس معرفة أدلته)^(١).

ولا تستطلِّ ذلك السرد فتظن أنه استطراد، بل هو صلب في الموضوع، ولو أفرد باحثٌ فصلاً في (التبيين الإلهي للآيات) بذكر كل آية وما تضمنته من توجيه لربما انخلع قلبك، ولا استبان لك قضايا عجيبة.

وقد كنت أتأمل هذه الآيات، وأعجب من تكرار وصف ما أنزل الله على عيسى بالبينات؛ مع ما في النصارى من الضلال والكفر، ثم وجدت نفسي أتساءل: كيف حصل هذا؟ كيف كفر النصارى مع وجود البينات في كتابهم؟

ثم ورد عليَّ هذا السؤال في قراءتي لسورة آل عمران، وعلى الفور وجدت الله تعالى يعقب على قصة الكفر في بني إسرائيل بقوله:

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

(١) مجموع الفتاوى ٩/ ٢١٣.

فشعرت بالذهول والدهشة، وكأنَّ القرآن يتفاعل مع سؤالاتي، ويجيب عنها بلغة واضحة:

السبب يكمن في سلوكهم المنحرف!

قال ابن كثير في هذه الآية: (قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول، ووضح لهم الأمر، ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من العماية)^(١).

هل لاحظت؟

وإنَّ المؤمن -بعد هذا التوضيح القرآني- ليدرك خوف السلف على أنفسهم من سلب الإيمان، والله تعالى هو المسؤول أن يثبت الإيمان في قلوبنا وأن يرزقنا اليقين وحسن الختام.

وتارة تبين السورة أنَّ الوحي حاكم فصل في المنازعات الفكرية والعقدية:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

بل ليحكم في كل خلاف؛ سواء كان في المنازعات الفكرية والعقدية، أو في الخصومات المالية، أو في الخلافات الاجتماعية، أو غير ذلك.

وعلى أي حال، ثمة تأكيدات متكررة في سورة البقرة على هداية القرآن المطلقة.

لكن ابتلي فئام من أمتنا بفتور الإيمان، أعني الإيمان بأسماء الله وصفاته وقوته وقدرته، وبضعف اليقين بما أنزل الله تعالى على نبيه، وبالظن بأنَّ القرآن لا يشفي من كل داء ولا يبرئ من كل علة ولا يجيب عن كل سؤال ولا يهدي إلى أي صواب.

(١) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٣٧٤.

وهذه لعمرو الحق مصيبة الأمة اليوم!

وسبب ذلك -والله أعلم- هو ضعف إدراكنا لمعنى أن يكون القرآن كلام الله، فإنَّ مما يعنيه ذلك أنَّ القرآن صفة من صفات الله جل وعلا، فما ظنك بشيء هو من صفات الله تعالى؟

هل يبلى؟

هل يفنى؟

هل يتقدم؟

هل يمحوه الدهر؟

هل يخفت بريقه وينطفئ ضوءه؟

هل تتفوق عليه العقول والقوى؟

كلا وحاشا.

وهذا هو الفرق بين كلمات الله تعالى وبين كل ما أنتجته العقول البشرية من اجتهادات ناقصة أو خاطئة، ثم هي تحتاج بعد مدة من الزمن إلى تصحيح وتنقيح وتحسين.

فواعجباً ممن يعرض عن هذه البيّنات ثم هو يعكف على نتاج العقول البشرية القاصرة ليجعلها مصدر التوجيه في حياته!

وواعجباً ممن يتخذ من الحكمة الصينية أو الإنجليزية مرجحاً لاختياراته وقراراته!

وواعجباً ممن يجثو على ركبته بين كتب الفلاسفة ليتلمس الطريق السوي في حياته!

وعليه فإنَّ الأمة اليوم أحوج ما تكون إلى هذا الصراط وإلى اليقين بصحته
وقوته وقدرته على الهداية والإرشاد.

ذلك الكتاب لا ريب..

فيه هدى للمتقين.

ليست هداية مجانية

وإن كان القرآن بكل ما ذكره الله عنه مما أسلفتُ ذكره، فإنَّ الله تعالى أخبر أنَّ الذين ينتفعون به - بوصفه دليلاً يهديهم إلى الصراط المستقيم - ليسوا كل أحد من الناس، إنهم المتَّقون فقط:

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

ذلك في أول سورة البقرة.

أما في آخرها فقد بيَّن سبحانه أنَّ على الإنسان أن يبذل جهداً من ذاته في تقوى ربه وإصلاح نفسه، وهذه التقوى تتمثل في تتبع أدلة الاهتداء، فإذا فعل ذلك فإنَّ الله تعالى يعلمه ويوفقه للصواب، كما جرت بذلك عاداته سبحانه، قال تعالى في آخر آية الدِّين:

﴿وَأَتَوْا اللَّهَ وَيُعَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨١].

لأنَّ العلم موجود في ثنايا هذه السورة العظيمة، ولكن عليك أن تتقي الله، وذلك بتتبع الحق فيها، وتعلَّم ما تدل عليه من الأحكام والهدايات، قال القرطبي: (وعدُّ من الله تعالى بأنَّ من اتقاه علَّمه، أي يجعل في قلبه نوراً يفهم به ما يُلقى إليه)^(١).

هداية القرآن الكريم يستفيد منها الذين يتقون الله تعالى، فيجاهدون أنفسهم في الاستقامة على دينه، فإذا حصلت التقوى من القلب دفعت صاحبها إلى الاهتداء، وعندها ستُفضي بهم هذه الهداية إلى الفلاح في الدنيا والآخرة:

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٢٦٢.

﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥].

فالفلاح مشروط بالهداية.

لا يفلح المرء إلا إذا هدى إلى الصراط المستقيم، ولن تفلح المجتمعات والكيانات والمؤسسات والدول والأمم إلا إذا هديت إلى الصراط المستقيم، لكنها لن تهتدي إلا إذا تقدمت هي خطوات إلى القرآن، وبذلت مجهودات حقيقية من أجل ذلك؛ وهذه حقيقة التقوى.

فليست التقوى بمجرد الأمانى.

وإنما هي الاقتناع والاعتقاد.

ثم هي العمل الدؤوب المستمر ولو كان يسيرًا.

وليست المسألة بذلك التعقيد.

كل ما عليك -بوصفك فردًا مؤمنًا- هو أن تنظر إلى حكم الله تعالى في أفعالك، ما الذي يرضيه سبحانه منها وما الذي لا يرضيه، أن تبحث في القرآن عن حكمه في سلوكك وأفكارك وتصوراتك وأحكامك، وأن تنظر في أقوال أهل العلم والتفسير فيها، وأن تسأل نفسك ومن حولك وأهل العلم: ماذا يريد الله تعالى بقوله كذا وكذا وبآية كذا وكذا، وأن تبحث في ثنايا كلام الله تعالى الإجابة عن السؤال الذي يحيرك، وأن تسأل نفسك: هل يومياتي وتفاصيل حياتي موافقة لما في القرآن؟

ثم تجعل ذلك ديدنك في حياتك وعاداتك اليومية التي لا تنفك عنها.

هذه خلاصة أن تكون من المتقين.

أما الكافرون المعاندون فقد أخبرتنا سورة البقرة أن ليس لهم إلى هذه الهداية

سبيل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة: ٦-٧].

عائداً بالله من الطبع على القلوب.

وكيف يُهدى إلى الصراط المستقيم من يتأبى على سلوكه، ومن يعرض عن دليله!

إنهم حين تركوا أول الأمر عاقبهم الله تعالى بآخره؛ بالختم على القلوب وعدم الانتفاع بالسمع، وتلك عقوبة المعرضين، عافاني الله وإياك، (وهذا شأنه سبحانه في كل من أنعم عليه بنعمة فكفرها، فإنه يسلبه إياها بعد أن كانت نصيبه وحظه)^(١). وكذلك المنافقون؛ فقد أخبرتنا سورة البقرة أنهم ليس لهم إلى الهداية سبيل، فإنهم:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت بِمِحْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة: ١٦].

فليست المشكلة لديهم هي الإعراض من المرة الأولى، فإنهم قد عرفوا الحق ورأوا الصواب ووضعوا أقدامهم على أول الطريق، وربما قالوا: آمناً، وربما قالوا: أسلمنا، لكنهم في واقع الأمر فضلوا الضلالة واستحسنوا الغواية والانفلات، ورأوا في اتباع أهوائهم وعوائدهم ما يستغنون به عن اتباع الحق وما جاء به القرآن، واستخفوا بذلك.

وهذه المقايضة بين الضلالة والهدى، هي أشنع الصفقات وأكثرها خسراناً، فلا هي التي أربحتهم واكتسبوا منها شيئاً يذكر في حياتهم، ولا هم الذين اهتموا كما يهتدي المتقون، أو ربحوا كما ربح المهتدون.

(١) شفاء العليل ١/ ٢٦٥.

ولذلك فإنَّ الله تعالى يعلمنا أنَّ دلالتَه لنا على الصراط المستقيم هي النعمة العظمى التي تستحق الشكر والإكثار من ذكره تعالى إذ امتن بها علينا.

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَادْكُرُوا فِي آذَانِكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢].

أي فاذكروا الله واشكروه فإنه أرسل فيكم رسولاً يهديكم إلى الصراط المستقيم، بالعلم والتزكية وتلاوة القرآن.

وأما اليهود والنصارى من بني إسرائيل فجحدا ولم يشكروا، وكفروا ولم يدعنوا، ورفضوا الاهتداء على الرغم من نزول الكتاب عليهم من قبل، بل ونزول الكثير من الآيات المعجزة عليهم، فاستحقوا العقاب الرباني في الدنيا والآخرة:

﴿ سَأَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [البقرة: ٢١١].

قال القرطبي: (ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته: لفظ عامٌ لجميع العامة، وإن كان المشار إليه بني إسرائيل، لكونهم بدلوا ما في كتبهم، وجحدا أمر محمد ﷺ، فاللفظ منسحب على كل مبدل نعمة الله تعالى. ويدخل في اللفظ أيضًا كفار قريش، فإنَّ بعث محمد ﷺ فيهم نعمة عليهم، فبدلوا قبولها والشكر عليها كفرًا^(١)).

أيها الفاضل! ألا تُحدث هذه الآية في قلبك وجلاً؟

هؤلاء جاءهم الهدى، نزلت الهداية في بيوتهم ونواديبهم، لكنهم آثروا الضلالة، وحبذوا الانحراف، فاشتدت عليهم العقوبة الإلهية.

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٢٠.

وقد حكى الله تعالى عن ثمود هذه الحالة السرطانية التي إذا أصابت الأمم والمجتمعات فإنها تستنزل الغضب الكبير والعقاب الشديد، فقال تعالى: ﴿فَهَدَيْنَهُمْ فَأَسْتَحِبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧].

استحبوا العمى على الهدى!

من أجل متع مؤقتة عاجلة جنوا على أنفسهم وقومهم.

من أجل تشييد حاضرهم قضوا على الأجيال اللاحقة. وهذا هو ذاته الذي حدث مع بني إسرائيل: تفضيل العمية على الهداية.

وإنها لأسوأ حال تصيب الأمة، وإنها للحال الجديرة بأن يحذر منها الناس بعضهم بعضاً.

والله تعالى يذكرنا في سورة البقرة بأنه أنزل على موسى التوراة هدى لبني إسرائيل، والتوراة أيضاً هي كلام الله وكتابه، ثم أرسل رسلاً إليهم بمضمون رسالة موسى، ثم أنزل الإنجيل على عيسى ليكون لهم هدى أيضاً، فانظر مغبة إعراضهم عن هذا الهدى!

ماذا حل ببني إسرائيل من العقاب!

وكيف تحدث عنهم سورة البقرة!

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۗ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْكِتَابَ وَآيَدْنَاهُ بَرْوَجَ الْقُدْسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۗ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۗ فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٧-٨٩].

استحقوا اللعنة مرتين.

لُعِنُوا حِينَ عَارَضُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِمَا تَمَلَّيْهِ أَهْوَاؤُهُمْ وَعَقُولُهُمْ وَطَرَائِقُ تَفْكِيرِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ.

وَلُعِنُوا حِينَ كَفَرُوا بِالْقُرْآنِ وَبِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي جَاءَتْ بِهَا كُتُبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنْبِيَائِهِمْ. وَهَذَا لَعْمَرُو الْحَقِّ مَحْضُ الْعِمَايَةِ.

قال الطبري: (وإنما يعني جل ثناؤه بقوله: «وقفينا من بعده بالرسول» أي أتبعنا بعضهم بعضًا علىٰ منهاج واحد وشريعة واحدة. لأن كل من بعثه الله نبيًا بعد موسى ﷺ إلىٰ زمان عيسى بن مريم، فإنما بعثه يأمر بني إسرائيل بإقامة التوراة والعمل بما فيها والدعاء إلىٰ ما فيها، فلذلك قال: «وقفينا من بعده بالرسول»، يعني علىٰ منهاجه وشريعته، والعمل بما كان يعمل به)^(١).

فتخيل مواكب الرسل والأنبياء وهم يدعون بني إسرائيل إلىٰ إقامة الأحكام الشرعية المنزلة في التوراة، نبيًا من بعد نبي، ورسولًا من بعد رسول، يدعونهم إلىٰ الهدى والرشاد والصواب، ويدلونهم علىٰ سبيل النجاة من طرق الغواية والانحراف، ثم هم ينحرفون عن سبيل الحق ويرفضونها.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري علىٰ يبس

هنا تحديدًا استحقوا اللعنة مرتين؛ برفضهم الاهتداء بكلام الله تعالىٰ الذي أنزله في التوراة والإنجيل، ثم بعد ذلك برفضهم الاهتداء بكلام الله تعالىٰ الذي أنزله في القرآن.

(١) جامع البيان ٣١٩/٢.

أنت أمام معضلة حقيقية!

أمام رفضٍ قاطعٍ للهدى، والذي يتقدمه وينظر له ويدعو إليه أحبار اليهود وعلماء النصارى^(١):

﴿ وَلَئِن آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِن آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٥-١٤٦].

إنَّ فساد النخبة يفتح كل الأبواب لفساد العامة.

وأنت ترى وتسمع في يومياتك من أقوال النخبة من أهل العلم والثقافة والفكر والأدب من تُشاد على أقوالهم الحوارات وتُخرَج على نظرياتهم الأفكار والمسلكيات، ذلك أنَّ شأن النخبة (الذين آتيناهم الكتاب) خطير؛ هكذا نفهم من القرآن.

والسعدي يبين هذا الداء الذي يصيب بعضهم فيقول: (لأنهم معاندون، عرفوا الحق وتركوه. فالآيات إنما تفيد ويتنفع بها من يتطلب الحق وهو مشتبهٌ عليه، فتوضَّح له الآيات البينات، وأما من جزم بعدم اتباع الحق فلا حيلة فيه)^(٢).

أما أصحاب محمد ﷺ وأتباع دينه فهم المتقون، وهم الذين طلبوا هداية الكتاب، وجرؤا ركضاً نحوها، وتعلموها وأدّوا حقها وقاموا بواجباتها، لقد أثنى الله عليهم:

﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

(١) جامع البيان ٣/ ١٨٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/ ١٠٥.

خَلَّدَ القرآنَ إيمانهم بالقرآن، بما فيه من التكليف بما يطاق وبما لا يطاق،
وخلَّد قولهم: سمعنا وأطعنا، مع أنَّ الله تعالى نسخ التكليف بما لا يطاق بعد ذلك.
ولذلك قال ابن عطية: (وقوله تعالى ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ مدحٌ يقتضي الحُصَّ
على هذه المقالة، وأن يكون المؤمن يمثلها غابر الدهر)^(١).

وفي خضم الحوار القرآني حول مسألة الاهتداء بالقرآن الكريم وحال بني
إسرائيل وحال المنافقين وحال أهل الإيمان.. تعرض سورة البقرة لنا النموذج
الصالح للأمم والجماعات في الاهتداء بكلام الله تعالى، ذلك الرجل العظيم الذي
نتسب إليه وندين بدينه؛ هو إبراهيم عليه السلام:

﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

وهنا تفيد الآية أنَّ إنزال الله كلامه الهادي هو ابتلاءً منه، وأنَّ إبراهيم عليه السلام
أتمَّ كلمات الله، ووفى بما فيها من الشرائع والأحكام وطاعة أمر الله، فجعله الله إمامًا
وقدوة للناس، وهذا النموذج يأتي في المقابل لعرض نموذج بني إسرائيل المتعنت.

والحق أنَّ القرآن ابتلاء!

وعلى ذلك امتحنت قريش.

ولأجله حُدَّت السيوف وبُرئت الرماح والسهام.

وعلى منابذته اصطفت الأمم الكافرة لمواجهة أهله وحملته.

وإلى يومك هذا يرفض المشركون كتاب الله تعالى، يرفضون وجوده الحقيقي
في واقع الناس، ولقد قال فريق منهم: (نحن لن نستطيع أن نغيِّر من فحوى القرآن،
ولكن علينا التدخل لإفراغه من مضمونه)^(٢). وينبغي أن تدرك الأمة أنَّ أهم معركة

(١) المحرر الوجيز ٢/٢٩٧.

(٢) العالم الإسلامي في مواجهة التحديات الغربية ص ١١٤.

تجادل فيها عدوها اليوم هي «معركة إفراغ القرآن من مضمونه»، وهي معركة شرسة قد تستدعي منهم القدح في سنة الرسول ﷺ المفسرة له والمبينة لأحكامه ومفاهيمه، بعد أن عجزوا عن محو كلماته وآياته.

فلا تقلل من شأن الاهتداء بكلام الله، فإنه هو الصراط المستقيم، وهو سبيل السعادة، وهو سبيل الحياة الطيبة، والإعراض عنه هو سبيل حياة الشقاء المليئة بالأحزان والخوف، انظر كيف يصف الله كتابه بأنه هداية وبشارة:

﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

من اهتدى بالقرآن فله البشرى في الدنيا والآخرة.

تخيل حال الناس إذا أعرضوا عن هدايات القرآن في أحكام الزواج مثلاً!

ما هو شأنهم؟

وكيف يتخبطون؟

وإلى أي درك في الشقاء يصلون؟

انظر إلى الحالة الغربية على سبيل المثال: كيف تمزقت الوحدة الاجتماعية فيها، وأصبحت المرأة في لهاث تسابق الزمن من أجل تأمين حاضرها ومستقبلها، وكيف تنطمس المعاني العميقة في الوجدان كالحب والود والرحمة والإيثار...

وقل مثل ذلك في أحكام المال والأعراض والجنايات وغيرها، وقل مثل ذلك في علم النفس والاجتماع والاقتصاد وسائر شؤون الحياة.

يرجع إليه كل متشابه، وهي معظمه وأكثره، ومتشابهات أي: يلتبس معناها على كثير من الأذهان؛ لكون دلالتها مجملة، أو يتبادر إلى بعض الأفهام غير المراد منها^(١).

ولاحظ أن السعدي هنا يجعل المحكمات معظم الكتاب وأكثره، وقد أشار ابن عطية إلى ذات المعنى، فيقول: (معناه الإعلام بأنها معظم الكتاب وعمدة ما فيه؛ إذ المحكم في آيات الله كثير، قد فصل ولم يقرط في شيء منه)^(٢).

فهي إذاً الآيات التي اتضح معناها وضوحاً يفهمه كل عاقل من الناس، فلا تحتاج هذه الآيات إلى شرح عالم لبيانها.

وإذا سلطنا الضوء على المحكمات، فسنجد أن سعيد بن جبير يصفها بأنها (أصل الكتاب، وإنما سماهن أم الكتاب؛ لأنهن مكتوبات في جميع الكتب). وفي هذا المعنى يقرر مقاتل بن حيان بأنه (ليس من أهل دين إلا يرضى بهن)^(٣).

إذا فالمحكمات أصل الشرائع كلها، وهي منصوص عليها في التوراة والإنجيل والقرآن، بل وفي جميع الكتب التي أنزلها الله تعالى، وفي جميع الشرائع التي ارتضاها سبحانه، وهي التي لا يمكن الاختلاف عليها لوضوحها، وهي بذلك تتفق مع الفطرة الإنسانية السوية المستقيمة، التي لم تتلوث بالفلسفة اليونانية ولا بالحضارة الإغريقية ولا بالمعتقدات الوثنية.

وفي تعيين أفراد المحكمات، ومحاولة تقصي تفاصيلها، يرشدنا حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ كُفْرًا بِآيَاتِ اللَّهِ وَسُبْحَانَ اللَّهِ الَّذِي هُوَ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(١) تيسير الكريم الرحمن ٤/ ٢٠٣٢ - فروقات.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣٢٠.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣١١.

عَلَيْكُمْ ﴿ [سورة الأنعام: ١٥١] إلى ثلاث آيات، وإلى الآيات في سورة الإسراء: وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴿ [الإسراء: ٢٣] (١).

أما آيات المحكمات في سورة الأنعام هي قوله تعالى:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَمَلْتُمْ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَنَّمُ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَنَّمُ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَنَّمُ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿ [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

وأما آيات المحكمات في سورة الإسراء فهي قوله تعالى:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأُولَٰئِينَ عَفْوَراً ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ أِنْبَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ

(١) جامع البيان ١٩٣/٥.

خَشِيَّةَ إِمْلَاقٍ تَحْنُ نَزْرُهُمْ وَإِيَّاكَ إِن قَتَلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا بِالْكِيلِ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَرْتُوا بِالْقِسْطِ الِّمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٣٩﴾

[الإسراء: ٢٣-٣٩].

وإذا عدتَ إلى قول مقاتل الذي يشير فيه إلى إيمان كل أهل دين صحيح بالمحكمات، ثم قرنته بكلام ابن عباس الذي ضرب أمثلة على المحكمات؛ فاسأل نفسك: هؤلاء الذين يسعون إلى اتباع النظم الاجتماعية الغربية المشرعة للزنا وشيوع الفاحشة وإباحية العلاقات وعقوق الوالدين وهدم كيان البيت المشتمل على سلسلة الأجيال.. هل هؤلاء يحافظون على أصل الكتاب ومعظمه وأكثره؟

بل قل: هل هم على دين؟

وهل أولئك الذي يسعون إلى هيمنة النظم الاقتصادية الغربية المشرعة للربا وأكل المال بالباطل وإفقار شعوب العالم.. هل هؤلاء يحافظون على أصل الكتاب ومعظمه وأكثره؟

بل قل: هل هم على دين؟

أعد النظر في هذه المحكمات المقررة في الآيات السابقة، وتأمل حال الأمة اليوم تجاه أم الكتاب.

وهذا التعيين للمحكّمات الذي نص عليه ابن عباس ليس على سبيل الحصر، فقد جرت عادة السلف في التفسير أنهم كثيراً ما يعيّنون معنى ويريدون بذلك جزءاً من المعنى العام أو مثلاً للمعنى العام، ولهذا قال الطبري: (وأما المحكّمات فإنهن اللواتي قد أحكمن بالبيان والتفصيل، وأثبتت حججهن وأدلتهن على ما جعلن أدلةً عليه من حلال وحرام، ووعد ووعيد، وثواب وعقاب، وأمر وزجر، وخبر ومثل، وعظة وعبر، وما أشبه ذلك.

وإنما سماهن أمّ الكتاب، لأنهن معظم الكتاب، وموضع مَفَزَعِ أهله عند الحاجة إليه. وكذلك تفعل العرب؛ تسمى الجامعَ معظم الشيء أمّاً له، فتسمى راية القوم التي تجمعهم في العساكر: أمّهم، والمدبّرَ معظم أمر القرية والبلدة: أمها^(١). فالطبري يجعلها قطعية الدلالة على التحليل والتحريم والثواب والعقاب ونحوها، فليس لأحد أن يصرف دلالتها أو يُجري عليها قلم التأويل والإهمال.

لكن الطبري هنا يستنبط من الآية: وجوب الرجوع إليها عند الحاجة، وحيث وجد الخلاف فلا بد من العودة إلى موضع الاتفاق، وفي مسائل الخلاف أصول مشتركة لدى المختلفين، يقول: (وموضع مَفَزَعِ أهله عند الحاجة إليه) لأنها مما لا يصح الاختلاف عليها ولا تأويلها ولا تعطيلها، ومثال ذلك مسائل الصيام التي هي محل خلاف بين أهل العلم، فإنه مهما كان الاختلاف فإنّ الجميع يقول بفرضية صيام شهر رمضان؛ على هذه الأمة وعلى الأمم من قبلنا، وإذا اختلف أهل العلم في أحكام البيوع؛ فإنّ مما لا يختلفون فيه حرمة أكل الأموال بالباطل، وهلمّ جرّاً.

ولو تدبرت الآيات التي أشار إليها ابن عباس رضي الله عنهما فستجدها كذلك، فهي مع وضوحها وجلالتها للجميع فهي أيضاً مما لا يختلف عليه، وهي

(١) انظر: جامع البيان ٥/ ١٨٩.

جامعة للناس على اختلاف مشاربهم وطبائعهم واجتهاداتهم الفقهية وسبل سلوكهم الدعوي والاجتماعي.

أما الطاهر ابن عاشور فيقول: (المحكّمات هي أصول الاعتقاد والتشريع والآداب والمواعظ. وكانت أصولاً لذلك باتّضاح دلالتها، بحيث تدل على معاني لا تحتمل غيرها، أو تحتمله احتمالاً ضعيفاً غير معتدّ به)^(١). وهذا تأكيد لمعنى الوضوح وقوة الدلالة في المحكّمات، والذي يفهمه العامة والخاصة على السواء، لذلك قال ابن عطية: (المحكّم هو المتضح المعنى لكل من يفهم كلام العرب، لا يحتاج فيه إلى نظر، ولا يتعلق به شيء يلبس، ويستوي في علمه الراسخ وغيره)^(٢). لأنها لو كانت مما يلتبس على الناس لضاع دينهم، ولو جرى عليها أي تغيير أو تحريف عن المعنى لانهدمت الشريعة، فتحريم الزنا وقتل المعصومين بين التحريم ولا يحتاج الناس معه إلى تأويلات عالم، وهذا يعني أنّ جهل الناس بهذه المحكّمات هو جهل بأصل الشريعة، و جهل بألف باء الإسلام.

ويتأيد هذا بقول الشافعي عن العلم العام - أو ما يسميه علم العامة - أنه العلم الذي (لا يسع بالغا غير مغلوب على عقله جهله، مثل: الصلوات الخمس، وأنّ لله على الناس صوم شهر رمضان، وحج البيت إذا استطاعوه، وزكاة في أموالهم، وأنه حرم عليهم الزنا والقتل والسرقه والخمر، وما كان في معنى هذا،... وهذا الصنف كله من العلم موجوداً نصّاً في كتاب الله، وموجود عامّة عند أهل الإسلام ينقله عوامهم عن من مضى من عوامهم، يحكونه عن رسول الله، ولا يتنازعون في حكايته ولا وجوبه عليهم. وهذا العلم العام الذي لا يمكن فيه الغلط من الخبر، ولا التأويل، ولا يجوز فيه التنازع)^(٣).

(١) التحرير والتنوير ٣/ ١٥٥.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣٢٤.

(٣) الرسالة ص ٣٥٧.

هذا في توضيح معنى المحكمات وأمثلتها.

غير أن للمحكمات وظائف مهمة، مرَّ شيء منها فيما سبق، وقد لخصها ابن إسحاق وغيره من أهل العلم في عدد من النقاط، فقال:

(فيهنَّ حجة الرب، وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه)^(١).

فأولاً هي حجة الله على عباده، لما هي عليه من وضوح الدلالة وقوة الحجة، ويستطيع كل واحد من الناس أن يعرفها وأن يعرف الواجب عليه تجاهها، فهل أحد من المسلمين خالف في تحريم الشرك والقتل والزنا؟

أم هل هناك أحد من المسلمين قال بعدم وجوب الصلاة والزكاة وبر الوالدين؟ وقل مثل ذلك فيما وجب وحرّم مما أحكمته الشريعة بالبيان والتفصيل، وهذا يقتضي أن الشريعة في أصلها واضحة سهلة التعلم والاتباع في الضرورات.

ثم هي ثانياً عاصمة للعباد من الزيغ والخروج عن الدين، ذلك أن من حافظ عليها علماً وعملاً فقد حافظ على الإسلام في نفسه، ومن فرط فيها وأضاعها علماً وعملاً فقد أضاع الإسلام في نفسه، والشاطبي يصف هذا التفريط بالهدم، يعني هدم الشريعة، سواء كان المفرط يهدم الشريعة في ذاته أو يهدمها في الأمة، فيقول: (أم الكتاب يعم ما هو من الأصول الاعتقادية أو العملية، وإن المخالف في أصل من أصول الشريعة العملية لا يَقْصُر عن المخالف في أصل من الأصول الاعتقادية في هدم القواعد الشرعية)^(٢).

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣١٠.

(٢) انظر: الموافقات ٥/ ١٤٥.

إنَّ من يحافظ على المحكمات فهو -تلقائياً- يحافظ على أصول الشريعة، وعليه فهو يصون دمه وماله، ويحفظ مكانه في دائرة الشريعة وسبيل الأمان والمنهج الصحيح للإسلام.

وكما أنها عاصمة من الزيغ والخروج عن الدين؛ فهي أيضاً عاصمة من سقوط الأمة وضياع المجتمعات وانهيار الأسر والمؤسسات، فإنَّ التفريط في المحكمات يفضي بالأفراد والمجتمعات إلى الخراب في كل نواحيه، وانظر -على سبيل المثال- إلى قوة تأثير إباحة الزنا وشيوعه في العالم الغربي في انهيار نظام البيوت القائم على عقد النكاح بين الذكر والأنثى، وانظر إلى قوة تأثير فرض الربا في الاقتصاد في التنامي المستمر لمعدلات الفقر في العالم، والمترتب عليها تلقائياً ارتفاع معدلات الجريمة.

كما تقوم المحكمات أيضاً بتوحيد الأمة حولها، ففي حين قد تختلف الأمة في المتشابهات، فإنهم يجتمعون على المحكمات، أو كما يسميها الشافعي علم العامة أو العلم العام، وحين تختلف الأمة في الفروع فإنه يجب ألا تختلف على الأصول. بل إنها تمثل منطلقاً للنهضة وأساساً للإصلاح في الأمة، في برنامجها الدعوي والتنموي، وقد كان المجددون على مر القرون منذ مبعث النبي ﷺ وإلى اليوم، حين توغل المجتمعات في الانحراف، فإنَّ أول دعوتهم تكون في تثبيت هذه المحكمات، وراجع في ذلك سير أكابرهم كعمر بن عبد العزيز والشافعي وابن تيمية، وهكذا تجد ذلك في سير المصلحين.

دعك من هذا، وانظر إلى دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام التي حكاها القرآن، انظر إلى دعوة شعيب ولوط وموسى وبقية الأنبياء؛ هل كانت إلا في الدعوة إلى المحكمات ومكافحة هوانها.

المحكمات وأم الكتاب هي أصلٌ في الهداية المنشودة والاتباع المحمود.

من هنا تسير الأمة في الاتجاه الصحيح.

ثم هي ثالثاً تدفع الباطل وخصوم الحق، لأنها مرجع عند الاختلاف، ولقوتها لا يمكن دفعها بالباطل، ولوضوحها لا يمكن الالتباس وتمييع الحقيقة على عباتها، ولأنَّ الفطرة توافقها وتطلبها أصبحت مقبولة شرعاً وفطرة، ولا يمكن مدافعتها إلا بغض الطرف عن داعي الفطرة في النفوس؛ الأمر الذي تكرر الحضارة الغربية اليوم جهدها في الدعوة إليه.

ثم هي رابعاً حصن تحفظ به الشريعة وأحكامها من تحريف المحرفين وتأويل الزائغين ولي المعطلين، عبر العصور والأزمان كانت هذه المحكمات - كما يريد الله لها - عاصمة للشريعة من التبديل على الرغم من آلاف المحاولات والجهود التي عمدت إلى المشتبهات من النصوص لتجعل منها باباً مفضياً إلى تبديل الدين وتحريف الشريعة ولي أعناق النصوص، أفلا ترى أنه لا يختلف اثنان على تحريم عقوق الوالدين والظلم مثلاً؟

لقد أكسبت المحكماتُ شريعةَ الإسلام الثبات، ويمكن تشبيه ذلك بالأرض وبالجبال فيها، إذا شبهنا الشريعة بالأرض فإنَّ المحكمات هي الجبال التي تثبتها بإذن الله.

وإذا تأملت كلام الفقهاء حول مراتب الأعمال، وكيف يجعلون الضروريات أمماً للحاجيات ثم التحسينيات، وكيف يجعلون لكل مرتبة طريقاً تُتمى من خلاله وطريقاً يحافظ عليها من العوادي من خلاله.. تدرك أنَّ المحكمات هي الحصن الحصين للعلم والفقهاء وسائر أبواب الشريعة.

واليوم إذ تعاني الأمة من الدعوات المكثفة لحرف الإنسان عن فطرته وللتشويش على محكمات دينه؛ فإنَّ الحاجة تزداد إلى الدعوة إليها وتثبيتها في الناس وحمائيتها والدفاع عنها بالقلم واللسان والبيان، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبدروس العلم وخطب الجمعة، وعلى صفحات الإنترنت ومواقع التواصل، وعلى أي منبر يؤمه الناس وبأي وسيلة تصل إلى هذه النتيجة.

فرحم الله امرأً دعا الناس إلى التوحيد وإقام الصلوات الخمس وزكاة المال وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والإحسان إلى المساكين.

ورحم الله امرأً حذّر الناس من خطر الشرك والقتل والزنا والسرقه وشرب الخمر وإتيان الفواحش والظلم والغدر وأخذ الربا وأكل المال بغير الحق.

ألا إنَّ هذا أعظم ما يدعو المؤمن إليه أهله وجيرانه وأصحابه وأهل مسجده وأحبابه وأبناءه، وهذا هو جوهر دعوة الأنبياء والرسل والمصلحين.

على أنَّ امرأً مهمماً ينبغي التنبيه إليه هنا، وهو أنَّ هذه المحكمات ليست من العلم الذي يختص به النخبة من طلاب العلم والفقهاء والمفكرين والمثقفين، بل هي من العلم العام الذي - كما يقول الشافعي - يرويه العامة عن العامة ويتوارثونه خلفهم عن سلفهم، فيمكن للوالدين أن يساهما في هذه الدعوة العظيمة من خلال تربية أبنائهما عليها، ويمكن لمدير الدائرة أن يبذل جهداً لأجلها، ويمكن للتاجر أن ينظر في دوره تجاهها، ويمكن للمعلم أن يضع بصمته في تثبيتها في طلابه، وهلمَّ جراً.

فتلمَّس دورك في تشييد بناء المحكمات، واحظَّ بشرف وراثة الأنبياء والرسل، وليهنك الأجر العظيم من الله.

هذه سبيل الأنبياء.. الدعوة إلى أم الكتاب.

هداية لا تعباً بالتاريخ

كما أن المولى سبحانه هدانا في كتابه بالمحكمات التي هي أم الكتاب، فقد هدانا أيضاً بالمتشابهات، قال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾
[آل عمران: ٧].

والمتشابهات هنا هي: (التي يلتبس معناها على كثير من الأذهان: لكون دلالتها مجملة، أو يتبادر إلى بعض الأفهام غير المراد منها)^(١).

فليست هي الناصعة البيان على معنى واحد ولا هي قطعية الدلالة عليه، بل هي مما يختلف في معناها ومما يتنوع الاستنباط منها، وهذا خلافاً لما أوضحه أهل العلم والتفسير في معنى المحكمات. والمتشابهات من الآيات أنواع.

فمنها ما وصفه القاضي أبو محمد ابن عطية بقوله: (المتشابهات هي التي فيها نظر وتحتاج إلى تأويل؛ ويظهر فيها ببادي النظر إما تعارض مع أخرى أو مع العقل، إلى غير ذلك من أنواع التشابه. فهذا الشبه الذي من أجله توصف بمتشابهات، إنما هو بينها وبين المعاني الفاسدة التي يظنها أهل الزيغ ومن لم يمعن النظر، وهذا نحو الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ٤ / ٢٠٣٢ - فروقات.

متشابهات»^(١)، أي: يكون الشيء حراماً في نفسه؛ فيشبهه عند من لم يمعن النظر شيئاً حلالاً، وكذلك الآية يكون لها في نفسها معنى صحيح؛ فتشبهه عند من لم يمعن النظر أو عند الزائغ معنى آخر فاسداً، فربما أراد الاعتراض به عليّ كتاب الله^(٢).

وضرب مثلاً لهذا المعنى بإيراد النصارى - أعني وفد نجران - عليّ النبي ﷺ في تأليه عيسى وأنه ابن الله، قولهم: (أليس عندك في كتابك أن عيسى كلمة الله وروح منه؟).

فهذه الألفاظ قطعية الثبوت، لكنها تحتمل أوجهًا في اللغة والدلالة، فاستدل بها أولئك النصارى عليّ ما أرادوا، وليس عليّ ما أراد الله تعالى.

ولو رجعنا إلى المحكم في مسألة عيسى فسنجد آيات واضحة الدلالة عليّ إثبات عبوديته ورسالته ونفي ألوهيته بخلاف قولهم، مثل قوله تعالى:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي أَسْرَابِلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ بَيَّنَّ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَعْبُدُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة: ٧٢-٧٦].

(١) أخرجه البخاري ١/١٧٦، ح ٥٢.

(٢) المحرر الوجيز ٢/٣١٦.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (٣١) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي
الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ
حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ
وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ
يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿ [مريم: ٢٩-٣٥].

فهذه الآيات واضحة الدلالة على عبودية عيسى لله، وأنه رسول من عند الله
كسائر الرسل، وأنه ليس إلهًا، فهذه محكمات.

وقد بين العلماء أن الواجب في المتشابه بهذا المعنى أن يعاد به إلى أصله المحكم،
لأنَّ المحكم عاصم من الزيغ ولأنه مرجع عند الاختلاف، (فمن رد ما اشتببه عليه إلى
الواضح منه، وحكم محكمه على متشابهه عنده، فقد اهتدى، ومن عكس انعكس)^(١).
وابن كثير في هذه العبارة يذكر الواجب في المتشابهات، وهو ردها إلى المحكم، أي
جعل المحكم قاعدة للنظر، والمتشابه فرعًا عنه يلتحق به ولا يحدد عن طريقه، فإنَّ
للمحكمات وظيفة في تفسير وبيان المتشابهات، من حيث هي أصل ومرجع نرجع
إليه في فهمنا للمتشابهات، ولا يصح فهم المتشابهات في منأى عن المحكمات؛ هذا
مقتضى كلام أهل العلم، وليس العكس، أي: ليس رد المحكم إلى المتشابه كما فعل
فريق من أهل الكتاب من قبل، أو كما يفعل أهل الزيغ من هذه الأمة..

نعم.. من هذه الأمة.

فإنَّ في الأمة من عمد إلى آيات من القرآن من قبيل المتشابهات، فقام أولاً
بالتفريق بينها وبين المحكم الذي إليه ترجع، ثم أوَّلها وحرفها عن معانيها الصحيحة
إلى معانٍ فاسدة:

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣١٠.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾

[آل عمران: ٧].

وطريقة رد المتشابهات إلى المحكمات وإلحاق هذه بذي منهجية علمية؛ ألا ترى أن الفقهاء -مثلاً- حين يحررون مسألة فأول ما يذكرونه فيها مواطن الإجماع والاتفاق، ثم يشنون بمواطن الخلاف، لأن مواطن الإجماع والاتفاق ذات تأثير قوي في تحرير محل النزاع وتوجيه الأقوال وتأطيرها، بحيث لا يمكن أن تخرج الأقوال الصحيحة عن الإطار العام المجمع عليه، وبنحوه تفعل المحكمات.

وإنه لمن المؤسف أن يقع مؤمنٌ بما أنزل الله تعالى في فح الزائغين الذين أخبرنا الله عنهم في سورة آل عمران بأنهم يتبعون ما تشابه منه، فيعمدون إلى تأويل المتشابه وفق مناهج خاطئة، دون العودة إلى ما أحكم الله في موضوع الآية؛ فال بهم الأمر أن أحلوا ما حرم الله أو حرموا ما أحل الله، باسم التنوير تارة وباسم الحدائث تارة أخرى، فاغتر بهم فنام من المسلمين لم يكلفوا أنفسهم الرجوع إلى المحكمات، ولا حتى سؤال أهل العلم عنها، بل ربما وجدت طائفة منهم في تلك التأويلات الفاسدة ما يروق لهم أو ما يتماهى مع اتجاهاتهم.

وقد ذكر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب قاعدة في التعامل مع المتشابهات التي لم يتبين المؤمن فيها وجه الحق، فقال: (إذا قال بعض المشركين: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] وأن الشفاعة حق، أو أن الأنبياء لهم جاه عند الله، أو ذكر كلاماً للنبي ﷺ يستدلُّ به على شيء من باطله؛ وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكره، فجاوبه بقولك: إنَّ الله ذكر في كتابه أن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه. وما ذكرته لك من أن الله ذكر أن المشركين يقرون بالربوبية وأن كفرهم بتعلقهم على الملائكة والأنبياء والأولياء مع قولهم: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، هذا أمر محكم بين لا يقدر أحد

أن يغير معناه. وما ذكرت لي -أيها المشرك- من القرآن أو كلام النبي ﷺ لا أعرف معناه، ولكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض، وأن كلام النبي ﷺ لا يخالف كلام الله. وهذا جواب جيد سديد، ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله فلا تستهن به^(١).

وهذا ما ينبغي للمرء أن يتمثله في إيمانه بالكتاب؛ محكمه ومتشابهه.

وعلى أي حال؛ سيقف الجميع بين يدي الله تعالى يوم القيامة، وسيحكم الله بينهم فيما اختلفوا فيه، وسيتبرأ حينها أولئك الذين زاغت قلوبهم واتبعوا المتشابه ونشروا تأويلاتهم بين الناس عبر الشاشة أو عبر الكتب والمنشورات.. سيتبرؤون من اللاهثين خلفهم؛ الذين اتبعوهم على ضلالهم إذ ذاك:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾
إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَسَخَّطْنَا لَهُمْ عَنَّا كِسْفَ الْبَارِئِ لَوْلَا أَنَّهُمْ كَانُوا أَجْمَعِينَ ﴿١٦٧﴾
عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٨﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧].

وهل تنفع الحسرات يومئذ؟!

وأنت تلاحظ أن القرآن يضع المتبوعين هنا في قائمة الأنداد! كما يضع الأتباع الذين أغلقوا على عقولهم نوافذ التفكير، وأوصدوا الأبواب أمام الأدلة المحكمة.. يضعهم القرآن في قائمة من يتخذ نداً لله.

إذا فالقرآن يربي المسلم على تحمل مسؤوليته الكاملة، ومسؤولية اهتدائه وضلاله.

(١) كشف الشبهات ص ١٦.

القرآن الهادي بين يديه، وطريقة الاهتداء بالقرآن مشروحة فيه وفي بيان من أنزل عليه ﷺ، فلا مناص يوم القيامة من حصاد ما زرعتك بيدك أنت.

وثمة نوع آخر للمتشابهات ذكره ابن زيد، قال: (المحكم: ما أحكم فيه قصص الأنبياء والأمم، وبين لمحمد ﷺ وأمه. والمتشابه: هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرير في السور؛ بعضه باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني، وبعضه بعكس ذلك، نحو قوله: ﴿حَيْثُ سَعَى﴾ [طه: ٢٠] و﴿فَإِذَا هِيَ تُعْبَانُ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧] ^(١). وتكون الآيتان المتشابهتان تزيدان القصة وضوحًا وتفصيلًا وبيانًا، وربما استطاع المفسر والمتدبر أن يتعرف التسلسل التاريخي للقصة، وأن يستنبط منها أحكامًا وتوضيحات.

ونوع ثالث من المتشابهات، وهو الإجمال الذي يصح أن ندخل فيه عددًا من المعاني والأحكام الصحيحة، والتي تقبلها الأصول العلمية، من غير تأويل فاسد، وهو الذي أشار أبو الدرداء إليه بقوله: (لا يفقه كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهًا كثيرة) ^(٢).

وابن عاشور يشرح لك جملة أبي الدرداء، فيقول: (على أن من مقاصد القرآن أمرين آخرين:

أحدهما كونه شريعةً دائمة، وذلك يقتضي فتح أبواب عباراته لمختلف استنباط المستنبطين، حتى تؤخذ منه أحكام الأولين والآخرين.

وثانيهما تعويد حملة هذه الشريعة وعلماء هذه الأمة التنقيب والبحث واستخراج المقاصد من عويصات الأدلة، حتى تكون طبقات علماء الأمة صالحة في كل زمان

(١) المحرر الوجيز ٣١٨/٢.

(٢) مصنف ابن شيبه ١٤٢/٦، ح ٣٠١٦٣.

لفهم تشريع الشارع ومقصده من التشريع، فيكونون قادرين على استنباط الأحكام الشرعية، ولو صيغ لهم التشريع في أسلوب سهل التناول لاعتادوا العكوف على ما بين أنظارهم في المطالعة الواحدة.

من أجل هذا كانت صلوحية عباراته لاختلاف منازع المجتهدين قائمة مقام تلاحق المؤلفين في تدوين كتب العلوم؛ تبعاً لاختلاف مراتب العصور. فإذا علمت هذا علمت أصل السبب في وجود ما يسمى بالمتشابه في القرآن^(١).

والمتشابهات بهذا المعنى تحمل في طياتها سعة الإسلام وشموله، إذ تفتح الباب للمجتهدين للمزيد من استنباط المعاني والفوائد والعبر، وفي رده على الرافضين لهذا الاتجاه المستندي إلى حديث: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»^(٢). يقول الماوردي: (قد حمل بعض المتورعة هذا الحديث على ظاهره، وامتنع من أن يستنبط معاني القرآن باجتهاده؛ ولو صحبتها الشواهد ولم يعارض شواهدا نص صريح. وهذا عدول عما تعبدنا من معرفته من النظر في القرآن واستنباط الأحكام منه، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]. ولو صح ما ذهب إليه لم يُعلم شيء بالاستنباط، ولما فهم الأكثر من كتاب الله شيئاً. وإن صح الحديث؛ فتأويله أن من تكلم في القرآن بمجرد رأيه ولم يعرج على سؤى لفظه وأصاب الحق؛ فقد أخطأ الطريق، وإصابته اتفاقاً، إذ الغرض أنه مجرد رأي لا شاهد له)^(٣).

فالمتشابهات بمعنى الإجمال هي الرحم التي أنجبت قولهم: الشريعة صالحة لكل زمان ومكان، وبهذا النوع من المتشابهات تعالج مشكلات العصر، وينساب

(١) التحرير والتنوير ٣/ ١٥٨.

(٢) أخرجه الترمذي ٥/ ٢٠٠، ح ٢٩٥٢ وقال: هذا حديث غريب، وضعفه الألباني في الجامع (٥٧٣٦).

(٣) انظر: النكت والعيون ١/ ٣٤، وهذا التلخيص منقول من البرهان للزركشي ٢/ ١٦٢.

الإسلام من أوعية العلم إلى واقع الحياة في كل جيل وعلى كل أرض، شريطة أن تكون المحكمات هي الأم والأصل الذي نرجع إليه في ذلك.

وهناك نوع رابع من المتشابهات، وهو ما عبر عنه ابن عطية بقوله: (ما لا يُعلم البتة، كأمر الروح وآماد المغيبات التي قد أعلم الله بوقوعها)^(١)، فليس هناك حاجة إلى البحث في كنهها، مثل: الروح ووقت قيام الساعة ووقت خروج الدجال ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى عليه السلام ومعنى الحروف المقطعة في أوائل السور، وغير ذلك مما أخفاه الله عن الناس وليسوا بحاجة إلى معرفته، إذ لا يمكن شرعاً أن يحتاج الناس إلى شيء في معاشهم ومعادهم ثم لا يبينه الله تعالى لهم.

فالواجب في هذا النوع هو الإيمان بما أحكم منه؛ كحتمية قيام الساعة على الصفة التي ذكر الله تعالى، وخروج الدجال في الناس وكذلك خروج يأجوج ومأجوج ونزول عيسى في آخر الزمان، ورد ما اشتبه منه إلى علم الله؛ كوقت حدوث كل ذلك، ويكون من الغيب الذي نؤمن به:

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ ؕ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣٢٥.

الأسئلة الكبرى

قضى الفلاسفة أعمارهم وأوقاتهم في بحث دؤوب للإجابة عن الأسئلة الوجودية الكبرى:

من الإله؟

ومن أنا؟

ومن أين أتيت؟

وما المصير؟

ولماذا خلقنا؟

وما يتفرع عنها من سوالات، مثل: من الموجد لهذه الكائنات؟

وما علاقة الإنسان بها؟

وما تعريف الملائكة والشياطين؟

وكيف بدأت الخليقة؟

وما موقفنا من الغيب؟

وما موقفنا من الدين والسحر والأساطير والعقل...؟ إلى آخر هذه المفردات

والمفاهيم، والتي لا يعرف فيها الصواب إلا من استضاء بنور الوحي:

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلتَّقِينِ﴾ [البقرة: ٢].

ألا ترى أن عوام المسلمين وعجائزهم لا يشعرون بحيرة في عقولهم، ولا باضطراب في حياتهم، ولا يجدون قلقاً تجاه مصيرهم! ذلك أنهم لا يعرفون غير القرآن والسنة، فبقيت فطرتهم سوية مستقيمة.

إنما تجد هذه الإشكالات عند من لم يستضيء بنور الوحي من الملحدين، ومن أهل الكتاب الذين حُرِفَتْ كتبهم، ومن الوثنيين، ومن اللادينيين والذين هم في الحقيقة يعبدون ذواتهم وأهواءهم، ومن الزائغين الذين يتبعون المتشابه من القرآن ويذرون محكمه.

بل وكذلك من أهل الإسلام الذين يتأثرون بمن ذكرت لك، ممن يقرأ كتبهم ويمعنون النظر فيها، ويستمعون إلى مقالاتهم وشبهاتهم.

وإذا تفهمنا سبب ضلال الفلاسفة وضياع أعمارهم في هذا الباطل، وأنهم أقاموا منهجاً بمنأى عن الوحي الإلهي الذي يجيب عن كل أسئلتهم المطروحة ويشفي صدورهم الحرجة؛ فكيف نتفهم ضلال بعض أهل الإسلام؟ والقرآن المعصوم بين أيديهم، والنور مشرق أمام أعينهم!

وإذا تفهمنا أن عقيدة اليهود والنصارى في الله سبحانه قد حُرِفَتْ، وأن تفسيرهم لعدد من القضايا الكبرى مكذوب على الله تعالى وعلى أنبيائه الذين بعثهم في تيك الأقوام؛ فلماذا يتيه بعض أهل الإسلام؟ وكتاب الله لم تتل منه يد التحريف ولم تطله يد العابثين، وحديثُ رسوله ﷺ واضح التمييز، بين ما صح منه وما لم يصح!

لم يكن هذا سؤالي فحسب أو سؤال عامة المؤمنين، بل إن الله تعالى يبين أن هذا التساؤل جدير بالاهتمام، فيذكره في ثنايا الحديث عن انحرافات القوم:

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

إنما وقع التيه في أبناء الإسلام حين اتبعوا الفلاسفة الضلال وأصحاب المناهج المنحرفة، باسم التنوير والعلم والترجمة والتشاقف والتحضر والتقدم، ولذلك نبه القرآن إلى هذه المسألة:

﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

ومهما يكن؛ فإنَّ سورتَي البقرة وآل عمران - وهما تنزلان في بداية تكوين الأمة المسلمة - راعتا الانفتاح الفكري في المدينة الجديدة «طيبة»، إذ يعيش اليهود في المدينة في ثلاث قبائل، بما يحملونه من العقائد والأطروحات الفكرية التي يستقونها من دينهم المحرف، ومن كذبهم على الله تعالى وجرأتهم عليه، كما راعتا امتداد نفوذ دولة الروم إلى أطراف الجزيرة العربية والأقاليم المجاورة لها كالشام ومصر والحبشة - التي آوت جزءاً من المهاجرين السابقين - بما تحمله هذه الدولة من عقيدة وفكر ونظرية اجتماعية واقتصادية.

وذلك إضافة إلى ما لدى مشركي العرب؛ قريش والقبائل الأخرى، من انحراف في الإجابة عن هذه الأسئلة.

وإذا ضربت لك مثلاً؛ فإنَّ مشركي العرب يؤمنون بالملائكة، لكنهم يعتقدون أنهم بنات الله تعالى، واليهود يعتقدون أنَّ عزيراً ابنُ الله تعالى، ذلك أنَّ الله أماته ثم أحياه، كما في قصة الذي مر على القرية الخاوية على عروشها؛ فيفسرون ذلك ألوهيةً في عزير، كما يرون أنَّ آدم إلهٌ مع الله، وفي الجملة فإنَّ اليهود - لعنهم الله - يعتقدون إمكانية تعدد الآلهة، أما النصارى فيعتقدون أنَّ عيسى ابنُ الله، وأنه مستحقُّ للعبادة.

ويُتفرَّع عن مثل هذه العقائد الفاسدة: اعتقادُ اليهود بأنَّ الله تعالى إلهٌ فيه ضعف وقصور، تعالى الله، فهو كما يزعمون: فقير، ويده مغلولة، وأنه يتعب، وله أولاد. ولكثرة انحرافاتهم بعث الله فيهم كثيرًا من الأنبياء، ليصححوا لهم ما ابتدعوه من المفاهيم:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۗ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْكِتَابَ وَآيَدْنَاهُ رُوحَ الْقُدُسِ ۗ﴾ [البقرة: ٨٧].

فموسى عليه السلام بعثه الله تعالى بالتوراة إلى بني إسرائيل، ثم بعد موته بعث الله تعالى إليهم عددًا من الرسل والأنبياء، ثم بعث عيسى عليه السلام إليهم بعد ذلك.

وكذلك النصراني، يرون في الإله قصورًا وضعفًا، ويشتركان -أي اليهود والنصارى- في إعطاء الإنسان بعض القوة الإلهية، وبعض الصفات الإلهية، وهذا ما يوضح لك اليوم واحدًا من التفسيرات الصالحة لاعتداد الحضارة الغربية بقوة الإنسان: لأنهم في حقيقة الأمر يسبغون عليه شيئًا من صفات الله تعالى، فهو القوي والجبار والمتكبر والجميل والناجح والمتحكم؛ كما يتوهمون.

وعلى أي حال؛ فإنَّ كل الذين يشركون بالله تعالى؛ فإنَّ لديهم تصورًا خاطئًا في مفهوم «الإله»، إذ تشكلت لديهم -على اختلاف مشاربهم- قناعة بقصور الإله عن العظمة المطلقة والقوة المطلقة والعلم المطلق، ولهذا اشتملت السورتان: البقرة وآل عمران، على تعريف الله بأنه الحي القيوم، ولا يوجد هذا التعريف العظيم إلا في هاتين السورتين، ولا يمكن وصف آلهة بهذا على الإطلاق.

بل جاءت سورة البقرة بأعظم آية تعرّف بالله تعالى، وهي أعظم آية في القرآن على الإطلاق، فقد اكتسبت عظمتها من عظمة المعرّف به، وهو الله جل شأنه:

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۗ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۗ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۗ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

إنَّ الله جل وعلا لا يشبه كل تلك التصورات عن الإله.
إنه أعظم من ذلك.

فهو إله لا يعرض له الخطأ ولا النسيان ولا النوم ولا الوفاة ولا الجهل ولا الضعف، ولا غير ذلك من التصورات المنحرفة.

لقد نزلت هاتان السورتان لتعالجا هذه القضايا، بلغة سهلة واضحة بينة، وهي صدقٌ وحقٌّ من عند الله، وليست هي من تأويل المبطلين، ولا من اختراع المحرفين، وليست هي من اكتشاف البشر ولا من نتاج عقولهم، بل هي من المحكم الذي لا يقبل التأويل ولا الاشتباه.

وعالجت سورة البقرة تعريف الملائكة وآدم والشيطان؛ تعريفاً مرتبطاً بمفهومي العبودية والإلهية.

وذكرت أنَّ الله تعالى خلق الملائكة وآدم والشيطان.

وأنَّ العلم الموجود عند آدم إنما اكتسبه من تعليم الله له.

وأنَّ الملائكة لم تكن تعلم حكمة الله في خلق آدم.

وأنَّ آدم عبداً جرى عليه قلم التكليف، بعد أن خلقه الله وعلمه.

وأنه بعد أن علمه الله أسجد له الملائكة.

ثم أنزله الله من الجنة بعد أن وقعت منه معصية جرَّه الشيطان إليها.

وَأَنَّ الشَّيْطَانَ مَطْرُودٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، لِأَنَّهُ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ.

وَأَنَّهُ يَأْمُرُ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَىٰ، وَيَعِدُّ بِالْفَقْرِ.

وَأَنَّ اللَّهَ يَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ وَيَعِدُّ بِالرَّحْمَةِ، إِلَى آخِرِهِ.

ومن يتأمل سورة البقرة يدرك ضلال من يسوي أحد هذه المخلوقات بالله تعالى، أو يجعل شيئاً منها جزءاً منه سبحانه أو فرعاً له تعالى وتقدس.

وعالجت سورة البقرة موضوع بدء الخلق، فذكرت مبدأ السماوات والأرض ومبدأ البشر وخلق آدم وحواء وتزويجهما، وإسجاد الملائكة لآدم، وقصته في الجنة ونزوله منها إلى الأرض، وبدء حياته فيها، والحكمة من ذلك:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَأِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَّخِذُمْ أَنْثَاهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَأِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَتَّخِذُمْ أَسْكُنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَلَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ [البقرة: ٣٠-٣٨].

فتخيل أيها الفاضل أن كل عوام المؤمنين وعجائزهم لديهم معلومات كافية وصحيحة، وبسيطة أيضاً عن بدء الخلق!

المسألة لا تحتاج إلى دراسة في جامعة كبرى أو مركز بحثي مرموق، كل ما عليك هو أن تفتح المصحف، وتشعر في قراءة سورة البقرة.

وانظر - في هذه الآيات - بيان التفوق الإلهي على قدرات المخلوقين في القوة والعلم، ولاحظ أن الآية ابتدأت بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ﴾، يعني: واذكر لهم يا محمد إذ قال ربك كذا وكذا مما ورد في الآيات، ليكون لأصحابك علم صحيح بحقيقة الوجود، علم يدفع ما يطرأ على الناس من الأفكار والعقائد التي رسمتها الطوائف الضالة افتراء على الله، واعتداء على الحقائق.

ولقد عالجت السورة كذلك مسألة المصير؛ مصير الإنسان بعد الموت، وهو الجزاء والحساب والبعث من القبور والإحياء بعد الإماتة:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١-١١٢].

وعالجت سورة البقرة كذلك علاقة الإنسان بالكون:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

فكل ما في الأرض من أودية وسهول وجبال وأنهار وبحار وحيوانات وطيور ونباتات... إنما هي هبة من الله للإنسان، لينتفع منها، وليستمتع بها، وليستثمر علمه

في ترسيخ العبودية لله وعمارة الأرض ونفع الناس، فعلاقة الإنسان بالكون علاقة انسجام وليست علاقة صدام كما تصور العقائد والأساطير بأن للطبيعة إلهًا يدعى «زيوس» وأنه حرم البشرية مما ينفعها، وكانت له شعلة نار فيها هذا النفع للبشرية، فكانت البشرية في إثر ذلك تعيش حالة بدائية رديئة، لأنها محرومة من هذه الشعلة، وأن «بروميثيوس» أنقذ البشرية بتمرده على «زيوس»، ثم بسرقة لشعلة النار تلك من جبال «أولمبوس»^(١)، ونزل بها إلى البشر فأعطاهم إياها، فاستدفؤوا بها وطهروا بها طعامهم وأفادوا منها في أعمالهم ومصالحهم^(٢).

والأسطورة ترمز بـ«زيوس» إلى أنه الآلهة الكبرى المسيطرة على الطبيعة والمخلوقات، وترمز بـ«النار» إلى نور العلم والمعرفة الذي تمكن «زيوس» به من السيطرة على الطبيعة والإفادة منها، وأنَّ البشر حصلوا على العلم -الذي به تُطوِّع الطبيعة- من خلال الصراع مع الآلهة العظمى التي لا تريد للبشرية أن يتعلموا ولا أن تتحسن أحوالهم، فانتصرت آلهة العلم «بروميثيوس» على آلهة الطبيعة «زيوس»، فأنتجت الحضارات، وأنتجت هذه الحضارة الموجودة اليوم.

ومن ثمَّ فإنَّ على الإنسان المتحضر اليوم -هكذا توحى هذه الأساطير- أن يعبد إله العلم والعقل كما زعموا، وأن يكفر بإله الطبيعة ويحاربه! يقصدون خالقها سبحانه.

وفي حقيقة الأمر هي تعبير عن تقديس العقل والمعارف والإنسان الذي يمتلكها، ورفض الدين والكفر برب العالمين.

(١) مراسم افتتاح الألعاب الأولمبية هي مراسم دينية شعائرية يونانية تشمل: المرتفع «أولمبوس» و«شعلة النار» المقدسة المأخوذة منه والشخص الذي يأتي بها «بروميثيوس» والحفل المصاحب والمكان المهيأ للحفل «الملعب».

(٢) انظر: أساطير إغريقية ٣/ ٨٤.

وهذا ما يفسر تقديسهم العلوم الدنيوية، لأنها تقهر الطبيعة كما يقولون، وما الدمار الذي يلحق بالأرض التي تطؤها أقدامهم إلا واحد من إفرزات هذه الفكرة الملعونة، سواء دخلوها حربًا أو سلمًا.

وسورة البقرة عالجت مسألة العلوم الغيبية، وحسنت موضوعها من البداية، ونصّت على أن الإيمان بالغيب شرطٌ في نجاته العبد وفلاحه:

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴿٣﴾﴾ [البقرة: ٢-٣].

وشرط ذلك أن تكون معلومات الغيب منصوصًا عليها في الوحي السماوي؛ القرآن، وما صحَّ من السنة، وفي المقابل أخرجت مسألة السحر:

﴿وَاتَّبِعُوا مَا نَزَّلْنَا لِّلشَّيْطَانِ عَلَىٰ مِثْلِ سُلَيْمَانَ ۗ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ۗ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا ۗ يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ۗ وَمَا أَنزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَرُوتَ وَمَرُوتَ ۗ وَمَا يَعْلَمَانِ مِن أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۗ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وبهذه الإجازات، والتي هي مفصل بين عند من نزلت بين ظهرانيهم سورة البقرة، تكوّن لدى المؤمنين - في وجود سوقٍ للأفكار والعقائد - رصيد علمي فكري قطعي الثبوت عن مسائل طال الجدل فيها بين الأمم والحضارات.

وفي قطعة نفيسة يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

(وأما المتأخرون [يقصد: متأخري الفلاسفة] فهم لما ظهرت الملة الحنيفية الإبراهيمية التوحيدية، تارةً بنوّة عيسى لما ظهرت النصراني على مملكة الصابئين بأرض الشام ومصر والروم وغيرها، ثم بنوّة خاتم المرسلين، وأظهر الله من نور النبوة شمسًا طمست ضوء الكواكب، وعاش السلف فيها برهة طويلة، ثم خفي بعض نور النبوة؛ فعرب بعض كتب الأعاجم الفلاسفة من الروم والفرس والهند في أثناء الدولة العباسية، ثم طلبت كتبهم في دولة المأمون من بلاد الروم، فعربت

ودرسها الناس، وظهر بسبب ذلك من البدع ما ظهر، وكان أكثر ما ظهر من علومهم: الرياضية كالحساب والهيئة أو الطبيعة كالتب أو المنطقية، فأما الإلهية فكلامهم فيها نزر، وهو مع نزره ليس غالبه عندهم يقيناً.

وعند المسلمين من العلوم الإلهية الموروثة عن خاتم المرسلين ما ملأ العالم نوراً وهدى، بل متكلموهم الذين ينسبون إلى البدع عندهم من العلم الإلهي بمقاييسهم المستخرجة أضعاف أضعاف ما عند حذاق المتفلسفة^(١).
فيا رب لك الحمد على هداياتك التي تفوقنا بها على الفلاسفة والحكماء.

(١) مجموع الفتاوى ٢ / ٨٤.

الفصل الثاني

الأمة وتاريخية الأديان

العهد القديم

يرى بعض المؤرخين^(١) أنَّ منشأ وجود اليهود في الحجاز هو هجرتهم من الشام في أعقاب ثورات أحدثوها ضد الروم في القرنين الأولين الميلاديين، ذلك أنَّ الروم استولوا على الشام ومصر في القرن الأول قبل الميلاد. والروم - كما علمت - كانوا حينها وثنيين يعبدون الأصنام ويؤلهون الأباطرة. واليهود أهل كتاب.

فهاجرت قبائل يهودية إلى الحجاز ويثرب، وكان اختيار هذه المنطقة ناتجاً عن عدد من الاعتبارات:

- بُعد الحجاز عن سيطرة الروم، بل بعد الجزيرة العربية عن سيطرة الدول الكبرى حينها، ما يتيح لهذه القبائل اليهودية أن تحافظ على كيانها بعيداً عن الأخطار التي تهدد وجودهم.
- يعلم اليهود - وفقاً لما في كتبهم من البشارات - أنَّ نبياً بعد عيسى يبعث في أرض الحجاز في آخر الزمان، ويكون خاتم النبيين، فرجوا أن يكون منهم.
- موقع يثرب التجاري المتفوق، حيث تقع في طريق القوافل التجارية في غرب الجزيرة العربية، فأى قافلة تُسير إلى شمال الجزيرة العربية أو إلى جنوبها فالطريق إليها يمرُّ بجوار يثرب، إضافة إلى الطريق البحرية القريبة منها.

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة لأكرم العمري ١/ ٢٢٧ وما بعدها، ودراسة في السيرة النبوية لعلماد الدين خليل ص ٣٢١ وما بعدها.

■ أرض يثرب الصالحة للزراعة؛ حيث خصوبة الأرض ووفرة المياه، الأمر الذي استثمرته قبائل اليهود النازحة، فحولوا هذه الأرض إلى بساتين نخل وحبوب وغير ذلك، واهتموا بتربية الدواجن والماشية، وبرزت صناعة النسيج والأواني المنزلية وغير ذلك من الأدوات اللازمة للمجتمع الزراعي أو الناتجة عن طبيعة العمل الزراعي.

■ أرض يثرب واحة خضراء تحتضنها عدد من الجبال والحرث، أي أنها أرض حصينة إلى حد كبير، وهذا الموقع يسهم طبيعياً في الدفاع عن يثرب إذا حلَّ عليها هجوم عسكري من أي عدوٍّ خارجي.

وعلى أي حال؛ فقد هاجرت عدد من البطون والقبائل اليهودية من الشام إلى أرض الحجاز، وإلى يثرب خاصة، وكما أثروا في العرب فقد تأثروا أيضاً بهم، ومن ذلك نقلهم للخبرة الزراعية والاقتصادية إلى الحجاز، واكتسابهم الكرم والشعر والتدرب على السلاح منها.

ويبلغ عدد البطون النازحة إلى الحجاز قرابة العشرين، أهمها: بنو قريظة وبنو قينقاع وبنو النضير في يثرب، ويهود خيبر شمالاً.

وإسرائيل اسم القبيلة، واليهود اسم الديانة، والخطاب في سورة البقرة جاء لبني إسرائيل لأنَّ اليهود من غير هذه القبيلة يعدُّون تبعاً لهم^(١).

وإذا سلطنا قليلاً من الضوء على السبب الثاني من أسباب هجرتهم؛ فإننا سنجد أنَّ اليهود في زمن مبعث النبي ﷺ كانوا شديدي العناية بقضية المبعث الأخير والنبوة الخاتمة، وكانوا يتحدثون به بين العرب في مجالسهم ومدارسهم ودورهم

(١) التحرير والتنوير ١/ ٤٤٩.

وأسواقهم، وكانوا يذكرون صفته ودعوته، وكانوا يرون قرب موعد خروجه، وكانوا يتباهون بذلك على العرب، إذ يرون أن هذا النبي سيكون منهم وأنهم أولى الناس به، وأنهم ينتصرون به ويغلبون من سواهم، وهذا يتوافق مع جهودهم في السيطرة على الناس بالمال والسلاح.

وفي تلك الأثناء..

أشرفت شمس الرسول محمد ﷺ القرشي المكي العربي.

وبعث محمد ﷺ النبي الأمي.

وخابت ظنون اليهود.

ومن تدبير الله تعالى لنبيه ﷺ ولهذه الأمة الجديدة أن تلك الأحاديث والدعايات التي بثتها اليهود صنعت مناخًا صالحًا لاستقبال هذا النبي الجديد عند العرب.

لكنهم، ومنذ تلك اللحظة، ناصبوا رسول الله ﷺ العدا، بل جعلوه الرقم الأول في قائمة الخصوم، ودرسوا عليه المؤامرات والذرائع، وألبوا عليه القبائل، وحرصوا قريشًا على رفض دعوته.

وفي واقع الأمر لم يكن سلوكهم هذا جديدًا عليهم، فقد فعلوا مثل ذلك مع أنبيائهم، وحاربوهم، وحاربوا عيسى بن مريم ووشوا به إلى ملوك الروم، والله تعالى أخبرنا عن هذه العادة الشنيعة في سورة البقرة:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۗ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

ولسنا بصدد التأريخ لليهود..

وإنما هي مقدمة قد يحتاج إليها القارئ في فهم التناول القرآني لموضوعهم، وإلا فإن النبي ﷺ أول ما هاجر إلى يثرب «المدينة» أقام معهم علاقة ذات طابع سلمي تقوم على الحقوق والواجبات؛ وذلك قبل أن يجاهروا بالعداء، وسلك معهم سبيل الدعوة إلى الإسلام قبل أن ينقضوا العهد والميثاق.

وكذلك فعل القرآن..

فنزلت سورة البقرة وفيها عشرات الآيات، تخاطب اليهود وتدعوهم إلى الإيمان بالقرآن «الكتاب الجديد» وبمن أرسل به، وهو محمد ﷺ، وتخاطبهم باسم بني إسرائيل تذكيرًا بالتاريخ والأصول:

﴿يَبْنَئِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّيَ فَآرْهَبُونَ ﴿٤٠﴾ وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّيَ فَانْقُورِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة: ٤٠-٤٣].

فالله تعالى يأمرهم بأن يوفوا بالعهد الذي عهده إليهم في التوراة وسائر الكتب التي أنزلت عليهم بعدها: الزبور وكتاب أشعياء وأرمياء وحزقيال ودانيال وغيرها.

وهذا العهد هو الإيمان بالنبي العربي الأمي: محمد ﷺ، وما جاء به من القرآن والشرائع، قال ابن كثير: (بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي محمد ﷺ إذا جاءكم)^(١)، وذلك أن جميع الكتب المنزلة على بني إسرائيل ذكرت صفة محمد ﷺ ومبعثه، وألّمت اليهود الإيمان به، ونصرته إذا بعث بين ظهرانيهم؛ هذا هو العهد.

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٦٥.

فواعجباً للنبي محمد ﷺ، يسري خبره عبر القرون والأأم!

والله سبحانه يقفهم على مسألة محورية في هذه الدعوة الصريحة إلى الإيمان بالقرآن، وهي أن القرآن نزل مصدقاً لما جاءت به هذه الكتب، ومقررًا للمحكم منها ومثبتاً لأصول شرائعهم، لا سيما المحكمات: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا﴾.

ثم الله تعالى ينهاهم عن الكفر برسالة محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوْلَ كَافِرٍ بِهِ﴾، لأن موقفهم من الرسالة الجديدة محل نظر قبائل العرب وشعوب العالم؛ فهم أهل الكتاب وأهل المعرفة بمبعث النبي الجديد^(١)، ولأن يهود المدينة أول بني إسرائيل خوطبوا بالقرآن، فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم^(٢).

وإذا كان الخطاب موجَّهًا إلى بني إسرائيل؛ فإن أحبار اليهود وعلماءهم في مقدمة المخاطبين بهذه الآيات^(٣)، ذلك أنهم هم القدوة والمنظرون وأهل الفكر والمعرفة والعلم، وقد قال النبي ﷺ: (لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود كلهم)^(٤)، ولذلك حذَّره الله من أن يكونوا عائقًا عن الإيمان أو عقبة في طريق الناس إليه: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوْلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَابَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلِدُسُوا الْحَقَّ بِالْبُطْلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾.

وهنا عقدة لم يستطع أحبار اليهود أن يتخلصوا منها!

إن إيمانهم بمحمد ﷺ وبشريعته الجديدة المهيمنة تعني تخليهم عن بعض المكاسب الدنيوية التي حازوها بفضل رياستهم الدينية، فإنهم كانوا أهل رأي وزعامة، وكانوا كذلك يتكسبون المال من جراء هذه الرياسة الدينية بشكل أو بآخر.

(١) انظر: المحرر الوجيز ١/ ٣٨٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٦٧.

(٣) جامع البيان ١/ ٦٠١.

(٤) أخرجه البخاري ٤/ ٤٠٠، ح ٣٩٣٣.

وَحَقًّا.. فَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْإِبْتِلَاءِ الَّذِي يَبْتَلِي بِهِ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَمَنْ صَنَعَ مِنْهُمْ الْعِلْمَ رَمُوزًا وَقِدَوَاتٍ وَمُقَدِّمِينَ فِي مَجْتَمَعَاتِهِمْ هُوَ الثَّبَاتُ عَلَى حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ؛ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى حَسَابِ ضِيَاعِ مُسْتَقْبَلِهِمُ الْاجْتِمَاعِيِّ الْمَرْمُوقِ، أَوْ عَلَى حَسَابِ خَسَارَتِهِمُ الْمَالِيَةَ النَّاتِجَةَ عَنْ إِقْصَائِهِمْ، أَوْ عَلَى حَسَابِ تَشْوِيهِ اسْمِهِمُ الَّذِي طَالَمَا كَانَ يعلو قِوَامِ الْمَدِيحِ وَالْإِطْرَاءِ، أَوْ عَلَى حَسَابِ تَسْلِيطِ الْإِعْلَامِ الضُّوْءِ عَلَى مَا يَسْقُطُ قِيَمَتُهُمُ الْعِلْمِيَّةُ وَالِدِينِيَّةُ وَالْاجْتِمَاعِيَّةُ.

إِبْتِلَاءُ الْإِيمَانِ لَيْسَ بِالسِّيَاطِ الْكَافِرَةِ فَحَسْبُ!

بَلْ هُنَاكَ أَوْجُهُ أُخْرَى لِلْإِبْتِلَاءِ.

أَمَّا إِبْتِلَاءُ أَحْبَارِ الْيَهُودِ فَهُوَ فِي أَنَّ إِيْمَانَهُمْ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ يَلْزِمُ مِنْهُ النُّزُولَ عَنْ مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ مِنْ رِيَاسَةِ دِينِيَّةٍ فِي أَقْوَامِهِمْ، وَمَا يَلْحَقُ بِهَذِهِ الرِّيَاسَةِ مِنَ الْإِسْتِيْلَاءِ عَلَى الْمَالِ وَالْمَنَاصِبِ وَصَنَعَ الْقَرَارِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يُمْتَحَنُ فِيهِ النَّاسُ عَلَى إِيْمَانِهِمْ بِتَرْكِهِ لِلَّهِ تَعَالَى، مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ وَإِلَى الْيَوْمِ.

لِذَلِكَ تَشْرَبَتْ نَفُوسُهُمُ حَيْثُئِذَ الْكُفْرِ بِرِسَالَةِ الْإِسْلَامِ، وَاتَّجَهَتْ عُقُولُهُمْ نَحْوَ تَضْلِيلِ أَفْكَارِ النَّاسِ تَجَاهَهَا وَتَسْمِيمِ عُقُولِهِمْ بِالْكَفْرِ بِهَا.

وَبَدَأَ مَشْرُوعَ بَثِّ الشُّبُهَةِ!

الْمَشْرُوعَ الَّذِي يَتَقَنَهُ الْيَهُودُ مِنْذُ الْقَدَمِ.

هُنَا نَهَاهُمْ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ تَضْلِيلِ النَّاسِ؛ عَنْ لَيْسِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، وَذَلِكَ بِإِظْهَارِ الْبَاطِلِ فِي صُورَةِ الْحَقِّ، وَتَزْيِينِهِ لِيُرَاجَّ بَيْنَ النَّاسِ، وَلِتَقْبَلَ الْعُقُولُ الْفَارِغَةُ وَالْمَعْتَمَةُ، أَوْ رُبَّمَا عَمِدُوا إِلَى الْإِقْرَارِ بِجُزْءٍ مِنَ الْحَقِّ وَإِنْكَارِ جُزْءٍ آخَرَ مِنْهُ بِغِيَةِ نَقْضِ الْأَوَّلِ، كَمَا يَقُولُ مِنْهُمْ: نَحْنُ لَا نُنْكِرُ رِسَالَةَ مُحَمَّدٍ، فَهُوَ النَّبِيُّ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى الْعَرَبِ؛ وَلَمْ يَرْسَلِهِ إِلَيْنَا! فَيُؤْمِنُ بِرِسَالَتِهِ وَيُجْحَدُ عَمُومَهَا.

وأنت تلاحظ في هذا الوصف؛ أعني لبس الحق بالباطل، صورة مجسدة، فاللبس هو الخلط كما يقول الطبري^(١)، أي لا تخلطوا الحق بالباطل، وبهذا المعنى فإنَّ المقابل قد يروج عليه الباطل لما يرى فيه من حق! فيتبعه الباطل لوجود الحق. وهذه دعوة إلى التيقظ المعرفي، وعدم الاغترار بالدعايات، ووجوب فحصها ونقدها وتمييز عناصرها ومكوناتها، وألا يغرك وجود حق ما عن رد الباطل المتلبس به.

وهذا المعنى الذي ذكره الطبري لا يختلف عن المعنى الذي ذكره الزجاج^(٢)، وهو التعمية، فإنَّ اللباس يخفي ما تحته، وهذا ما يحدث في لبس الحق بالباطل، فإنك لا تتبين حقيقة الأمر إلا بالفحص والاجتهاد والتفريق بين الاثنين. هكذا تروج الأباطيل.

واليهود لا تعوزهم الحيل ولا خلق الأباطيل ولا صناعة المضللات، فهم أهلها ودهاقتها، وهم أربابها منذ القدم، وإنَّ الكذب -الذي هو سمة عامة فيهم- لمن أشنع الأخلاق التي نبذها الإسلام؛ كما تعلم، لما له من تأثير في إفساد الدين وحياة الناس، قال ابن عاشور: (وهذا اللبس هو مبدأ التضليل والإلحاد في الأمور المشهورة، وأكثر أنواع الضلال الذي أُدخل في الإسلام هو من قبيل لبس الحق بالباطل)^(٣).

وأحبار اليهود بسلوكهم هذا المسلك الفاسد -عافك الله- انقلبوا على التوراة. وارتدوا عن الإيمان الواجب عليهم.

(١) جامع البيان ١/ ٦٠٥.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ١/ ١٢٤.

(٣) التحرير والتنوير ١/ ٤٧١.

وانتقلوا من مربع القيادة الدينية إلى مربع الصدّ عن دين الله!

إنه سوء المنقلب، والخور بعد الكور، والضلالة بعد الهدى.. عائدنين بالله.

ولقد وبخهم المولى سبحانه:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

[البقرة: ٤٤].

ثم إن الله تعالى ذكّرهم بنعمته عليهم في الحوادث الكبرى والأيام العظيمة المذكورة في كتبهم والمعروفة في تاريخهم، ذكرهم بها لعدد من الأغراض والحكم، منها:

أولاً- ليكون حافزاً لليهود المجاورين للنبي محمد ﷺ ومشجعاً لهم على الإيمان برسالته، وأن يهتبلوا الفرصة في شكر النعمة بأن جعل الرسول بين ظهرانيهم، وقد جاء بما يصدق ما معهم من التوراة، ويزجرهم عن كفر هذه النعمة فيلحقهم العذاب كما لحق بأسلافهم ممن أسديت إليهم النعم فلم يراعوها حق رعايتها فسلط الله عليهم أنواع عذابه.

ثانياً- ليحذر أهل الإيمان في أمة محمد ﷺ من سلوك أهل الكتاب في تعنتهم وكفرهم بأنبيائهم وتلبسهم وتضليلهم وسائر أخلاقهم وأحوالهم التي أنكرها الله تعالى عليهم، وهذا مقتضى الإجابة عن ماهية طريق اليهود الوارد في سورة الفاتحة:

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ① صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

[الفاتحة: ٦-٧].

ثالثاً- لتعليم المسلمين أخبار بني إسرائيل وأيامهم العظيمة، فيأخذوا منها الدروس والعظات والعبر، وبها يصبح المسلمون عارفين بأحوال بني إسرائيل، عالمين بتاريخهم وأيامهم؛ وهذا ما لم يدركه عموم أهل الكتاب، لأن أخبارهم كانوا

يخفون كثيرًا من ذلك أو يدسون الكذب فيه. فأنت تجد المسلم القارئ للقرآن لديه من علم أهل الكتاب وتاريخهم وشرائعهم ما يتفوق في معرفته على أهل الكتاب أنفسهم؛ إذا استثنينا أحبارهم.

وفي هذا مزيد فضيلة للمسلمين، من الناحية العلمية والمعرفية بالأمام وأحوالها وتاريخها، وانظر مصداقًا لذلك ما نقله أهل التفسير عن الصحابة والتابعين فيما يتعلق بأخبار بني إسرائيل وأنبيائهم وكبرائهم وقصصهم وكتبهم.

ولهذا لما وجد الصحابة جثمان (دانيال) في فتحهم (تستر) عرفوه، بل روي عن أبي موسى الأشعري أنه التزمه وعانقه وقبله، أما الخليفة عمر فقد أمر بغسله ودفنه وتعمية قبره حتى لا ينبش أو يكون مزارًا، وحملوا كتابه الذي وجدوه معه إلى الخليفة^(١).

لقد جعل القرآن من المسلمين أهل علم ومعرفة.

ومن تلك الأخبار العظيمة والوقائع الكبرى وهو أهمها على الإطلاق:

يوم العاشر من شهر الله المحرم.

يوم نجاة بني إسرائيل من بطش فرعون وجنوده.

وذلك بعد أن قام موسى عليه السلام بتحرير بني إسرائيل من سياط العبودية

التي كان يجلدتهم بها فرعون وقومه في مصر.

والذي حدث في هذا اليوم أن الله سبحانه فلق البحر لموسى وقومه، ليعبروه

فرارًا من جيش فرعون الذي حاصرهم هناك، فيجتازه كل بني إسرائيل، ثم ينطبق

على فرعون وجنوده وجيشه، فتنهزم تلك القوة الطاغية.

(١) البداية والنهاية ٢/٢٠٧.

بل ويموت الطاغية.

الطاغية الذي طالما طرق مسامح الناس عنه أنه ربهم الأعلى!

ويتنصر المستضعفون المستعبدون من بني إسرائيل، ثم تبدأ رحلتهم إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم:

﴿وَإِذْ بَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة: ٤٩-٥٠].

كان يوماً تاريخياً عظيماً مشهوداً، صامه بنو إسرائيل، وصامه محمد ﷺ شكراً لله تعالى على نجات تلك الأمة التي فضلها الله تعالى على غيرها من الأمم إذ ذاك.

ومن تلك الأيام التاريخية يوم المقتلة العظيمة التي جعلها الله تعالى توبة لبني إسرائيل، ذلك أن موسى غاب عنهم أربعين يوماً استجابة لمواعدة الله تعالى له، فأحدث بنو إسرائيل في تلك الأيام القليلة عبادة العجل، فعفا الله عنهم مع شناعة فعلهم؛ إذ كيف يصنعون صنماً ويعبدونه من دون الله، وهم الذين رأوا - قبل قليل - قدرة الله في إنجائهم من فرعون؟!

كيف لنفوسٍ عاينت أحداث العاشر من المحرم أن تشك - ولو للحظة - في قوة الله وكونه المستحق للعبادة؟!

كيف لهذه العقول أن تؤمن بصنم يصنعه الناس بأيديهم، وهم للتو خرجوا من لجة البحر بمعجزة إلهية، سالمين منتصرين؟!

هل يحتاج الذين رأوا البحر ينفلق أمام أعينهم، ورأوه وهو يعود إلى حالته الأصلية، ورأوا الملك العظيم يغرق فيه بجنوده وقوته.. هل يحتاجون إلى صنم جامد يستجيب دعاءهم ويكشف حاجاتهم؟

إنها النفوس الخبيثة الملتوية.. نفوس اليهود.

فجاء عفو الله تعالى مشروطاً بالاستجابة لأمره.

وقد كان أمره - عقوبة لهم - في قتل بعضهم بعضاً:

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا الْعَجَلَ مِنَ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ
عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ - يَنْقُومِ إِيَّاكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعَجَلَ فَتُوبُوا
إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَأَقْبِلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾
[البقرة: ٥١-٥٤].

قال قتادة: (أمر القوم بشديد من الأمر، فقاموا يتناجزون بالشفار؛ يقتل بعضهم بعضاً، حتى بلغ الله فيهم نعمته، فسقطت الشفار من أيديهم، فأمسك عنهم القتل، فجعل لحيهم توبة، وللمقتول شهادة)^(١).

ومن تلك الأيام التاريخية أيضاً يوم الصعقة.

والصعقة: صيحة عظيمة نزلت من السماء، صعقت السبعين رجلاً من بني إسرائيل، السبعين الذين اختارهم موسى لميقات ربه، حيث طلبوا من موسى أن يروا الله تعالى عياناً - وهو طلب محال أن يتم في الدنيا - فدل ذلك على تعنتهم، فماتوا جميعاً.

ماتوا وهم ينظرون إلى أنفسهم وهم يموتون!

ثم بعثوا جميعاً وهم ينظرون إلى بعضهم وهم يحيون!

وحقاً.. لقد كان يوماً عظيماً ومنظراً مهيباً:

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٩٥.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ
نَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦].

ومن تلك الأيام التاريخية أيضًا يوم الفتح العظيم.. فتح المدينة المقدسة.

حين خرجوا من التيه الأربعيني، وفتحوا بيت المقدس (إيلياء)، وكان ذلك
عشية الجمعة، بقيادة نبيهم يوشع بن نون عليه السلام.

لم يكن موسى عليه السلام حيًا حينها، فقد مات في زمن التيه والله المستعان.
وكان من عظمة ذلك اليوم أن يوشع بن نون (قال للشمس: إنك مأمورة، وأنا
مأمور، اللهم احبسها علينا؛ فَحَبَسَتْ حَتَّىٰ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ) (١)، أي أن الشمس وقفت
عن الحركة قبل الغروب، حتى أتم الله نصرهم على عدوهم، فأمرهم الله أن يدخلوا
باب المدينة خاضعين راكعين مستغفرين قائلين: حطة. وهي صيغة استغفار أمروا بها.
لكنهم -تعتنا واستكبارًا واستهزاء- دخلوا باب المدينة يزحفون، قائلين: حبة
في شعيرة، أو غيرها من الكلام الساخر.

فعاقبهم الله على ذلك بأن أنزل عليهم الطاعون فأهلك كثيرًا منهم (٢):

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا
وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا
غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: ٥٨-٥٩].

ومن أخبارهم الجليلة أنهم حين كانوا في التيه، في الصحراء التي لا ماء فيها؛
أنبع الله تعالى لهم الماء من الحجر.

(١) أخرجه البخاري ٣/٥٤٢، ح ٣١٣٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/٤١١-٤١٧.

هذا الحجر كانوا ينقلونه معهم حيث انتقلوا، ولم يكن ثابتاً في الأرض أو في مكان واحد، وحيث حلوا في مكان ما يضرب موسى عليه السلام على هذا الحجر بعصاه، فتفجر منه اثنتا عشرة عيناً، فيخرج منه الماء الزلال، فيسقون ويشربون وتشرب دوابهم ويدخرون كفايتهم، فإذا اكتفوا من الماء توقف النبع:

﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ۖ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

ومن أخبارهم أيضاً أن الله تعالى رفع الجبل فوقهم في السماء، فأواه فوقهم كأنه الظلة!

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٣-٦٤].

قال ابن عطية: (وقصص هذه الآية أن موسى لما جاء إلى بني إسرائيل من عند الله تعالى بالألواح فيها التوراة، قال لهم: خذوها والتزموها. فقالوا: لا، إلا أن يكلمنا الله بها كما كلمك، فصعقوا، ثم أحيوا، فقال لهم: خذوها. فقالوا: لا، فأمر الله تعالى الملائكة فاقتلعت جبلاً من جبال فلسطين، طوله فرسخ في مثله، وكذلك كان عسكرهم، فجعل عليهم مثل الظلة، وأخرج الله تعالى البحر من ورائهم، وأضرم ناراً بين أيديهم، فأحاط بهم غضبه، وقيل لهم: خذوها وعليكم الميثاق ألا تضعوها، وإلا سقط عليكم الجبل، وغرقكم البحر وأحرقكم النار، فسجدوا توبة لله، وأخذوا التوراة بالميثاق)^(١).

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٥.

ومن أخبارهم أيضًا حادثة السبت المشهورة، في البلدة الساحلية (أيلة)، حيث ابتلي أهل هذه البلدة بتحريم الصيد يوم السبت وليلته؛ إذ لا يأتي السمك نحوهم إلا في ذلك اليوم، فاحتالوا على صيده، بأن ينصبوا شباكهم قبل السبت، فيدخل السمك فيها يوم السبت، فيأخذوه يوم الأحد، فعاقبهم الله تعالى بأن مسحهم قردة، فتحول الذين مارسوا هذا الخداع، والذين رضوا به وسكتوا عنه كذلك، ثم ماتوا دون أن يكون لهم نسل من هذا المسخ:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦].

ومن أخبارهم أيضًا حادثة البقرة المشهورة، والتي أحيا الله بها المقتول ظلماً، فقام وأخبر عن قاتله، بعد أن تعنت القوم في تعيين البقرة التي أمر الله تعالى بذبحها:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَنْتَجِدْنَا حُرُوءًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقْعُ لُونَهَا تَسْرُ النَّظِيرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا لَأَن نَّجِدَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادْرَأْهُ ثُمَّ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا أَصْرَبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٦٧-٧٣].

لقد كانت تلك الأخبار وهاتيك الأيام حافزاً للتوبة إلى الله والإيمان برسله والتمسك بشريعته والتصديق بكتابه.

لكن بني إسرائيل في كل مرة ينقضون العهد، ويكذبون ويبهتون، ويخالفون ويحتالون.

في كل مرة يعطيهم الله تعالى الفرصة لسلوك الصراط المستقيم، لكنهم يتأبون عليه، فيخطون خطأً ملتوية لا تصل بهم إلا إلى دروب الكفر والشقاق. وقد قص الله تعالى أخبارهم وأيامهم، وخاطبهم ووعظهم وزجرهم، حتى أعذر إليهم.

لقد كانت رسالة سورة البقرة إلى أمة محمد أن:

لا تكونوا مثل أهل الكتاب.

لا تكونوا مثل بني إسرائيل.

إن مسالك بني إسرائيل، الذين كانوا يباهون بموقعهم الديني ليست من الصراط المستقيم.

وإن غضب الله عليهم بسبب تلك المسالك سيصيب كل من يسلكها؛ منهم أو من غيرهم من الأمم.

وإنكم أمة مختلفة عنهم، أو هكذا ينبغي، وإن عليكم واجب التصديق والنصرة والطاعة لله ولرسوله ﷺ.

وإن عليكم التصدي لكل محاولاتهم في الصد عن دينكم، والتيقظ لهذا الأمر.

وإن تزكية النفس ومجاهدتها وأطرها على الاستقامة والطاعة، وتعويدها العبودية التامة لأمر الله، عاصم من أخلاق اليهود ومسلكياتهم التي استوجبوا بها غضب الله تعالى عليهم.

العقيدة البيزنطية

التسامح الديني مع النصارى كان واحداً من الإصلاحات الاستراتيجية التي تبناها الإمبراطور الرومي «قسطنطين الأول» في القرن الرابع الميلادي في سبيل تثبيت سيادة الدولة الرومية وتجديد قوتها، بعد أن كان النصارى مضطهدين ومطاردين من قبل الرومان لاختلاف العقيدة المؤدي إلى إقصائهم واتهامهم بشتى التهم.

وإذا استطرنا قليلاً فإن من التهم المتكررة عبر التاريخ والتي طالت كذلك النصارى في الممالك الرومية: انعدام الولاء للدولة!

والحقيقة أن كل ما في الأمر أن النصارى إذ ذاك لم يكونوا يركعون للأباطرة ولا يعظمونهم تعظيم العبادة خلافاً للسائد في عقائد الوثنيين من تأليه الحكام والأباطرة. ثم إنهم انتشرت دعواتهم بين الناس تدعوهم إلى الدين.

ولم يكن في برنامجهم الدعوي شيء من التمرد على الدولة أو حمل السلاح عليها، ونحن نقرأ في كتاب الله تعالى تعريفاً بدعوة عيسى عليه السلام التي جاءت بتأكيد ما جاء في التوراة مع تغيير قليل في الشرائع ترفقاً بالناس.

لكن هكذا ينظر أباطرة الروم إلى هذه الدعوة الشابة.

كما كان ينظر فرعون من قبل إلى دعوة موسى!

ولعلك فهمت كيف ينظر الطغاة إلى دعوة الرسل: نظرة توجس وارتباب، وخوف على كرسي السلطنة وخزينة المال ووثن الحاكم وهراوة الجند؛ وخوف

كذلك من توجيه الشعوب إلى عبادة الله وحده، ونزع ما سواه من القلب، فإنَّ القلب لا ينبغي له أن يتسع لمعبود آخر غير الله.

وقد كان الروم - من قبل - يحيكون للنصارى الدسائس والمؤامرات للإيقاع بهم، ومن ذلك ما فعله «نيرون» إذ اتهمهم بالضلوع في حريق روما الكبير عام ٦٤ ميلادي^(١).

وقد كانت فكرة توحيد الأديان في الإمبراطورية الرومية تظهر للنقاش مرة بعد أخرى، ذلك أن النصرانية الأولى كان لها قوة في التأثير في الناس وسرعة في انتشارها، فراحمت بصفائها وموافقتها للفطرة الديانات الوثنية التي يعبد الناس فيها الأباطرة والحكام والمخلوقات المتنوعة كالشمس والكواكب، والسحرة والكهان.

وفي أواخر القرن الثالث الميلادي قام «أوليان» بدوره في تثبيت أركان الدولة الرومية، وأعيدت فكرة توحيد الأديان مرة أخرى، (وكان يعزو بعض ما تعانيه روما من الفوضى الأخلاقية والسياسية إلى تعدد الأديان والمذاهب فيها، ويسعى لأن يوحد الأديان القديمة والجديدة، ويوجهها إلى عبادة إله واحد؛ هو إله الشمس، والإمبراطور نائبه في الأرض)^(٢).

أما الإمبراطور «دقلديانوس» الذي حكم في مطلع القرن الرابع الميلادي؛ فقد كان متسامحاً، يغض الطرف عن انتشار المسيحية، مفضلاً السلم، لكن قائده المخلص «جاليريوس» كان كثيراً ما يحثه على وقف انتشارهم ومنع نشاطهم، (وكان يرى أن المسيحية هي آخر العقبات القائمة في سبيل السلطة المطلقة، فأخذ يحرض رئيسه على أن يجعل العودة إلى العهود الرومية السابقة عودة كاملة، وذلك بإرجاع الآلهة الرومية إلى منزلتها القديمة.

(١) انظر: قصة الحضارة ١٠ / ١٣٥ - ١٣٧.

(٢) قصة الحضارة ١١ / ٣٥٧.

وتردد «دقلديانوس» في الأخذ بهذه المشورة، لأنه كان عازفًا عن ركوب أخطار لا موجب لها، ولأنه كان أكثر من «جاليريوس» تقديرًا لثقل العبء.

ولم يترك «جاليريوس» فرصة إلا انتهزها للقول بأنَّ الوحدة الدينية ضرورية لتدعيم الملكية الجديدة، وما زال يلح على «دقلديانوس» حتى خضع له في آخر الأمر، فأمر الحكام الأربعة تحت سلطته في عام ٣٠٣ أن تُهدم كل الكنائس المسيحية، وأن تحرق الكتب المسيحية، وتُحل المجتمعات المسيحية وتصادر أملاكها، ويُحرم المسيحيون من جميع المناصب العامة، ويعاقب بالإعدام مَنْ يُضبط منهم في أي اجتماع ديني.

وبدأت كتيبة من الجند هذا الاضطهاد بإحراق كنيسة «نقوميديا» وتدميرها عن آخرها.

وكان المسيحيون وقتئذٍ من الكثرة بحيث يستطيعون رد العدوان بمثله، فقامت حركة ثورية في سوريا، وأضرم بعضهم النار مرتين في قصر «دقلديانوس» بنقوميديا، واتهم «جاليريوس» المسيحيين بجريمة الحرق عمدًا، واتهموه هم بالتهمة نفسها، وقبض على مئات من المسيحيين وعذبوا، ولكن الجريمة لم تثبت على أحد، وأصدر «دقلديانوس» أمرًا بأن يطلق سراح المسجونين من المسيحيين الذين يعبدون الآلهة الرومية، أما من يرفض ذلك منهم فلتسلط عليه جميع أنواع العذاب التي تعرفها روما.

فلما قاوم المسيحيون هذه الأوامر بازدراء استشاط غضبًا من هذه المقاومة، وأمر جميع كبار الحكام في الولايات بأن يبحثوا عن كل مسيحي، وأن يستخدموا معه كل وسيلة مستطاعة لإرغامه على استرضاء الآلهة.

ومع تعاقب الحكام فقد دام الاضطهاد ثمانية أعوام، وهلك بسببه نحو ألف وخمسمئة من المسيحيين، بعضهم من أتباع الدين القويم، وبعضهم من الملاحدة، وقاسى عدد آخر يخطئه الحصر ألواناً مختلفة من العذاب. وارتد آلاف من المسيحيين عن دينهم.

ولكن معظم من نالهم الاضطهاد ثبتوا على دينهم؛ وكان منظر استبسالهم في الإخلاص لدينهم، أو كانت أخبار هذا الاستبسال؛ مع ما قاسوه من ألوان العذاب، كان هذا وذاك سبباً في شد عزيمة المترددين، وضم أنصارٍ جُدد للجماعات الدينية المضطهدة.

وأثارت ضروبُ الاضطهاد الوحشي الزائدة الرحمةً في قلوب الأهلين الوثنيين؛ ووجد الصالحون في نفوسهم من الشجاعة ما دفعهم إلى التصريح بمقتهم لهذا الظلم الذي لم يكن له مثل في التاريخ الرومي كله.

حتى جاء عام ٣١١، فأصدر «جاليريوس» مرسوماً بالتسامح مع المسيحيين واعترف فيه بالمسيحية ديناً مشروعاً^(١).

نعم، اضطهد المسيحيون، لكن فكرتهم تجذرت مع الابتلاء، وعقيدتهم انتشرت مع الاستضعاف.

وفي عهد قسطنطين الأول (٣٠٦-٣٣٧م) وبعد أن (شهد في حياته كيف أخفق الاضطهاد ثلاث مرات، وانطبع في نفسه بلا ريب انتصار المسيحية؛ مع كل اضطهاد)^(٢)، رأى من اللازم أن يعتني بخطوتين مهمتين من أجل السيادة الرومية وتثبيت أركان الإمبراطورية:

(١) بتصرف يسير: قصة الحضارة ١١/٣٧٨-٣٨١.

(٢) قصة الحضارة ١١/٣٨٨.

- «ضرورة» توحيد الديانات في الإمبراطورية الرومية.
 - «ضرورة» احتواء النصرانية التي طالما صدّعت البناء الروماني.
- وقد سبق إلى هاتين الاستراتيجيتين، ولكن لم تؤخذا بالمحمل الرسمي المتكامل كما فعل هو؛ فقد عمل على أن تكونا دعامتين في بناء الدولة الرومية الجديدة، الجديدة في نظمها وجغرافيتها ومكوناتها.
- لكن العقيدة الوثنية التي يؤمن بها لا تُوائم احتواء النصرانية، فعزم على فعل أمرين:
- منافقة النصارى بإعلانه اعتناق النصرانية، أما حقيقة الأمر فإنه كان على اعتقاد الفلاسفة^(١).
 - المزوجة بين الوثنية والنصرانية، بأن يطعم النصرانية بعض الطقوس والأفكار الوثنية.
- وقد ساعده في ذلك اختلاف النصارى في اعتقادهم في عيسى ودخول الشرك في بعض فرقههم، كما حفّزه لتلك المزوجة ما تضمنه الوثنية الرومية من مظاهر التقديس للحكام والأباطرة، فإنها تجعل الإمبراطور إلهًا في الأرض ونائبًا عن الإله في السماء فتجب طاعته المطلقة، فأراد «قسطنطين» إضفاء هذه الصياغة الوثنية القديمة على الديانة النصرانية الجديدة.
- ومن جهة أخرى أراد جمع الكنائس ذات الاتجاهات المختلفة في اعتقاداتها النصرانية على صياغة جديدة مشتركة الأصول، وهذا يتسق مع الفكرة القديمة: توحيد الأديان، واستباقًا لمنع أي اضطراب أو نشاز قد يسبب القلق للإمبراطورية.

(١) البداية والنهاية ٢/ ٣٩٢. تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٥٢.

ومن جهة ثالثة كان يأمل الاستفادة من الدين النصراني الذي يدعم بناء الدولة عمومًا، والنظر في المصلحة العامة، ويقلل من ألوان الفساد الإداري والمالي والأخلاقي.

على أي حال؛ فقد أقام «قسطنطين» بناء على ذلك مجمع نيقية عام ٣٢٥ ميلادي، والذي جمع فيه زهاء ألفي رجل، لكنهم لم يتوصلوا إلى نتيجة إجماعية مرضية، ثم اجتمع بثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً من الآباء (جمع أب).

وقد ناقش المجتمعون في مجمع نيقية مسألة ألوهية عيسى عليه السلام وعلاقته بالله تعالى نقاشًا ساخناً وعميقاً، وهل عيسى ذو طبيعة بشرية أو ذو طبيعة إلهية، ثم اتفق المجتمعون -وبتشجيع وربما بضغط من قسطنطين ذاته- على عقيدة جديدة هي مزيج من الوثنية والمسيحية، وقد تناولها أئمة الإسلام بالعرض والنقد، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، وابن القيم في كتابه هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى.

يقول ابن القيم: (ولفظها: نؤمن بالله الأب الواحد، خالق ما يُرى وما لا يُرى، والربُّ الواحد يسوع المسيح ابن الله، بكر أبيه وليس بمصنوع، إلهٌ حق من إلهٍ حق، من جوهر أبيه، الذي بيده أتقنت العوالم وخلق كل شيء، الذي من أجلنا -معشر الناس- ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس ومن مريم البتول، وحبِلَتْ به مريم البتول وولدتَه، وأُخِذَ وصُلب، وقُتِلَ أيام «فيلاطس» الرومي، ومات ودفن، وقام في اليوم الثالث كما هو مكتوب، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء. ونؤمن بالرب الواحد روح القدس روح الحق الذي يخرج من أبيه روح محبته، وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا، وبجماعة واحدة قديسية سليحية جاثليقية، وبقيام أبداننا وبالحياة الدائمة إلى أبد الآبدين)^(١).

(١) هداية الحيارى ص ٣٢٩.

هذه عقيدة «قسطنطين» المحدثه؛ والجاثيليقية هي الكاثوليكية.

لا مانع لدى الإمبراطور من تغيير دينه؛ إذا استدعى الأمر ذلك!

ولم يكن «قسطنطين» يميل إلى النصرانية تدينًا واعتقادًا وإنما الحنكة السياسية ساقته إليها؛ فاضطر إلى اعتناقها ثم تحريفها، ليصبح وثنيًا في مَسَاحِ نصراني.

وابن كثير يقدم موجزًا مفيدًا يؤرخ فيه لطريقة الوصول إلى العقيدة الجديدة الملعونة، فيقول: (فجمعهم في مجلس واحد وهو المجمع الأول من مجامعهم الثلاثة المشهورة، وهم مختلفون اختلافًا متباينًا منتشرًا جدًّا، فمنهم الشردمة على المقالة التي لا يوافقهم أحد من الباقيين عليها؛ فهؤلاء خمسون على مقالة، وهؤلاء ثمانون على مقالة أخرى، وهؤلاء عشرة على مقالة أخرى، وطائفة على مقالة ابن أريوس).

فلما تفاقم أمرهم وانتشر اختلافهم حار فيهم الملك قسطنطين، مع أنه سيئ الظن بما عدا دين الصابئين من أسلافه اليونانيين، فعمد إلى أكثر جماعة منهم على مقالة من مقالاتهم فوجدهم ثلاثمئة وثمانية عشر أسقفًا قد اجتمعوا على مقالة «أكسندروس»، فقال: هؤلاء أولى بنصر قولهم لأنهم أكثر الفرق! فاجتمع بهم خصوصًا، وقال: إني رأيتمكم أكثر الفرق قد اجتمعتم على مقالتم هذه فأنا أنصرها وأذهب إليها.

فسجدوا له!

وطلب منهم أن يضعوا له كتابًا في الأحكام.

وأن تكون الصلاة إلى الشرق لأنها مطلع الكواكب النيرة!

وأن يصوروا في كنائسهم صورًا لها جثث!

فصالحوه على أن تكون في الحيطان.

فلما توافقوا على ذلك أخذ في نصرهم وإظهار كلمتهم وإقامة مقالتهم وإبعاد من خالفهم وتضعيف رأيه وقوله، فظهر أصحابه بجاهه على مخالفيهم، وانتصروا عليهم. وأمر ببناء الكنائس على دينهم، فبُني في أيام قسطنطين بالشام وغيرها في المدائن والقرى أزيد من اثني عشر ألف كنيسة، واعتنى الملك ببناء بيت لحم، وبنّت أمه هيلانة قمامة بيت المقدس.

وعظم دين النصرانية، وظهر أمره جدًّا بسبب الملك قسطنطين، وقد أفسده عليهم فسادًا لا صلاح له ولا نجاح معه ولا فلاح عنده، وكثرت أعيادهم بسبب عظمائهم، وكثرت كنائسهم على أسماء عبّادهم، وتفاقم كفرهم، وغلظت مصيبتهم، وتخلد ضلالهم، وعظم وبالهم، ولم يهد الله قلوبهم ولا أصلح بالهم، بل صرف قلوبهم عن الحق، وأحال عن الاستقامة حالهم.

ثم اجتمعوا بعد ذلك مَجْمَعِينَ في قضية النسطورية واليعقوبية، وكل فرقة من هؤلاء تكفر الأخرى، وتعتقد تخليدهم في نار جهنم^(١).

هذه هي المزاجية بين الوثنية والنصرانية.

وهكذا تحول دين عيسى عليه السلام من التوحيد إلى الشرك باسم الدين.

وعلى هذه العقيدة قامت الدولة القسطنطينية الرومية الشرقية الشابة.

وبهذه العقيدة تحولت أوروبا إلى النصرانية المحدثّة، النصرانية التي تشبع رغبات الوثنيين بالشرك بالله وعبادة الصور والتمائيل واستحلال أكل الخنزير وشرب الخمر والتقليل من الطهارة.

(١) بتصرف يسير: البداية والنهاية ٢/ ٣٩٢.

وبها أصبحت الشام ومصر والحبشة أيضًا تدين بدين النصراني الجديد الذي ترعاه الكنيسة الشرقية، إلا النزر اليسير الذين يخفون توحيدهم خوفًا من البطش والتنكيل.

وهكذا تشكلت عقيدة النصراني الرسمية، التي على جميع النصراني أن يعتنقوها في أنحاء الإمبراطورية البيزنطية التي تمتد جنوبًا إلى الحبشة، ثم وضعت بصمتها العقائدية والسياسية على الجنوب الغربي للجزيرة العربية: اليمن ونجران. تلك إذًا قصة نشوء العقيدة البيزنطية، والتي يسمونها تضليلًا: النصرانية.

ولما كانت شمس الإمبراطورية البيزنطية تميل نحو الغروب، كانت لتوها شمس الرسالة الإسلامية أشرفت على العالم، انطلاقًا من الجزيرة العربية، في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي.

وحين بلغ ضوء شمس الرسالة تخوم الممالك المجاورة، وجدت هذه الإمبراطورية نفسها مضطرة إلى حوار فكري حول دينين مختلفين: الإسلام والنصرانية، لأنها كانت تعرّف نفسها بأنها حامية الديانة السماوية.

لقد قدم وفد من نجران -المدينة المنزوية في جنوب الجزيرة العربية والتي دانت بنصرانية «قسطنطين»- إلى النبي ﷺ.

قدم الوفد بعد أن أدركوا الأبعاد السياسية والاستراتيجية لهذا التحول الكبير في موازين القوى بهجرة النبي ﷺ وتأسيس المدينة الإسلامية الجديدة.

قدموا إلى النبي ﷺ في وقت مبكر من هجرته إلى المدينة، ليناقشوه في مسألة محورية تعد فاصلاً بين الإسلام والنصرانية، وهي التعريف بعيسى عليه السلام، فهم يعلمون أن القرآن ينفي ألوهيته ويثبت بشريته ورسالته.

وهذه مسألة تحمل أبعادًا سياسية مؤثرة، فإنَّ وجود دولة تعترف بفكرٍ تحمله أقلية في دولة مجاورة أو معادية أو منافسة يعني وجود عمق استراتيجي لهذه الدولة في عقر دار الأخرى، وقد يمتد أثر ذلك إلى قدرة هذه الدولة على تقويض أركان الدولة الأخرى.

ويمكنك فهم هذه الأبعاد إذا قارنت ذلك بواقع العلاقات الدولية اليوم.

على أي حال؛ قدم وفد نجران في بداية العهد المدني، عهد الأمة الجديد، الأمة الجديدة الشابة، ونشأ حوار مهم في مسألة عيسى بين العبودية والتأليه، هذا الحوار سيكون له أثره في كثير من النصارى في العالم، إذ ذاك وبعده.

في واقع الأمر كان لدى وفد النصارى من نجران حينها - أي بعد مرور قرنين ونصف على مجمع نيقية - عدد من الشُّبه في تأليه عيسى ورفع منزلته عن البشر، وقد ساق الطبري بسنده عن محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر، قال: (قَدِمَ على رسول الله ﷺ وفدُ نجران ستون ركبًا، فيهم أربعة عشر رجلًا من أشرفهم، في الأربعة عشر ثلاثة نفر؛ إليهم يؤول أمرهم:

- العاقب؛ أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذي لا يصدُّرون إلا عن رأيه، واسمه عبد المسيح.

- والسيد؛ ثمالهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم، واسمه الأيهم.

- وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل؛ أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم.

وكان أبو حارثة قد شُرِّفَ فيهم ودرَسَ كتبهم حتى حَسُنَ علمه في دينهم، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شَرَّفوه وموَّلوه وأخدموه، وبنوا له الكنائس، وبسطوا عليه الكرامات، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينه.

فكلم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة والعاقب عبد المسيح والأيهم السيد، وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف من أمرهم، يقولون: هو الله. ويقولون: هو ولد الله. ويقولون: هو ثالث ثلاثة. وكذلك قول النصرانية. فهم يحتجون في قولهم: هو الله بأنه كان يحيي الموتى ويبرئ الأسقام ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طائراً، وذلك كله بإذن الله، ليجعله آية للناس. ويحتجون في قولهم: إنه ولد الله، أنهم يقولون: لم يكن له أب يُعلم، وقد تكلم في المهد بشيء لم يصنعه أحد من ولد آدم من قبله. ويحتجون في قولهم: إنه ثالث ثلاثة، بقول الله عز وجل: فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا؛ فيقولون: لو كان واحداً ما قال إلا فعلت وأمرت وقضيت وخلقنت، ولكنه هو وعيسى ومريم.

ففي كل ذلك من قولهم قد نزل القرآن، وذكر الله لنبيه ﷺ فيه قولهم.

فلما كلمه الحبران؛ قال لهما رسول الله ﷺ: أسلما. قالوا: قد أسلمنا، قال: إنكما لم تسلما، فأسلما. قالوا: بلى قد أسلمنا قبلك، قال: كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله عز وجل ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير. قالوا: فمن أبوه يا محمد؟ فصمت رسول الله ﷺ عنهما فلم يجبهما، فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم كله صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها^(١).

وقد نوقشت هذه القضايا في الحوار الذي جرى بين النصارى ونبينا ﷺ وعلى رأسها تأليه عيسى، الحوار الذي استغرق أياماً، فنزلت الآيات الأولى من آل عمران أولاً بالتعريف بالله تعالى وصفاته التي لا يشاركه فيها بشر، ثم التعريف بعيسى عليه السلام، فيما يزيد على (٨٠) آية من صدر السورة.

(١) جامع البيان ٥/ ١٧٢.

قال الله تعالى:

﴿الْم ١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿[آل عمران: ١-٢].

فأخبر سبحانه أنه المتفرد بالألوهية، ذلك بأنه حي لا يموت، وهذا خلاف ما يؤمن به النصارى، فهم يعتقدون أن عيسى عليه السلام مات مقتولاً، فأخبر الله أن من يستحق العبادة والتأليه ينبغي أن يكون حياً لا تجري عليه سنة الموت، وأخبر الله أن من يستحق العبادة والتأليه ينبغي أن يكون قائماً بتدبير أمور الخلائق بكل دقة وإحكام؛ الدهر كله بلا ملل ولا تعب، وهذا ما لا يستطيعه عيسى عليه السلام ولا غيره من المخلوقين، فكيف إذا يؤله من دون الله، وقد أودى وكذب ولوحق، بل وُصِّل وُقُتِل كما يزعمون!

فهل من هذه صفته يستحق أن تتوجه له الخلائق بالعبادة والتأليه؟!

وهل من هذه صفته يستحق أن تتوجه له بقعة شاسعة من المعمورة بعبادته؟

تاركة التوجه لله الخالق القوي الحي القيوم؟!

ثم أخبر الله تعالى أنه هو الذي أنزل الكتب من السماء على الرسل في الأرض:

فأنزل التوراة على موسى، وأنزل الإنجيل على عيسى، وأنزل القرآن على محمد عليهم الصلاة والسلام، وهذا ما لا يمكن لعيسى أن يفعله:

﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ

هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾

[آل عمران: ٣-٤].

وقد أقرت الآيات بأن الله تعالى أجرى على يد عيسى بعض المعجزات،

كإحياء الموتى وخلق الطير والإخبار ببعض الغيوب؛ آية على صدق نبوته، وليست على استحقاقه للعبادة:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنذِرُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وهي محض معجزات أوتيتها من الله جل وعلا، تناسب زمن عيسى عليه السلام الذي اشتهر فيه الطب^(١).

وهذه المعجزات لا ترتقي بالرسول إلى مرتبة الألوهية، فإذا كان عيسى يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيها فيكون طيراً؛ فهو بإذن الله الذي جعل له هذه القدرة، كما أنه لا يستطيع أن يصل إلى القدرة التي يقول الله تعالى فيها:

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۗ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦].

وإذا كان عيسى عليه السلام ينبي الناس بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، فإنه لن يصل إلى العلم الذي يقول الله تعالى فيه:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥].
 ﴿قُلْ إِنْ تَحْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُدُّوا يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩].

وهكذا عالجت سورة آل عمران هذه المسألة الفكرية العالمية.

بل ذهبت السورة إلى ما هو أبعد من ذلك في بيان قدرة الله الباهرة وملكوته العظيم:

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/٣٤٩.

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧].

وكان الآيه تذكرهم: قد علمتم تعاقب أباطرة الروم على الملك - قبل تحول الروم إلى النصرانية وبعده - وصعودهم ونزولهم، وعلمتم شأن تأليههم بتعظيمهم وتصويرهم والطاعة المطلقة لأمرهم، فإنهم جميعاً لم يكونوا أباطرة إلا بإذن الله، الذي يؤتي ملكه لأي منهم متى شاء وينزعه منه متى شاء.

كانت هذه الآيات العظيمة في نسقتها وبيانها ومخاطبتها للعقل والوجدان تفرض على المحاورين من النصارى سؤالاً مفاده:

كيف تعبدون بشرًا من دون الله!؟

رسولاً! إمبراطوراً! صالحاً! عظيماً!

كيف تعبدون من ليس له من تلك الصفات العظيمة شيء، بل هو مخلوق مفتقر محتاج!؟ ينام ويصحو، يعيش فيموت، يقضي الحاجة، ويخاف على نفسه.

أما الإجابة عن سؤال وصف عيسى عليه السلام وتاريخيته وقصته فقد جاءت مفصلة ودقيقة، راعت أوجه التشابه والاختلاف، وأقرت الصواب ونددت بالخطأ.

فعن أصله وأمه أخبرت سورة آل عمران أن عيسى هو ابن مريم بنت عمران، من

ذلك البيت الذي اصطفاه الله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ

مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ أُنْثَىٰ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ [آل عمران: ٣٤-٣٧].

هذا حديثٌ عن أم عيسى الصديقة مريم، وحديثٌ عن جدته المباركة امرأة عمران.

وأما عن خلقه ومولده، فقد أخبرتنا السورة بأن مريم ولدتها بكلمة من الله:

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَأِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴿٤٧﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٧].

قال السعدي: (سمي كلمة الله لأنه كان بالكلمة من الله، لأنَّ حالته خارجة عن الأسباب) أي أسباب الإنجاب الطبيعية، الناتجة عن حمل الأنثى من الذكر، (وجعله الله من آياته وعجائب مخلوقاته، فأرسل الله جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ في جيب درعها)، وجيب الدرع: هو فتحة القميص من أعلاه، والذي تدخل منه رأسها، (فولجت فيها تلك النفخة الزكية من ذلك الملك الزكي، فأنشأ الله منها تلك الروح الزكية، فكان روحانيًا نشأ من مادة روحانية، فلهذا سُمي روح الله)^(١).

فهذا هو عيسى عليه السلام، وهكذا خلق.

(١) تيسير الكريم الرحمن ٤/٢٠٤٦ - فروقات.

وأما عن عبوديته فقد أخبرنا الله تعالى بكلام عيسى نفسه عن عبوديته لله، وهذا مما حرّفه الرهبان وأقرهم على تحريفه «قسطنطين»:

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١].

وأخبر الله تعالى أن أتباع عيسى من الحواريين كانوا على هذا الاعتقاد أيضًا:

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عَيْسَىٰ مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُوتُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [٥٢] رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢-٥٣].

فهم يعتقدون أن عيسى عبد الله ورسوله، وأنهم أنصاره وأتباعه، وأنهم مسلمون.

كما أخبر الله تعالى عن رفعه إليه سبحانه:

﴿وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمُنْكَرِينَ﴾ [٥٤] إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۗ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٤-٥٥].

فأخبر تعالى أنه رفعه إلى السماء، بعدما توفاه بالنوم، على الصحيح المقطوع به، وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به إلى بعض الملوك الكفرة في ذلك الزمان^(١)، وقد جاء القرآن ببيان ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [١٥٧] بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٨].

(١) البداية والنهاية ٢/ ٢٨٧.

وأخبر الله تعالى في سورة آل عمران أن المعجزَ في خلق عيسى أسهل - بتقدير
البشر - من المعجز في خلق آدم:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ
مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿﴾ [آل عمران: ٥٩ - ٦٠].

فآدمُ خلق بلا أب ولا أم، وأوجده الله سبحانه من العدم، فإذا لم تجعلوا له شيئاً
من صفات الإله، فكيف تجعلون لمن خلق من أم بلا أب شيئاً من صفات الإله!

وهذه الآيات العظيمة كما أنها أقامت تصورًا منطقيًا عن الله تعالى وعن
عيسى عليه السلام؛ فإنها كذلك أضافت إلى المؤمنين من الصحابة الكرام في
المدينة الجديدة رصيلاً فكرياً ضخماً عن أحد التصورات والأديان الكبرى: أعني
النصرانية، بل إنَّ المسلم - مهما كان مستواه المادي والاجتماعي والتعليمي - إذا
قرأ سورة آل عمران فسوف تتشكل لديه هذه المعارف العميقة، في أي مكان يعيش
فيه، وفي أي زمان.

ولك أن تتخيل حجم الثقافة الفكرية، والنقية في الوقت ذاته التي اتسم بها
جيل الصحابة رضي الله عنهم في تلك البقعة الصغيرة من جزيرة العرب النائية عن الحضارات
الكبرى حينها.

قد يظن البعض أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إنما هم ثلثة من الدراويش الذين قطعوا
صلتهم بالمعارف والعلوم مشتغلين بتزكية النفس، أو أنهم جماعة فتوة التفت حول
النبي صلى الله عليه وسلم تنصره في مواجهة خصومه فحسب.

كلا وحاشا!

لقد كانوا بفضل هذا القرآن علماء عارفين بتاريخ الأديان ومقالات الأمم
وعقائد الدول.

إنهم -بفضل الرسالة الإسلامية- الذين رسموا الأصول العلمية والعقدية للحضارة الإسلامية.

ولقد نزلت سورة آل عمران لتهدم العقيدة البيزنطية على رؤوس أولئك المتنفعين باعتناقها، والذين يدعون اتباع عيسى زورًا.

نزلت لتزلزل الأفكار الوثنية في نفوس النصارى التائهين الضالين.. ليكون ذلك إيذانًا بهدم أعظم إمبراطورية كافرة تفتري على الله الكذب، وتبتز الناس في أنحاءها باسم الدين وباسم المسيح وباسم الكنيسة، وتحارب وتضطهد الموحدين المسلمين حقيقة لا ادعاء؛ الذين اتبعوا عيسى وعملوا بما في الإنجيل.

وما هي إلا أعوام وتسلم الحبيشة رسميًا، وتفرض الجزية على نجران، ويصل كتاب النبي العربي إلى هرقل في الشام، وإلى المقوقس في مصر أن: أسلم تسلم.

ثم ما هي إلا سنوات بعد تلك الأعوام وتطأ سناك خيل المسلمين الشام ومصر، بقيادة من أنزلت عليهم سورة آل عمران وتربوا على هداياتها.. وتفتحها باسم الله، وتكسر راية الصليب في كل أنحاءها، تمهيدًا للفتح الأعظم في عقر الدولة البيزنطية: القسطنطينية.

إنه فتيل القرآن الذي ملأ الأرض وهجًا ونورًا، والذي طال أعداء الشرائع إحراقًا وتنكيلاً.

هكذا كان بدء نزول آل عمران.

دين إبراهيم

إنَّ الدينَ الذي يدين به النصارى اليوم ليس هو دين عيسى الذي أرسله الله به، وإنما هو دين مختلقٌ صنعه أباطرة الروم وعلماء السوء، فإنَّ عيسى إنما جاء بتوحيد الله تعالى ونبذ الشرك وتحريم القتل والفواحش وأكل الربا وشرب الخمر، وهذا هو لبُّ الإسلام وجوهر الرسالة المحمدية.

هذا ما أرادت سورة آل عمران أن تقولها للنصارى في العالم عموماً ولوفد نجران خصوصاً، والذين يتبعون الإمبراطورية البيزنطية. ولتبين أنَّ «قسطنطين» دخل في دين النصرانية حيلةً ليفسده، تماهياً مع حزمة الإصلاحات الكبيرة والجذرية في عهده، ومنها استقطابه للنصارى الذين كانوا يمثلون شريحة واسعة في الناس، ويُعدون مشكلة لدى الإمبراطورية الرومانية.

لقد جاء عيسى عليه السلام بالإسلام:

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ
مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ ﴿٥٤﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا
الرَّسُولَ فَأَكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٢-٥٣].

قال الطبري: (وهذا خبرٌ من الله عز وجل أن الإسلام دينه الذي ابتعث به عيسى والأنبياء قبله، لا النصرانية ولا اليهودية، وتبرئة من الله لعيسى ممن انتحل النصرانية ودان بها، كما برأ إبراهيم من سائر الأديان غير الإسلام، وذلك احتجاجٌ من الله تعالى ذكره لنبيه ﷺ على وفد نجران)^(١).

(١) جامع البيان ٥/ ٤٤٤.

وقال ابن كثير: (فلما بعث الله محمداً ﷺ فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق؛ كانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض، إذ قد صدّقوا الرسول النبي الأمي خاتم الرسل وسيد ولد آدم، الذي دعاهم إلى التصديق بجمع الحق، فكانوا أولى بكل نبي من أمته، الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته مع ما قد حرفوا وبدلوا، ولهذا لما كانوا هم المؤمنون بالمشيخ حقاً سلبوا النصراني بلاد الشام وأجلوهم إلى الروم، فلجؤوا إلى مدينتهم القسطنطينية)^(١).

مهلاً يا أبا الفداء!

فكلامك يعني أن المسلمين من أمة محمد ﷺ أولى بعيسى من النصراني الذين حرفوا دينه وبدلوه، وأنَّ الجزء من جنس العمل؛ فلذلك مكَّن الله المسلمين من أرض الشام وألجأ النصراني إلى إخوانهم الروم! نعم، هذا حق.

إذاً فصدر سورة آل عمران يجلي حقيقة أنَّ النصرانية التي جاء بها قسطنطين، والتي يدين بها أهل نجران تبعاً للروم البيزنطيين، ما هي إلا فرية فكرية، وما هي إلا اعتقاد ملفق.

وأنَّ الحق في أنَّ دين عيسى هو نفسه دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ.
وأنَّ أصحاب محمد ﷺ وأتباعه هم المؤمنون بعيسى ودينه على وجه الحقيقة.
وأنَّ الإسلام ليس وليد الساعة!
ليس بدعاً في الأديان.
ولا يؤرخ بمبعث النبي محمد ﷺ.

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٥٢ / ٢.

وإنما الإسلام ممتد في التاريخ.

دينٌ يحمل معه الأنبياء والمرسلين.

وأنَّ أهل نجران وأساقفتهم وكل الكنائس والمعابد التي أنشأتها دولة الروم والتي تزيد على اثني عشر ألفاً لا تتبع دين عيسى!

وإنما تتبع دين قسطنطين المحدث والوثني.

وبتلك الآيات من سورة آل عمران أصيبت الإمبراطورية البيزنطية بهزة فكرية سيكون لها كبير الأثر في هزيمتها العسكرية.

وإذا كان اليهود القاطنون أرض الحجاز يزعمون أنهم أهل الكتاب وأنهم حملة الرسالة وأنهم القيمون على الدين والعلم لأجل الرياسة الدينية وما يتبعها من السيطرة المالية والزعامية؛ فإنَّ سورة البقرة أرادت القول لكل مغتر بهم أو مصدق لهم أن هؤلاء اليهود قد امتهنوا الكذب والافتراء على الله.

وأنهم قد انحرفوا عن شريعة موسى.

وانقلبوا على نصوص التوراة.

فبدلوا ألفاظها وحرفوا معانيها، لتتماهى مع مصالحهم، وليصدوا الناس بذلك عن اتباع شريعة الإسلام ورسالة محمد ﷺ:

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) وَإِذَا قُلُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا إِذَا خَلَا بِعَضُّهُمْ إِلَى بَعْضِ قَالُوا أَتَّخَذْتُمُوهُمْ إِمَامًا فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًةً وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُنْتُمْ آيْدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٥-٧٩﴾
[البقرة: ٧٥-٧٩].

قال ابن زيد: (التوراة التي أنزلها الله عليهم يحرفونها؛ يجعلون الحلال فيها حرامًا، والحرام فيها حلالًا، والحق فيها باطلاً، والباطل فيها حقًا، إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب؛ فهو فيه محق، وإن جاءهم أحد يسألهم شيئًا ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء أمره بالحق)^(١).

وقد ذكرت سورة البقرة عددًا من صور التحريف والتبديل الذي مارسه أحبارهم وعلماءهم عمدًا، عدوانًا على كلام الله وافتراءً عليه، حتى تشكل لليهودية دين مختلق ملفق فيه بعض الحق وبعض الوثنيات وكثير من الأهواء.

إذًا فإن اليهودية ليست دين موسى، وليست هي روح التوراة (العهد القديم) وإنما هي دين ملفق مصنوع بيد البشر.

وإذا كانت قريش تدعي أنها حارسة البيت الحرام وخادمة حُججائه وزواره، وأنها وارثة إبراهيم عليه السلام في دينه وكعبته؛ لتكون لها السيادة بين القبائل والقري في الجزيرة العربية، ولتُحكم القبضة على الحركة التجارية الناتجة عن ذلك؛ فإن سورة البقرة أرادت القول بأن قريشًا تكذب في دعواها اتباع إبراهيم.

وأنها تسير على غير سيرته.

وأنها بدلت دينه بعبادة الأصنام والأوثان.

وأن دينه الإسلام وعبادة الله وحده:

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٦١.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٢٧-١٣٢].

لقد كان إبراهيم مسلماً.

ولقد كان إسماعيل -أبو العرب الذي تنتسب إليه قريش- مسلماً.

ولقد كان إسحاق -أبو يعقوب الذي تنتسب إليه بنو إسرائيل- مسلماً.

فلماذا لا يكون اليهود والنصارى مسلمين إذا؟

ولماذا يدعون اتباع إبراهيم وهم يخالفون منهجه ودينه؟

إبراهيم من أعظم شخصيات التاريخ البشري، وهو أبو الأنبياء من الفرعين: إسماعيل أبي العرب وإسحاق أبي إسرائيل، وهو مجمع على فضائله بين الأمم، فهو جدير بالتنافس في الانتساب إليه عند الجميع. يقول ابن عاشور: (وأحسب أن ادعاءهم أنهم على ملة إبراهيم إنما انتحلوه لبث كل من الفريقين الدعوة إلى دينه بين العرب، ولا سيما النصرانية، فإن دعواتها كانوا يحاولون انتشارها بين العرب، فلا يجدون شيئاً يروج عندهم سوى أن يقولوا: إنها ملة إبراهيم. ومن أجل ذلك أتبع في بعض قبائل العرب، وهنالك أخبار في أسباب النزول تشير هذه الاحتمالات)^(١).

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٢٧١.

وقد فندت سورة البقرة هذه الادعاءات تفتيداً صريحاً:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنِ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِءَ فَقَدْ آهْتَدُوا وَإِن لَّوَلُوا فإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة: ١٣٥-١٣٧].

وهنا يأتي حوار وتأتي معالجات حول تاريخية الأديان.

وفي القرآن تفصيلاً دقيقاً لذلك، وفي سورة آل عمران توضيح لهذا الأمر بالنسبة للنصارى، كما هو الشأن في سورة البقرة بالنسبة لليهود ومشركي العرب.

لقد شاع بين الناس أن محمداً ﷺ يزعم أنه في رسالته إنما يتبع إبراهيم؛ الرجل الذي تتنافس الأمم على الانتساب إليه!

ومن المعلوم قطعاً لدى هذه الأمم أنه من ذريته.

وقد ولد وبعث في جوار البيت الذي بناه إبراهيم؛ أعني البيت الحرام.

وقد جاء القرآن بأخبار كثيرة عن إبراهيم لم تكن معلومة لدى أولئك الذين يدعون أتباعه من اليهود والنصارى ومشركي العرب.

وإبراهيم هو النموذج الأمثل لأن يقتدي به المؤمنون، خلافاً لنموذج بني إسرائيل المفترين على الله الكذب والمتعنتين المنحرفين والصادين عن الإسلام.

وخلافاً للنصارى الذين انصرفوا عن توحيد الله إلى عبادة المسيح، وغيروا

شريعته.

نموذج إبراهيم هو النموذج الذي يتحمل أمانة الرسالة؛ تحقيقاً في ذاته ودعوة إليه، وستكون هذه الأمة الناشئة نموذجاً كذلك إذا هي احتذت حذوه:

﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۗ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۗ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ۖ﴾ [البقرة: ١٢٤]

فهو إمام هؤلاء كلهم.

لكن هذه الآية بينت أن الانتساب إلى إبراهيم مع الظلم لا ينفع أصحابه، فلا اليهود جديرون بإمامة الناس، ولا النصارى جديرون بإمامة الناس، ولا قریش جديرة بإمامة الناس، فكل هؤلاء ظالمون. قال السعدي: (أي لا ينال الإمامة في الدين من ظلم نفسه وضرها وحط قدرها. والظلم يكون بالكفر أو بالمعاصي)^(١).

بل جاء في سورة آل عمران صورة للظلم المُقْصِي عن دعوى اتباع إبراهيم ونيل الإمامة في الدين:

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ مِن قَبْلِ أَن تُنزَلَ التَّوْرَةُ ۗ قُلْ فَأَنزِلُوا بِالتَّوْرَةِ فَآتُواهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَن افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ﴾ [آل عمران: ٩٣-٩٥].

فإن بني إسرائيل حين افتروا الكذب على الله أصبحوا ظالمين، وغير متبعين ملة إبراهيم، فأبعدوا من شرف الإمامة في الدين، فتأمل.

وعلى أي حال؛ فإن الطوائف الثلاث قد اختصمت في دعوى النسبة إليه، خصاماً فكرياً وتاريخياً.

(١) تيسر الكريم الرحمن ١/ ٩١.

لكن الله تعالى - وهو يبين لنا الصراط المستقيم - قضى في هذه المسألة الكبرى وفصل في هذه القضية التاريخية الفكرية في سورتي البقرة وآل عمران، ليتبين لكل من يقرأهما أن دين إبراهيم هو دين الإسلام لله وحده وهو الحنيفية والتوحيد المحض:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

قال ابن عباس: (نزلت في رؤساء يهود المدينة؛ كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهودا وأبي ياسر بن أخطب، وفي نصارى أهل نجران السيد والعاقب وأصحابهما، وذلك أنهم خاصموا المسلمين في الدين، كل فرقة تزعم أنها أحق بدين الله.

فقال اليهود: نبينا موسى أفضل الأنبياء، وكتابنا التوراة أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان، وكفرت بعيسى والإنجيل وبمحمد ﷺ والقرآن.

وقالت النصارى: نبينا أفضل الأنبياء، وكتابنا الإنجيل أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان وكفرت بمحمد ﷺ والقرآن.

وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين: كونوا على ديننا فلا دين إلا ذلك^(١). فرد الله أقوالهم، وأبطل دعواهم: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾.

قال مجاهد: الحنيفية أتباع إبراهيم فيما أتى به من الشريعة التي صار بها إماماً للناس. وقال ابن عباس: الحنيف المائل عن الأديان كلها إلى دين الإسلام^(٢).

(١) معالم التنزيل ١/ ١١١.

(٢) معالم التنزيل ١/ ١١١.

فهو لم يكن مسلماً فحسب، بل ومبتعداً عن كل طريق يؤدي إلى غير الإسلام.

وفي الآية الأخرى:

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

[آل عمران: ٦٧].

فهو ليس يهودي كما يدعي اليهود.

وليس نصراني كما يدعي النصارى.

وليس بوثنى كما تدعي قريش.

وإنما هو موحد مسلم.

وبأوجز عبارة تُسقط هذه الآيات ادعاء التشريف الذي يزعمه كل من اليهود والنصارى ومشركي العرب، وتجعل من تلك الثلاثة المباركة في المدينة من المهاجرين والأنصار أولى الناس بهذا التشريف والرفعة:

﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

[آل عمران: ٦٨].

بل وتجعلهم هم أهل الحق بين كل أهل الأرض، وخيرهم وأفضلهم:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ

شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهكذا كل من اتبعهم بإحسان إلى يوم القيامة؛ جعلني الله تعالى وإياك منهم.

وكما احتفت سورة البقرة بذكر آدم، احتفت أيضاً بذكر إبراهيم عليهما السلام،

ولذلك فإن بعض المفسرين يرى أن حرف الواو في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ

رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴿ [البقرة: ١٢٤] هو عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ
لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] على ما بينهما من المسافة،
والتقدير: واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، واذكر
أيضًا إذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن.

وهذا رابطٌ بديعٌ يؤلف بين الآيات، ويجعل القارئ لسورة البقرة أقوى فهمًا
وأقدر على الربط بين السياقات.

قال ابن عاشور: (والمقصود من ذكر قصة إبراهيم موعظةً للمشركين ابتداءً،
وبني إسرائيل تبعًا لهم، لأنَّ العرب أشدَّ اختصاصًا بإبراهيم، من حيث إنهم يزيدون
على نسبهم إليه بكونهم حفظة حرمه، ومنتمين قديمًا للحنيفية، ولم يطرأ عليهم دينٌ
يخالف الحنيفية؛ بخلاف أهل الكتابين)^(١).

وهكذا في باكورة نشئة الأمة المسلمة الجديدة، تؤكد السورتان أنَّ أمة
محمد ﷺ هي أمة الحق وأمة التوحيد الناصع وأمة الحنيفية وأمة الإسلام.

إنهم أولى الناس بإبراهيم انتسابًا واتباعًا وحجةً وتشريعًا.

وإنَّ من عداهم قد سفهوا أنفسهم!

ولا يقتصر الأمر على يهود المدينة وخيبر ونصارى نجران وبيزنطة..

بل يتعدى الأمر كل من ادعى اتباع دين إبراهيم من غير المسلمين، في كل زمان
ومكان.

أولئك الذين يتشدقون بالإبراهيمية ويرفعون عقيرتهم بها كذبة ومحتالون.

(١) التحرير والتنوير ١/ ٧٠٠.

كذبة لأن إبراهيم لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولا مشركًا، ولا يرضى بالاقتراب من مشرك ولا موالاته، بل هو مباحد عن اليهودية والنصرانية مجافٍ لهما، وهذا معنى الحنيف.

ومحتالون لأنهم يعبرون بهذا الانتساب جسر الأغراض المادية والسياسية، وهو سلوك يتوارثه اللاحقون عن السابقين، مع بعض التحسينات التي يضلُّ بها الجهال إلا من رحم الله.

أيها الفاضل!

هل كان إبراهيم يعبد أصنامًا من دون الله؟

أوليس هو الذي حمل فأسه وكسرها وأوذي في سبيل ذلك؟

وهل كان إبراهيم يضع يده في يد المشركين بالله؟

أوليس هو الذي نابذ قومه العدااء لأنهم مشركون؟

أوليس هو الذي تبرأ من والده -أقرب الناس له وشيعة- لأنه مشرك؟

أوليس هو الذي تضرع إلى الله أن يجنبه وذريته الشرك وعبادة الأصنام؟

بأي وجه يفترى هؤلاء المتشدقون الكذب على أنبياء الله؟ وعلى التاريخ؟

وما حال الناس الذين يصدقونهم بكذبهم على الله تعالى وعلى أنبيائه وعلى

التاريخ؟

نحن -أعني المسلمين- أولى الناس قاطبة بالانتساب إلى إبراهيم ديانة واتباعًا؛

وإن زكمت أنوف، نحن فقط.

والسورتان تبيان أن الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ هو دين الأنبياء جميعًا، وهو

الدين الذي لا يرتضي الله سواه عبر التاريخ، منذ خلق آدم، وأن الكتب إنما نزلت به:

﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهِ ءَابَاؤُنَا وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾
[البقرة: ١٣٣].

حتى الأنبياء من بني يعقوب «إسرائيل» إنما جاؤوا بدين الإسلام الذي بعث به نبينا محمد ﷺ، فهل وفى أهل الكتاب بما في كتابهم؟! كلا.

ولهذا أشهد الله أهل العلم الصحيح من الأمم على حقيقة التوحيد، وقرن شهادتهم بشهادته سبحانه وملائكته:

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ وَجْهَ اللَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِي فَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾
[آل عمران: ١٨-٢٠].

وكل الأنبياء قد أخذ الله عليهم الميثاق في اتباع محمد ونصرته إذا ظهر بينهم، ثم هم أبلغوا أممهم بهذا العهد والميثاق:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ. قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ٨١-٨٢].

موسى وعيسى وأيوب وذو الكفل وداود وسليمان وإدريس... كلهم دعوا إلى الإيمان بمحمد ﷺ ونصرة دعوته إذا ظهر بينهم. لم تقف السماء عبر التاريخ عن أخذ العهد على ذلك.

لقد قضى الله تعالى أن يكون الإسلام هو الدين الخالد والخاتم:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٨٣) قُلْ ءَأَمْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿﴾ [آل عمران: ٨٣-٨٥].

قال البغوي: (ذلك أن أهل الكتاب اختلفوا، فادعى كل واحد أنه على دين إبراهيم عليه السلام، واختصموا إلى رسول الله ﷺ، فقضى النبي ﷺ بينهم أن كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم عليه السلام، وأن دينه الإسلام، فغضبوا وقالوا: لا نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك، فأنزل الله تعالى الآية^(١)).

دين إبراهيم هو الإسلام.

بل الإسلام لم يكن دين الأنبياء فحسب، إنما هو الديانة الكونية التي أراد الله لها أن تشمل التاريخ والجغرافيا، والطبيعة وما وراء الطبيعة.

لذلك جاءت السورتان بالتعريف بقصة الإسلام عبر التاريخ، ولتنبه المؤمنين على أن يحفظوا هذا الإرث التاريخي العظيم من التبديل والتحريف كما حدث من قبل في أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وكما غيرته أحبارهم ورؤساؤهم من

(١) معالم التنزيل ١/٣٧٧.

أجل مطامع الدنيا، وكما حرفته العرب وعلی رأسهم عمرو بن لحي الخزاعي؛ الذي جلب الفكرة الوثنية إلى الجزيرة العربية.

إنَّ من أهم الواجبات علی أمة الإسلام هي حراسة الإسلام من أن تطاله أيدي البغاة عليه؛ بغية تحريفه وتبديله.

ولذلك أخبرنا الله تعالى في سورة البقرة عن مقام من مقامات إبراهيم التي وفاها وجعلها الله لنا قدوة؛ وهو مدافعة لشبهه الباطل بالحجة والبرهان، ومقارعة للشرك بالبيان والدعوة:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبرَهُمَ فِي رَبِّهِمْ أَنَّ ءَاتَهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبرَهُمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۗ قَالَ إِبرَهُمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وفي ذلك إشارة إلى ما يجب علی الرسول ﷺ ومن اتبعه من المؤمنين الذين هم أولى الناس بإبراهيم؛ من وجوب مدافعة الباطل ومقارعة الشرك بالحجة والبيان.

لاحظ هذا!

ولاحظ معه جوَّ السورة المدني، لتدرك أن أصحاب الرسول ﷺ وأتباعه ليس لهم أن يتخاذلوا عن بيان الحق ورد الباطل وكشف الشبهات.

هذه حنيفية إبراهيم التي دعت السورتان إليها نبينا ﷺ وأصحابه ونحن من بعدهم.

هذه حقيقة الإسلام الذي نشأت عليه الأمة الجديدة:

توحيد، ودعوة إلى التوحيد، ودفاع عن التوحيد.

فاللهم اجعلنا من أنصارك وأنصار دينك ورسولك.

الأمة المسلمة

أهلاً بالأمة الجديدة.. أهلاً بالأمة المسلمة..

نحن أمام أمة جديدة ناشئة، ابتعثها الله تعالى من ركام الجاهلية والوثنية والانحطاط، وفي حديث عياض بن حمار المجاشعي مرفوعاً: (وإنَّ الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب)^(١).

وبعد أن أطبقت الظلمات ومحيت الشرائع بعث الله أمة جديدة، وبعث لها رسولها محمداً ﷺ، ليعيد رسمها من جديد، وليصبغها الصبغة الربانية العظيمة، صبغة التوحيد والحق:

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

وإذا عدنا إلى إبراهيم عليه السلام، والذي صارت النبوة والكتاب من بعده في ذريته، فإنه لما بنى البيت الحرام بمكة - حرسها الله - دعا بدعوات عظيمة، واستجاب الله له دعاءه، وأكرمه كرامة عظيمة، ومن تلك الدعوات المباركة أن يجعل من ذريته أمة مسلمة، قال إبراهيم:

﴿رَبَّنَا نَقْبَلْ مَنْنَا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٩].

(١) أخرجه مسلم ٤/٢١٩٧، ح ٢٨٦٥.

وفي التسمية بالإسلام يتحدث ابن عاشور عن تدبير الله تعالى، والذي به آل اسم الإسلام إلى دين محمد ﷺ متخطياً الأديان التي طالها التحريف والتبديل، فيقول: (ألهم الله إبراهيم اسم الإسلام، ثم ادخره بعده للدين المحمدي، فنسي هذا الاسم بعد إبراهيم، ولم يلقب به دين آخر، لأن الله أراد أن يكون الدين المحمدي إتماماً للحنيفية دين إبراهيم)^(١).

فدعا إبراهيم أن تكون من ذريته أمة مسلمة، أي جماعة من الناس، من ذريته، يجتمعون على الإسلام، ويكون لهم نبي يعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم بهما. وقد استجاب الله تعالى له، فبعث محمداً ﷺ واتبعه عدد من الناس، من قريش وبعض القبائل العربية، ثم اتبعه الأوس والخزرج، وكلهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فقريش من فرع عدنان، والأوس والخزرج من فرع قحطان، ومن هذين الفرعين أتت سائر القبائل العربية. واجتمعوا في دار الهجرة -المدينة الجديدة- حيث فتح الأنصار ديارهم للمهاجرين ولمحمد ﷺ.

وبذلك اكتملت قواعد الأمة المسلمة الناشئة.

يدل ذلك على هذا أن النبي ﷺ في أول مقدمه إلى المدينة كتب بينه وبين اليهود والقبائل كتاباً، ينظم فيه علاقة الأمة الجديدة بمن حولها، ومن معها من غيرها، وقال عنها في أوله كلمة تحمل أعمق الدلالات لمن تأملها:

إنهم أمةٌ واحدة من دون الناس^(٢).

فنحن متفردون.

نحن لنا رسالتنا وكتابنا وأخلاقنا ونظامنا ومنهجنا وعقيدتنا.

(١) التحرير والتنوير ١ / ٧٢٠.

(٢) البداية والنهاية ٣ / ٤٠٥.

نحن أمة مسلمة، حنيفة كحنيفية إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب..
نحن أمة من دون الناس. والمهاجرون والأنصار يسمعون هذا الكلام
ويحفظونه، ويستوعبون مدلولاته وتبعاته واستحقاقاته.
والعالم كله يدرك أنها أمة مختلفة عن المعهود في الأمم والجماعات، يدرك
أنهم متفردون.
ونحن أمة هداية..

اهتدت بكتاب ربها، إلى الصراط المستقيم، فأفضى بها إلى الفلاح في الدنيا
والفلاح في الآخرة:

﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]

وتهدي غيرها من الأمم إلى ذلك الصراط:

﴿فَإِنۢ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنُتُمْ بِهِۦ فَقَدِ اهْتَدَوْا ۗ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقِ ۗ
فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]

ونحن أمة وسط:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

والوسط هنا له معنيان، وكلاهما ينطبق على هذه الأمة المسلمة:

المعنى الأول: الأعلى والأفنى والأحسن.

والمعنى الثاني: المتوسط بين طرفين مذمومين.

والأول يقتضي الثاني.

قال ابن كثير: (يقول تعالى: إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام، واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم؛ لأنَّ الجميع معترفون لكم بالفضل. والوسط ههنا الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسبًا ودارًا، أي خيرها، وكان رسول الله ﷺ وسطًا في قومه، أي أشرفهم نسبًا)^(١).

والسعدي يبين لك كيف صارت هذه الأمة وسطًا في الأمم، فيقول: (فجعل الله هذه الأمة وسطًا في كل أمور الدين: وسطًا في الأنبياء؛ بين من غلا فيهم كالنصارى وبين من جفاهم كاليهود، بأن آمنوا بهم كلهم، على الوجه اللائق بذلك.

ووسطًا في الشريعة؛ لا تشديدات اليهود وآصارهم، ولا تهاون النصارى.

وفي باب الطهارة والمطاعم؛ لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعتهم وكنائسهم، ولا يطهرهم الماء من النجاسات، وقد حُرمت عليهم الطيبات عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا يُنجسون شيئًا، ولا يحرمون شيئًا، بل أباحوا ما دب ودرج.

بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمها، وأباح الله لهم الطيبات، من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وحرم عليهم الخبائث من ذلك.

فلهذه الأمة من الدين أكمله، ومن الأخلاق أجلُّها، ومن الأعمال أفضلها، ووهبهم الله من العلم والحلم والعدل والإحسان ما لم يهبه لأمة سواهم، فلذلك كانوا أمة وسطًا كاملين)^(٢).

(١) تفسير القرآن العظيم ٨/٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/١٠٢.

حتى وإن كان أفراد هذه الأمة أقل حظاً في مكاسب الدنيا وشرف المكانة الاجتماعية والعرقية وعلوم الصنعة؛ فإنهم خيرٌ من غيرهم من الأمم الأخرى:

﴿وَلَا أُمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وما قيمة «العلم الحديث» إذا لم يصلك بالله تعالى؟

ما قيمة الإنتاج الصناعي والتكنولوجي إذا لم يستنير بأنوار الوحي؟

إنها تتحول إلى وسائل جهنمية:

﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٢١].

انظر إلى حجم الدمار العالمي ومليونية الدماء المسفوكة والهدر الأممي للموارد والطاقة، ألم يكن ذلك بسبب المشركين الذين أعجبونا؟!!

القرآن يقرر أن عجوزاً أمياً فقيراً جاهلاً في قرية نائية، لا تعرف ألوان المدينة، ولا تتزين طرقاتها بأعمدة الإنارة، ولا يرتدي أهلها أجمل الملابس، يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، خيرٌ من أستاذ في مركز مرموق، يرسم خطة الدولة ويصنع قراراتها، لكنه يركع لبقرة أو يجثو لصليب أو يعلق تمثالاً على صدره.

المؤمن له قيمة حقيقية في العالم، وله المرتبة العليا عند الله تعالى.

ونحن أمةٌ شهادة:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِئَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ

شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

نشهد للأنبياء على أقوامهم يوم القيامة، حين تنكر الأمم لهم، وتدّعي أنهم لم يبلغوهم، فتقوم أمة محمد ﷺ فتشهد للأنبياء بأنهم بلغوا رسالة الله لأقوامهم.

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (يجيء يوم القيامة ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجال، وأكثر من ذلك، فيُدعى قومه، فيقال لهم: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا. فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم. فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. فيُدعى بمحمد وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم. فيقال: وما علمكم، يعني ما حجتكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا ﷺ، فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا. فذلك قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾. قال: عدلاً، ﴿لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(١).

ونحن أمة شهادة في الدنيا..

نحكم على الأمم والطوائف، ونبين ما لديهم من الاستقامة والانحراف؛ كل ذلك بالعلم والعدل، لا تأخذنا في الله لومة لائم، ولا نشترى بذلك ثمناً قليلاً، فلا ينبغي لنا أن نفعّل كما فعل أهل الكتاب والمشركون، الذين يتهمون من يخالفهم بالضلال والانحراف عن الحق لمجرد أنهم خالفوهم؛ وليس وفقاً لما دلت عليه نصوص الكتاب الذي معهم، بغياً وحسداً وحباً في مطامع الدنيا وخوفاً على فقد مكاسبها، لذلك يشهدون على غيرهم بغير الحق:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: ١١٣].

ونحن أمة الاضطفاء والولاية..

امتن الله علينا فأخرجنا من ظلمات الجهل والانحراف والخرافة والشرك والتيه في دروب الحياة والتسول على موائد الأمم إلى نور الحق والبصيرة والعلم والمكارم والشرف والتوحيد:

(١) أخرجه أحمد ١٨/١١٢، ح ١١٥٥٨.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ
الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ يُحْيَى﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وهذه الولاية لها ثمنها.

والابتلاء ثمن لها.

فنحن أمة مبتلاة..

لا تصفو لنا دار الدنيا، بل نتجرع فيها آلام الابتلاء والمعاناة، فمننا من يطوي
ليله ونهاره خائفًا يترقب، قد أرهقه الرصد، وأعياه فقد الأمن، ومننا من لا يملك
قوت يومه؛ فيبست طاويًا يتضور من الجوع، ومننا من خسرت صفقته أو ظلم في ماله
فأرهقته الديون ونهشته المكوس ولربما مرت عليه أوقات وأوقات وهو عاجز عن
توفير لقمة العيش لولده وزوجه وذويه، ومننا من فقد بعض أهله ومحبيه، في وباء
فاتك أو مرض مهلك أو حرب ظالمة..

ولم يسلم من هذا الابتلاء نبينا محمد ﷺ وهو الكريم على ربه، فقد مات
أولاده في حياته إلا فاطمة رضي الله عنها، وقتل أصحابه بين يديه، ومكث الشهر
والشهرين لا تُوقد في بيته نار لطهي الطعام من الفقر، وهاجر من موطنه، وأوذى
كثيرًا..

وكذلك الصحابة الكرام..

وهؤلاء خيار الخلق، فكيف بمن عداهم!

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ
الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

لا بد من الابتلاء.

ولا بد من المعاناة، ولقد حُفَّت الجنة بالمكاره!

ومما ابتلينا به حسد غيرنا من الأمم لنا على ما منَّ الله به علينا، وسعيهم جاهدين لإنزالنا عن تلك الرتبة السنية:

﴿ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥].

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

فهم لا يريدون أن ينزل على هذه الأمة من الخير شيء قليلاً كان أو كثيراً، وهم يضمرون قتال المسلمين دائماً، وإنما يتوقفون عنه بعض الوقت بسبب العوائق التي تعوقهم عن ذلك، والتي تجعلهم يؤجلون فكرة القضاء على المسلمين. قال ابن عاشور: (وفيه إعلام بأنَّ المشركين يضمرون غزو المسلمين ومستعدون له، وإنما تأخروا عنه بعد الهجرة، لأنهم كانوا يقاسون آثار سنيِّ جدب، فقولُه «لا يزالون» وإنَّ أشعر أنَّ قتالهم موجود؛ فالمراد به أسباب القتال، وهو الأذى وإضرار القتال كذلك، وأنهم إنَّ شرعوا فيه لا ينقطعون عنه، على أنَّ صريح «لا يزال» الدلالة على أنَّ هذا يدوم في المستقبل، و«حتى» للغاية وهي هنا غاية تعليلية. والمعنى: أنَّ

فتنتهم وقتالهم يدوم إلى أن يحصل غرضهم؛ وهو أن يردوكم عن دينكم^(١).
فلا تظن يوماً أن توقف المشركين عن القتال ناشئ عن مودة أو رحمة أو صداقة،
إنَّ عداهم لنا متجذر في نفوسهم ومضمر في قلوبهم.

وعلى أي حال؛ فإنَّ سورة البقرة جاءت لتؤكد تفرد هذه الأمة وتميزها منذ
البدء، جاءت لتقول لهم: إنكم خير الأمم وأفضلها، فلا ينبغي أن تنظروا إلى الأمم
الكافرة نظرة انهزام، ولا نظرة مغلوب، لأنكم تملكون أعظم عناصر القوة: منهج
الحياة في كتاب الله، فبقدر تمسككم به تكونون الأقوى والأحسن، وتكونون
الأعلى على الأمم.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]

(١) التحرير والتنوير ٢ / ٣٣١.

امتحان الشكر

ولا بد من الشكر!

قانون الشكر العام هو أن النعم تدوم بالشكر وتزول بفقده.

ولما خلق الله تعالى آدم، وعلمه كل شيء، وجعله في الأرض خليفة، وأسجد له ملائكته، وخلق له من نفسه زوجة حواء ليسكن إليها، وأدخله جنته وأباحها له، إلا شجرة واحدة نهاه عن الأكل منها، فلما أكل منها آدم، كان هذا إيذاناً بتحويله عن النعمة التي كان فيها، إلى الأرض حيث النصب والتعب.

وفي هذا التفات إلى أن النعمة ذات مفهوم واسع، وأن شكر النعمة مثل ذلك، وأن العقوبة على عدم شكرها أيضاً له مفهوم واسع.

وفي أول سياق صريح للامتنان على الناس بنعمة الله، يقول تبارك وتعالى:

﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَآرْهَبُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَابَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ [البقرة: ٤٠-٤١].

فما النعمة هنا؟

وكيف يكون شكرها؟

قال أبو العالية: (نعتمته أن جعل منهم الأنبياء والرسل، وأنزل عليهم الكتب)^(١).

(١) تفسير القرآن العظيم / ١ / ٣٦٤.

وابن عطية يستحسن البقاء على عموم اللفظ^(١)، وهذا توسيع لمفهوم النعمة، وعلى كل حال فإن الدين والإيمان والشريعة نعمة عظيمة؛ هذا ما تؤكد الآيات.

وأما شكرها، فقد قال ابن كثير: (يقول تعالى أمرًا بني إسرائيل بالدخول في الإسلام، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، ومهيجًا لهم بذكر أيهم إسرائيل، وهو نبي الله يعقوب، عليه السلام، وتقديره: يا بني العبد الصالح المطيع لله! كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق)^(٢).

وهذا الشكر الحقيقي، وهو الذي أراده الله تعالى من بني إسرائيل: الإيمان المطلق بما جاء به رسولنا ﷺ واتباع شريعته والتسليم بها.

فكما أنعم الله عليهم ببعث الأنبياء ورؤية الآيات وإنزال الكتب وإنجائهم من آل فرعون وإسكانهم الأرض المقدسة؛ وجب عليهم شكر هذه النعم، بتمحيض العبودية له وبطاعة أنبيائه ورسوله واتباع الوحي الذي أنزل عليهم، وجاهزيتهم لاتباع النبي الخاتم.

وهذا التذكير بالنعم على هذا الوجه جاء في سورة البقرة ثلاث مرات، وفيه درس للمؤمنين من العرب وغيرهم، ولأصحاب النبي ﷺ خاصة، الذين كانوا في عماية الجهل والظلام، فبعث الله لهم نورًا، وأيُّ نور، وكانوا مقيدين بأغلال العبودية للأوثان، مأسورين لحكم المجتمع الجامد، ثم هداهم الله لما فيه صلاحهم، وبعثهم ليكونوا حملة المشاعل عالمي الرسالة.. درس لهم ليدركوا تبعه هذا التشريف ومستحقات هذا الإنعام، وهي أن يتمسكوا بهذا الدين، ويُعملونه في واقع حياتهم، ويحكمونه في كل شؤونهم، وأن يكون الوحي منهجًا لهم في كل مسألة أو خلاف أو موقف أو توجه.

(١) المحرر الوجيز ١/٣٧٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/٣٦٣.

أن يحملوا الرسالة بحقها، وأن يؤدوا أمانة العلم، وأن ينشروا كتاب الله في هذا العالم، وهي الأمور التي أخفقت فيها بنو إسرائيل، فعاقبهم الله تعالى بأن انتزع منهم هذا الشرف وأعطاه غيرهم، والله تعالى يذكر بني إسرائيل بنعمه عليهم، لعلهم يشكرونها:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا الْعَجَلَ مِنَ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿البقرة: ٤٩-٥٢﴾.

وكثير من المفسرين على أن البلاء العظيم هنا بمعنى النعمة^(١).

هذا هو امتحان شكر النعمة!

أما إبراهيم عليه السلام فقد شكر النعمة.

هذا النبي الذي ينافسنا عليه اليهود والنصارى ومشركو قريش:

﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿البقرة: ١٣٠-١٣١﴾.

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿البقرة: ١٢٤﴾.

حتى ذريته ليس لهم إلا العقوبة إذا هم ظلموا بالكفر والمعاصي والإفساد.

ولكن -ولله الحمد- من ذريته من شكر النعمة وأسلم:

(١) جامع البيان ١/ ٦٥٢.

﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾
[البقرة: ١٣٣].

هذا الدين الإسلامي نعمة، وهذه الرسالة المحمدية نعمة عظيمة:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وبعد أن امتنَّ الله على المسلمين بكونهم الأمة الأحسن، وباختيار الكعبة لهم قبله، وبارسال خير الرسل إليهم وإنزال أفضل الكتب لهم، أمرهم بشكر هذه النعمة العظيمة:

﴿ وَلَا تَمَتَّ نِعْمِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَادْكُرُوا فِي آذَانِكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٠-١٥٢].

قال السعدي: (أصل النعمة: الهداية لدينه، بإرسال رسوله وإنزال كتابه، ثم بعد ذلك النعم المتممات لهذا الأصل لا تعد كثرة ولا تحصر، منذ بعث الله رسوله إلى أن قرب رحيله من الدنيا وقد أعطاه الله من الأحوال والنعم، وأعطى أمته ما أتم به نعمته عليه وعليهم، وأنزل الله عليه: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]. فله الحمد على فضله الذي لا يبلغ له عدًا، فضلًا عن القيام بشكره)^(١).

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/١٠٩.

هل وعيت؟

أصل النعمة: الهداية لدينه.

ومن إنعامه وهدايته أن بيّن في هذا الفسطاط العظيم، أعني سورة البقرة: أحكام الصيام والحج والقتال والقصاص والنكاح والطلاق والإيلاء والنفقات والبيوع والدين والربا والرهن، وغيرها الكثير من الآيات وما تضمنته من أحكام وآداب وتوجيهات، بل فيها من علم بني إسرائيل وأخبارهم ما لا يعرفه إلا علماءؤهم، وفيها من أخبار الأنبياء وبدء الخلق والمصير وصفات الله ما ليس في غيرها من سور القرآن، وفي أكثر هذه الآيات ينوه الله جل شأنه بمسألة شكر النعمة التي منّ بها على المؤمنين عامة وأصحاب محمد ﷺ خاصة، لا سيما وهم في مبدأ أمرهم وباكورة انفتاحهم على الأمم والحضارات:

﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكْرِمُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

والرسالة التي ثناها الله تعالى لأمة محمد ﷺ في هذه السورة، وهي للتو استيقظت من سباتها، وللتو تنهض بين الأمم، وللتو تعرج في مدارج العبودية:

يا أمة محمد!

اشكروا الله تعالى على نعمة الإسلام.

هذا الدين الذي أنار قلوبكم، وشرح صدوركم، وأضاء حياتكم، وفصل عباداتكم، ونظم علاقاتكم، وجعلكم خير الأمم وأحسنها وأجملها وأوسطها. اشكروا الله أن علمكم الفرق بين الكسب الحلال والكسب الحرام. اشكروه أن ارتقى بأخلاقكم وأذواقكم وعاداتكم. اشكروه أن علمكم كيف تنعمون بالرابطة الزوجية على أكمل وجه ممكن. اشكروه أن بين لكم مكانة الرجل ووظيفته ومكانة المرأة ووظيفتها في البيت والأمة.

اشكروه أن علمكم كيف تطلبون منه حاجاتكم التي عسر عليكم قضاؤها. اشكروه أن دلکم على الصلاة؛ الساعة التي تلتقي فيها الأرض بالسماء. اشكروه أن علمكم شعائر الدين وكيفيات عبادته. اشكروه أن علمكم صفات أعدائكم وطرائق عدائهم. اشكروه أن عرفكم تاريخ بدء الخليقة وأحوال الآخرة. اشكروه أن جعلكم خير أمة أخرجت للناس. اشكروه أن جعلكم أولى الناس بخليته إبراهيم..

وهذا الشكر يكون بالقيام بحق الرسالة المحمدية، والطاعة لله ورسوله، والصبر عليها، وإقامة الشريعة الإسلامية وأحكامها في حياتكم.

ولا تعجب من أعلم الناس وأتقاهم، أعني نبينا محمداً ﷺ - فدينه بأرواحنا وما نملك - أن يقوم الليل صافاً قدميه مصلياً لله تالياً لكتاب الله يطيل القيام، فتقول له

عائشة رضي الله عنها، إشفاقاً عليه: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فيقول: (أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً)^(١).

هذا هو الفقه!

وذلك هو الامتحان الأصعب: امتحان الشكر.

(١) أخرجه البخاري ٤٠٦/٥، ح ٤٨٢٢.

الفصل الثالث

حقائق الإيمان

الإله العظيم

يحار العارف في جلال الله تعالى.

ويتيه في معاني ربوبيته.

وحين يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم»، لربما تغشى قلبه من عظمته وكبريائه وجلاله ما ترتعد له فرائضه.

أما حين يهوي ساجداً ويقول: «سبحان ربي الأعلى»، فحينها يتيقن علو الله وعظمته.

هذا حال العارفين.

إنَّ الشعائر التعبديّة يجب أن تفضي بنا إلى هذه المعاني، وإلا فهي خلو من مقاصدها وأغراضها.

هذه الشعائر يجب أن تذكّر الإنسان بعبوديته وتذكّره بألوهية ربّه ومولاه.

يا هذا! إنك عبد.

وإنه الله العلي العظيم.

اعتنت سورة البقرة بهذا المعنى شديد العناية.

إنها تربيك وتغرس فيك أعظم حقيقة في الوجود؛ حقيقة أنك أيها الإنسان عبد لله العلي العظيم.

كم تجرع الإنسان من الويلات حين غفل - أو تغافل - عن هذه الحقيقة.

لقد استعبد الناس بعضهم بعضًا.

وألَّهوا بعضهم بعضًا.

وصرفوا صنوف التعظيم والتأليه لغير الله العلي العظيم، خوفًا ورجاءً وحبًا، وخطوا من قدر إنسانيتهم المجبولة على عدم الخضوع والتذلل إلا لله تعالى.

سورة البقرة تعيد الأمور إلى نصابها، وتزن التصورات بمعايير السماء، لا بمعايير الأرض.

جاءت هذه السورة في باكورة نشئة الأمة المسلمة وهي تعرّف بالله تعالى، تعريفًا لا تملك بعده إلا أن تخضع له وتعظمه وتخشع له بقلبك وجوارحك، وتبذل ما عداه ممن ينازعه الكبرياء في الأرض، أو ينازعه صفاته الجليلة.

الإيمان بالله العلي العظيم هو الواجب الأول على الإنسان، والوظيفة الأولى للبشرية، وهو الموجه الأول للحياة الطيبة، وهو اللبنة الأولى في بناء الأمة، وهو السلاح الأول في مواجهة الأعداء.

ولكن من هو الله؟

جاءت سورة البقرة وهي تحمل تعريفًا كبيرًا بالله تعالى، تعريفًا يفضي إلى الإيمان به وبقوته وقدرته وعلمه، وتفضي إلى الإيمان بمقتضيات ذلك، كالإيمان بالقدر واليوم الآخر.

ولا أودُّ إعادة ما أشرت إليه في مبحث الأسئلة الكبرى هنا، ولكن سأشير إلى أمرين عظيمين في مسألة الإيمان بالله العلي العظيم.

الأمر الأول هو قوة الإحياء، والأمر الآخر هو القدرة المطلقة الباهرة.

أما قوة الإحياء فسأبينها لك..

من الظواهر التي يلفت القرآن الكريم عنايتنا إليها ظاهرة إنبات الزرع من الأرض بعد نزول المطر، ونموه إلى أن تخرج الثمار الناضجة، ثم موته، في دورة حياتية مستمرة الحدوث والتكرار، وفي سورة البقرة إشارة إلى تلك الظاهرة، ففي مقدمة السورة يبرهن الله تعالى على ألوهيته بذلك:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

وهي ظاهرة تشبه البعث الأخير، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (بين النفختين أربعون، ويبلَى كل شيء من الإنسان إلا عَجَبَ ذنبه، فيه يركب الخلق)^(١).
ووجه الشبه واضح للغاية.

ولذلك؛ فإن دورة الحياة النباتية والحيوانية والإنسانية ينبغي أن تذكّرنا باليوم الآخر، وأن تذكّرنا بأن الله سيبعث العباد، وأنه سيجازيهم على أعمالهم.

لكن الإنسان تصيبه الغفلة، وقد لا يسلم من الجحود، وربما أثر فيه طوفان المادة فجعله يغفل عن اليوم الآخر، أو ربما شك أو استبعد حدوث القيامة والبعث من القبور، والذي أثنى الله تعالى على عباده المتقين بأنهم يوقنون بالآخرة.. لذلك أظهر الله تعالى معجزته في إحياء الموتى في الدنيا، والناس يشاهدون ذلك بأم أعينهم، وينقلون أخبار تلك الحوادث الفريدة من جيل إلى جيل.

حدثتنا سورة البقرة عن عدد من الوقائع التاريخية الثابتة قطعاً، والتي أعاد الله فيها الأموات إلى الحياة، بمرأى من الناس، وإنها -والله- على الله يسيرة.

(١) أخرجه البخاري ٥/ ٣٨٠، ح ٤٧٩٨.

ولذلك يستشفي المسلم بسورة البقرة لما فيها من عرض قوة الله تعالى وقدرته، فالقادر على إحياء الموتى متى شاء أقدر على شفاء المريض، والقادر على التصرف في الكون الواسع أقدر على اقتلاع المرض والأذى من جسد الإنسان ونفسه وروحه.

في الواقعة الأولى اختار موسى -عليه السلام- سبعين رجلاً من خيار بني إسرائيل، للتوبة والاعتذار عن عبادة العجل، وقد أمر الله تعالى موسى أن يقدم بهم إلى الجبل، فكان ميقاتاً لهذه المواعدة، فلما ذهبوا طلبوا من موسى أن يروا الله عياناً:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنظَرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦].

فصعقوا وماتوا وهم ينظرون إلى بعضهم، ثم أحياهم الله تعالى، لا دفعة واحدة، لينظر بعضهم إلى بعض وهم يحيون بعد الموت. فكانت آية عظيمة! قال قتادة: (أحياهم ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم، ولو ماتوا بآجالهم لم يبعثوا إلى يوم القيامة)^(١).

أما الواقعة الثانية فهي حين أمر الله تعالى بني إسرائيل بذبح البقرة:

﴿فَقُلْنَا أَصْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٧٣].

وفعلاً ضربوا المقتول بعضوٍ منها، فأحياه الله تعالى أمام أعينهم، ثم أنطقه الله تعالى فأخبر بمن قتله.

(١) معالم التنزيل ١/ ٥٢.

وكذلك يحيي الله الموتى يوم القيامة، ويستنطقهم بعد أن كانوا جثثاً هامدة!

وأما الواقعة الثالثة فهي ما قصه الله تعالى عن القوم الذين هربوا من أرض الطاعون خوفاً من الموت، فلما نجوا منه أماتهم الله جميعاً بكلمة واحدة: موتوا. ثم أحياهم جميعاً.

وهي كذلك حدث تاريخي عظيم:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿البقرة: ٢٤٣﴾.

قال ابن عباس: (كانوا أربعة آلاف، خرجوا فراراً من الطاعون، قالوا: نأتي أرضاً ليس بها موت، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا، قال الله لهم: موتوا. فماتوا. فمروا عليهم نبي من الأنبياء، فدعا ربه أن يحييهم. فأحياهم).

عقب ابن كثير على ذلك، فقال: (وكان في إحيائهم عبرة، ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة والدلالات الدامغة)^(١).

وأما الواقعة الرابعة فهي حينما مرَّ النبي الكريم عزيز -على المشهور من أقوال أهل العلم^(٢)- على بلدة بيت المقدس، بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها، وقد أصبحت خاوية متهدمة، فمن شدة ما رأى من الدمار والتخريب، وخلو البلدة من ساكنيها بسبب القتل والتشريد والسياء، استبعد أن ترجع كما كانت سابقاً، عامرة مأهولة تدب فيها الحياة، فقال:

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٢٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٥٦.

أنى يحيي هذه الله بعد موتها!

وهذا الاستفهام الذي يقصد به الاستبعاد؛ لربما يقوله الإنسان اليوم حين يرى قرى ومدناً وبلداتاً كانت عامرة بأهلها ومساكنها ومتاجرها ومساجدها ومدارسها، وكانت شوارعها تعج بأخلاق الناس، وكانت مزارعها تزدهم بأنواع المحاصيل، ثم غزتها الغوازي فلم تُبق حجراً على حجر، ولا رأساً على كتف، وخلت تلك البلدان -أو كادت- من مظاهر الحياة.

في هذه الحال يراد الإنسان سؤال الاستبعاد هذا:

أنى يحيي هذه الله بعد موتها!

وعزير يشبه خراب بيت المقدس بالموت المتحقق، الذي لا يرجى لأهله حياة. قال ذلك وكان في معيته حمار وعب وتين وعصير، كان معه متاعه، فأراه الله عبرة فيه وفي متاعه هذا..

لقد أماته الله تعالى مئة عام.

ثم بعثه سبحانه بعد المئة عام.

فكانت المعجزة الدالة على قوة الإحياء:

وجد العنب والتين والعصير بعد مئة عام كما هي عليه حين موته، لم تفسد ولم تتغير.

ووجد الحمار ميتاً فانياً، فأحياه الله أمام عينيه.

أما أشد ذلك آية فهو أن أول شيء شاهده بعينه إعادة نفسه وإحيائها بعد الموت، ذلك أن بعض المفسرين ذكر أن أول شيء أحياه الله فيه عيناه!

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۗ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةً عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۗ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۗ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۗ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةً عَامٍ فَأَنْظِرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۗ وَأَنْظِرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ۗ وَأَنْظِرْ إِلَى الْعُظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

قال السدي: (تفرقت عظام حماره حوله يمينًا ويسارًا، فنظر إليها وهي تلوح من بياضها، فبعث الله ريحًا، فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة، ثم رُكِّب كل عظم في موضعه، حتى صار حمارًا قائمًا من عظام لا لحم عليها، ثم كساها الله لحماً وعصبًا وعروقًا وجلدًا، وبعث الله ملكًا، فنفخ في منخري الحمار فنهق، كله بإذن الله عز وجل، وذلك كله بمرأى من العزير، فعند ذلك لما تبين له هذا كله ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي: أنا عالم بهذا، وقد رأيته عيانًا، فأنا أعلم أهل زمانني بذلك^(١)).

الجدير بالذكر أن عزيرًا حين بعثه الله بعد موته، ليكمل حياته ويستوفي أجله ورزقه؛ وجد كل شيء في الحياة يسير كالعادة، وإنما حدثت المعجزة له فقط ولما معه من متاع، ولذلك فإنه وجد بيت المقدس، بعد كل هذه المدة، وبعد خرابها وخلوها من الساكنين.. وجدها مدينة عامرة.

قالوا: وعُمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته، وتكامل ساكنوها وتراجعت بنو إسرائيل إليها^(٢). يعني أن البلدة مكثت على ما هي عليه من الدمار والخراب والهجر سبعين عامًا بعد موت العزير، ثم دبت الحياة فيها ثلاثين عامًا،

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/٢٥٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/٢٥٦.

ثم بعثه الله ليراها بعد عشرات السنين وقد بنيت مساكنها ومتاجرها، وقد ازدحمت شوارعها ومزارعها، ويجلب إليها ومنها.

إنَّ من تطغيه المادة، ويؤمن بحواسه وعقله أكثر من إيمانه بما أنزله الله على رسوله ﷺ لا يكاد يصدق هذه القصة.

أما المؤمنون فيعلمون أنَّ الله على كل شيء قدير.

وأما الواقعة الخامسة فهي حين طلب إبراهيم الخليل من الله تعالى أن يريه إحياء الموتى عياناً، فاستجاب الله له كرامة له:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۗ قَالَ أُولَٰئِكَ تُؤْمِنُ ۗ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ۗ قَالَ فَاخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ذلك أنَّ الله تعالى أمره أن يأخذ أربعة من الطير مختلفة الأصناف، وأمره أن يذبهن ويقطعهن، قال ابن كثير: (فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبهن، ثم قطعهن، ورتف ريشهن، ومزقهن وخلط بعضهن في بعض، ثم جزأهن أجزاء، وجعل على كل جبل منهن جزءاً، قيل: أربعة أجبل. وقيل: سبعة. قال ابن عباس: وأخذ رؤوسهن بيده، ثم أمره الله عز وجل، أن يدعوهن، فدعاهن كما أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حده، وأتينه يمشين سعياً، ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألتها، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام، فإذا قدّم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جثته بحول الله وقوته؛ ولهذا قال: واعلم أنَّ الله عزيز حكيم. أي

عزيزٌ لا يغلبه شيء، ولا يمتنع منه شيء، وما شاء كان بلا ممانع، لأنه العظيم القاهر لكل شيء، حكيمٌ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره^(١).

إن هذه والله العظيم لعبرٌ لمن يعتبر، تدل على صحة البعث يوم القيامة، وقدرة الله على الإحياء والإماتة، وهي ركن من أركان الإيمان، إذ لا يصح إيمان عبد حتى يعلم أن الله يحيي الموتى، ليحاسبهم على أعمالهم ويجازيهم بها، وهذا ما ينبغي التذكير به على الدوام، لأنه الدواء الناجع لأدواء الغفلة وأمراض الشهوة والإعراض عن الله تعالى.

لا عجب! فإنك تجد في أواخر سورة البقرة آية؛ قال بعضهم: إنها آخر ما نزل من القرآن^(٢):

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾
[البقرة: ٢٨١].

ومرد الإيمان بقوة الإحياء هو الإيمان بقدرة الله على كل شيء، وهو الأمر الآخر في مسألة الإيمان بالله العلي العظيم، بعد الإيمان بقوة الإحياء. فالله قادر على كل شيء، قاهر فوق كل شيء، هذا هو الأمر الآخر الذي جاء مفصلاً في سورة البقرة للتعريف بالله تعالى.

ولذلك جاء في القراءة الأخرى لآية عزير الأمر بالعلم بقدرة الله تعالى: واعلم أن الله على كل شيء قدير.

اعلم أيها الإنسان المتذاكي أن الله قادر على أن يحيي العظام وهي رميم.

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٥٨.

(٢) البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٠٩.

وَأَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْبَلْدَةَ الْخَرَابَ، وَإِنْ بَقِيَتْ عَلَىٰ هَذَا الْحَالِ عَشْرَاتِ
السِّنِينَ، وَأَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ كُلَّ الْكَائِنَاتِ؛ فَهُوَ الَّذِي خَلَقَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَلَا
يَعْجِزُهُ شَيْءٌ مُطْلَقًا، وَلَا يَعْسُرُ عَلَيْهِ تَقْلِيلُ الْأَحْوَالِ.

وَأَعْلَمُ أَيْضًا أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْأَرْضَ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بَعْدَ أَنْ عَمَّهَا
التَّيَهُ وَالضَّلَالُ.

وَحَقًّا كَانَ.

فلقد كانت هجرة أولئك الأبطال من مكة إلى المدينة والتنامهم مع الأنصار بعثًا
حقيقيًّا، فانبثق النور في العالم، ونُفخت الروح في الناس، وقامت الحضارات من
جديد على إثر هذه الدعوة الناشئة، بعد أن أدركها الهرم في فارس وبيزنطة واليونان
وروما والعراق ومصر.

لعل هذه إحدى الإشارات التي بعثت التفاؤل، من قصة عزيز وبيت المقدس.

لكن مسألة القدرة - أعني قدرة الله الباهرة - والاعتناء بها في سورة البقرة
واضح جدًا، وفي ذلك تعريفٌ بشيء من صفات الله العظيمة والكاملة، حتى
لا يختلط مفهوم الإله الناقص لدى مشركي العرب وأهل الكتاب بمفهوم الإله
الصحيح الذي علمناه الله تعالى، إذ يعتور مفهوم الإله لديهم القصور والضعف.

أما الله سبحانه فليس له مثيل ولا شبيه، هو فوق ذلك كله، ومن صفاته العظيمة
ذات الدلالات والآثار الكبرى: قدرته سبحانه على كل شيء.

وإضافة إلى قصة عزيز وبيت المقدس، فإن مسألة إحياء الموتى المتكررة دليل
واضح على قدرة الله تعالى، التي لا يستطيع البشر أن يعرفوا لها منتهى.

ومن ذلك قدرته تعالى على الخلق والإيجاد من العدم، إذ خلق السماء
والأرض والبحار والجبال والملائكة والناس والشياطين والحيوانات والطيور

والنباتات والفيروسات والطفيليات والذرة ونواة الذرة، وما نعلم وما لا نعلم، وكل هذا مما لا يمكن أن يوجد إلا وله مُوجد خالق قادر قوي، وهو الله تبارك وتعالى.

والله تعالى في سورة البقرة كرر الحديث عن خلقه للكون الكبير، بكل ما فيه:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

وأنتم تعلمون!

وأنتم تعلمون أن أولئك الذين تسبغون عليهم شيئاً من الألوهية أو بعضاً من صفات الله تعالى إنما هم مخلوقون، وأن الله هو الخالق الفاعل، فكيف تفعلون ذلك وأنتم تعلمون؟!

وهذا مقتضى فهم المؤمن لمسألة الخلق، فإنها تفضي به إلى الإيمان، لأن الذي خلق الكون هو أعلم بما يصلحه، ولأن الذي خلق الإنسان هو أعلم بما يصلحه، ولا يصلحه إلا الإيمان بالله تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وتوحيد العبادة له:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٩].

فكما أنه خلق كل شيء، فهو عليم بكل شيء خلقه؛ ولا بد. فافهم هذه العلاقة وما تقتضيه، لأنك إذا فهمتها؛ عرفت قدر الله تعالى، وأن كل شيء في هذا الكون خلقه الله وقدره، لحكمة يعلمها.

لقد حكى لنا سورة البقرة أن الله تعالى حين خلق آدم، وأراد أن يجعله في الأرض خليفة استفهمت الملائكة عن الحكمة من ذلك:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

قال ابن كثير: (وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربنا، ما الحكمة في خلق هؤلاء، مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، ولا يصدرُ منا شيء من ذلك، وهلَّا وقع الاقتصار علينا؟ قال الله تعالى مجيباً لهم عن هذا السؤال: إني أعلم ما لا تعلمون. أي: إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أتم؛ فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد فيهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء العاملون والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالى، المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم)^(١).

وهذا الخلق ملك الله سبحانه الذي خلقه، فهو يتصرف فيه بما يشاء متى يشاء، ويدبر أمور الخلائق كلها صغيرها وكبيرها، جليلها ودقيقها، بكل انتظام وحكمة، وسورة البقرة تذكر بهذا:

﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٠٦-١٠٧].

فهو القادر على كل شيء خلقه، وهو المالك له، وله الحكمة في كل تدبيره.

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٢٦/١.

لقد كان مُلك النمرود محفَظاً له على الكفر، على ما أصاب قلبه من الجحود والنكران، فحجَّه إبراهيم عليه السلام بأنَّ الله قادر على الإحياء والإماتة، لكنه عبثاً قال: أنا أحيي وأميت! أحيي بأن أعفو عمن استحق القتل، وأميت بأن أقتل من أشاء. وهي - كما ترى - دعوى باردة! ميتة لا روح فيها.

لكن النفس إذا جحدت فضل الله عليها ونسيت قدرته عليها، واستندت إلى المادة فإنها تصل إلى هذه الدرجة المتدنية في الجدل والمحااجة. فقال له إبراهيم، مستدلاً على القدرة الحقيقية لله تعالى بتسيير نظام الكون، متحدياً له:

يا أيها الملك؛ اجعل الشمس تشرق من المغرب.

يا أيها الملك؛ إن كنت تزعم أنك تقدر على كل شيء فغير شيئاً واحداً من نظام الكون، لا أريد منك سوى أنه إذا غربت الشمس من هنا؛ أن توقفها وتجعلها تعود من ذلك المغرب.

في واقع الأمر أن الملك حين قدر على إصدار أمر القتل والعفو عمن استحق القتل؛ رأى لنفسه القدرة على الإحياء والإماتة، وخالطه شعور الربوبية، هذه هي الحقيقة، لكن مسألة تحدي القدرة على إحداث شيء في نظام الكون المحكم دوَّخت رأسه.

فبهت الملك الكافر.

وبان له أن ملكه وهم، لأنه لم يخلقه أصلاً، وأنَّ الحقيقة هي أنه لا يملك الشيء حقاً إلا من خلقه، وهو الله سبحانه:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ
الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ
فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

والله تعالى يأمر الإنسان بأن يتفكر في هذا الخلق، التفكر الذي يفضي به إلى
الانطراح في محراب العبودية والتقديس:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ
الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١١١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ
فَقَدْ أَخْرَبْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿١١٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَنِ أَنْ
ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ
﴿١١٣﴾ رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾
[آل عمران: ١٩٠-١٩٤].

﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١١٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ
مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ
الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١١٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ
اللَّهِ أَنْدَادًا يُجَاهِدُونَ كَمَا جَاهَدَ اللَّهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ
الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ [البقرة: ١٦٣-١٦٥].

تدبرها جيداً.

قال ابن كثير: (ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية بتفرده بخلق السموات
والأرض وما فيهما، وما بين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته،

فقال: إنَّ في خلق السماوات والأرض، تلك في لطافتها وارتفاعها واتساعها وكواكبها السيارة والثواب ودوران فلکها، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع.

واختلاف الليل والنهار؛ هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخر عنه لحظة، وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان.

وتسخير البحر لحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس، والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء وما عند أولئك إلى هؤلاء.

وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها.

وبث في الأرض من كل دابة، على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه، لا يخفى عليه من ذلك شيء.

وتصريف الرياح؛ فتارة تأتي بالرحمة، وتارة تأتي بالعذاب، تارة تأتي بمبشرة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه، وتارة تجمععه، وتارة تفرقه، وتارة تصرفه، ثم تارة تأتي من الجنوب وهي الشامية، وتارة تأتي من ناحية اليمن، وتارة صبا وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة، وتارة دبور وهي غربية تنفذ من ناحية دبر الكعبة.

والسحاب السائر بين السماء والأرض، يسخر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن، كما يصرفه تعالى.

إنَّ في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى^(١).

الذي لا يرى هذه القدرة الباهرة كيف يعرف الله تعالى، بل كيف يوحد
ويعبده؟!!

(١) باختصار: تفسير القرآن العظيم ٢/٢٩.

وحضارة اليوم لا تُري الناس إلا آيات الإنسان وقدراته في الصناعة والإنتاج والتغلب، فغابت عن الناس كثير من آيات الله تعالى الكونية، وأتخذ الإنسان نداً لله! وحين ادعى مشركو العرب وأهل الكتاب أن لله ولداً، كان الرد عليهم بأنَّ القادر على خلق السماوات والأرض لا يمكن أن تكون من صفاته اتخاذ الولد، لأنها صفة مخلوق مفتقر لا خالق مالك:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْبُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١١٦-١١٧].

ومعالم قدرة الله في خلقه وملكه كثيرة في سورة البقرة، غير أنها ذكرت أمارات أخرى للقدرة الإلهية الباهرة، فهو سبحانه الذي فرق البحر لموسى!

وهو الذي نجى المستضعفين الإسرائيليين من فرعون وجيوشه وجنوده وقوته، وهو الذي أغرق ذلك الجبار العنيد وجنوده في البحر، في مشهد عظيم وحدث تاريخي تعرفه الأمم:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُم سُوءَ الْعَذَابِ يَذَّبُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُم الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة: ٤٩-٥٠].

والله تعالى هو الذي فجر اثنتي عشرة عيناً لبني إسرائيل، بضربة من عصا موسى عليه السلام، على حجر متنقل يحمله بنو إسرائيل معهم، في حادثة متكررة:

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَا عَشَرَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُّوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة: ٦٠].

والله تعالى هو الذي اقتلع جبل الطور، ورفع فوق بني إسرائيل، وشاهدوه بأعينهم كأنه الظلة:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

والله تعالى هو الذي أحال المعتدين في السبت من بني إسرائيل قرده، بعد أن كانوا بشرًا أسوياء:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦].

والله تعالى هو الذي نصر الفئة المؤمنة القليلة الضعيفة من بني إسرائيل بقيادة طالوت، على الجيش العظيم الذي يقوده جالوت، لأنها قوة الله التي لا يغالبها العدد ولا العناد:

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٤٩-٢٥١].

فهزموهم بإذن الله.

وهنا إشارة للمؤمنين بأن النصر لا يكون إلا من عند الله، وإنكم ربما تواجهون من لا تملكون لهم قوة مادية كافية، ولكنكم بإيمانكم بقوة الله، وأنه قادر على كل شيء ستنتصرون، فعليكم الثبات والصبر وانتظار النصر من الله القوي العزيز:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْمِلِينَ أَسَاءَ
وَالضَّرَّاءَ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾
[البقرة: ٢١٤].

إنَّ الناس لا يملكون لكم ضرراً مهما استقووا، حتى الضر الذي يلحقكم منهم؛
إنما هو بأمر الله وحكمته:

﴿ وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وحتى على مستوى الإنتاج والإنجاز؛ فإن شيئاً لن يحدث ما لم يأذن الله به،
وأنَّ ما حكم الله عليه بالريح أو بالخسارة فلن يكون إلا كما حكم الله به عليه:

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

حتمٌ لازم. لأنه خالق كل شيء، فهو القادر أيضاً على كل شيء.

ألا ترى أن سورة البقرة، من مبتدئها إلى منتهاها، تنبئ على هذه الحقائق؟

ألا ترى أنها في مقدمتها قالت:

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ [البقرة: ٢٢].

وفي منتهاها قالت:

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَسِبْكُمْ
بِهِ اللَّهُ فَیَعْفِرْ لِمَنْ یَشَاءُ وَیُعَذِّبْ مَنْ یَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلٰی كُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

واليقين بقدرة الله الباهرة على كل شيء هو لبُّ الإيمان بالقدر، الركن الكبير
من أركان الإيمان، وبهذا اليقين تزول اضطرابات القدر التي تنهش نفوس البعض،
قال الإمام أحمد: (القدرُ قُدرةُ الله) (١).

(١) شفاء العليل ١/ ٩٧.

جاءت سورة البقرة لتعطي تعريفاً صحيحاً بالله تعالى، تعريفاً لا يتفق مع التعريف الوثني ولا التعريف اليهودي ولا التعريف النصراني لمعنى الإله الحق المستحق للعبودية، والذي نقدته سورة البقرة -وآل عمران أيضاً- في الكثير من الآيات.

وتوجت هذا التعريف الصحيح بأعظم آية فيها، بل في القرآن كله، وهي آية الكرسي، التي عظمت بما فيها من تعريف بالله العلي العظيم:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

إله لا يمكن أن يموت أو ينام أو يعجز أو ينسى أو يضعف أو يفتر.

إله خلق السماوات والأرض، وملكهما وحكمهما ودبر أمرهما وأمر ما فيهما ومن فيهما، وحفظهما من الزوال والسقوط والخراب والاضطراب، بلا تعب.

إله يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف سيكون.

إله يبعث الناس يوم القيامة فيحاسبهم ويجازيهم بأعمالهم، ويبلغ الناس من خضوعهم وذلتهم ما لا يجروون معه ولا يملكون أن يتقدموا بشفاعاتهم إلا بعد إذنه.

إله بلغت عظمته إلى أن يصف كرسيه بأنه وسع السماوات والأرض، فما هما فيه إلا كالحلقة الملقاة في فلاة من الأرض!

إنه الإله العلي العظيم.

أعد قراءة سورة البقرة، واستحضر هذا المعنى التوحيدي الكبير في قراءتها،
وانظر هل سيختلف الحال؟ أم سيبقى كما هو؟
وتعرف على الله تعالى من خلال سورة البقرة.
رزقنا الله وإياك حلاوة الإيمان وبرد اليقين.

امتحان العقل والإيمان

أول صفة وصف الله بها المتقين عمومًا - والمهاجرين والأنصار خصوصًا - في كتابه هي إيمانهم بالغيب، أي يعترفون به أو يثقون بأنه حق^(١):

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴿٣﴾﴾ [البقرة: ٢-٣].

قال ابن كثير: (وأما الغيب المراد ههنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه، وكلها صحيحة، ترجع إلى أن الجميع مراد، قال أبو العالية: يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث، فهذا غيب كله. وكذا قال قتادة بن دعامة.

وقال بعض الصحابة منهم ابن عباس وابن مسعود: أما الغيب فما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار وما ذكر في القرآن^(٢).

وهي أمور يتردد في تصديقها الذين يقدسون المادة ويؤلّهون العقل.

هم لا يقولون إنَّ العقل إله. ولكنهم يحاكمون كل شيء إليه، فما قبله العقل قبلوه، وما لم يقبله العقل رفضوه، وهذه هو تأليه العقل، لأنه - بهذه الصورة - قد جعل في منزلة الإله الحاكم، وفي منزلة نصوص الوحي المعصومة، وذلك اعتداء على الله تعالى، لقد أنساهم الشيطان أن الله تعالى هو الذي أعطاهم العلم؛ بل القليل من العلم:

(١) مفاتيح الغيب ٢/٢٥.

(٢) بتصرف: تفسير القرآن العظيم ١/٢٥٧.

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١].

وهو الذي قال للملائكة:

﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

وهو الذي أجابته الملائكة بقولها:

﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢].

وعلى أي حال؛ فكل ما ذكره السلف والمفسرون من تفسير معنى الغيب فهو موجود في سورة البقرة، فإذا علمت أنها من أوائل ما نزل بالمدينة، ولا يزال الإسلام طرئاً بعد، ولا يزال الناس حديثي عهد بدين جديد، ثم تحشد هذه السورة كل هذا الحشد من الغيوب التي لا تدركها الأبصار والعقول، فإنك توقن أن امتحان الإيمان كان عظيمًا، وفي الوقت ذاته تدرك فضل المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ، إذ لم ينهزموا أمام المحاكمات العقلية، ولم ينقادوا لما أنتجت أفكارهم ومعارفهم.

هل استوقفك التشابه بين فواتح سورة البقرة وخواتمها؟

أولها يخبر عن حقيقة الإيمان وأنه الإيمان بالغيب، وآخرها يشي على الذين آمنوا بهذا الغيب، فتأمل:

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا
أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ٣-٤].

﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ
وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّ بَيْنَ أَيْدِي رَسُولِهِ ءَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ءَعُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ
الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ومن الغيب هذا القرآن العظيم^(١)، فالإيمان بأنه نزل من عند الله إيمانٌ بالغيب:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

يضلهم امتحانًا وابتلاء:

﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [البقرة: ٤١].

ومن الغيب بدء الخلق، وما فيه من أخبار:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٩) ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٢٩-٣٠].

وما بعدها من آيات..

فقصة بدء الخليقة وتكوين السماء والأرض، وخلق آدم والشيطان والملائكة، ودخول آدم الجنة وتزويجه وخروجه منها أحداث غيبية نؤمن بصدق وقوعها، لا لأننا شهدناها، بل لأننا نؤمن بالغيب.

ومن الغيب الإخبار عن تاريخ الرسل؛ موسى وعيسى وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وسليمان، وسائر الكوكبة المباركة، ونبينا محمد صلى وسلم الله عليهم جميعًا.

(١) جامع البيان ١/٢٤٢.

هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ
الْحَكِيمُ ﴿[البقرة: ٣٠-٣٢].

وأخبرنا الله بأسماء أعظم ملائكته:

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ
لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

ومن الغيب اليوم الآخر وما فيه من أحداث متنوعة وجزاء للمؤمنين والكافرين:

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ مِمَّا يَتَّبِعُونَ﴾ [البقرة: ٤]

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ
﴿٢٤﴾ وَيَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ
فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٤-٢٥].

وأعظم غيب هو رب العزة سبحانه، والسورة تحدثت عن أسمائه وصفاته في
الكثير من الآيات، وتحدثت عن أدلة ربوبيته وألوهيته كذلك، كما سبق الحديث عنه.
ومن الغيب: الشيطان، فقد عرفت به السورة، وحذرت من سلوك سبيله واتباع
إغوائاته.

﴿قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ
وَإِذْ ﴿[البقرة: ٣٤].

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

قال السعدي: (وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه
لا يتميز بها المسلم من الكافر.

إنما الشأن في الإيمان بالغيب الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به لخبر الله وخبر رسوله، فهذا الإيمان الذي يُميِّز به المسلم من الكافر، لأنه تصديق مجردٌ لله ورسوله.

فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به أو أخبر به رسوله، سواء شاهده أو لم يشاهده، وسواء فهمه وعقله أو لم يهتد إليه عقله وفهمه، بخلاف الزنادقة المكذبين بالأمور الغيبية، لأنَّ عقولهم القاصرة المقصّرة لم تهتد إليها؛ فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ففسدت عقولهم، ومرّجت أحلامهم. وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله^(١).

إذا فالإيمان بالغيب من المقاصد الكبرى لسورة البقرة، والتربية القرآنية تمد أفق المؤمن وتوسع إدراكه فتجعل عالمه أوسع من محسوساته، وتجعل تاريخه أكبر من عمره.

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٣٥.

الطاعة المطلقة

من أهم الموضوعات التي تُنتهها سورة البقرة: التسليم للنص والإذعان لأمر الله تعالى.

حقيقة الإيمان أن تُسلم قلبك لله ولرسوله، أي تجعله تحت أمر الوحي ونصوص القرآن والسنة وتوجيهها وإرشادها، فلا تفعل شيئاً إلا بدليل - كما يعبر السلف بذلك أحياناً- ولا تسير في حياتك إلا بإرشاد النصوص، وأن توقن أنها هداية مطلقة وصواب مطلق ورشاد مطلق، وأن تجعلها حاکمة على أفكارك وتصوراتك وسلوكك وعلاقاتك، وأن تكون مصدر تقويمك لكل شيء: الأفكار والمقالات والناس والكيانات والأعمال والأحداث والمواقف والتصورات، وأن تخضع لله ولأمره ولدينه وكتابته ولرسوله ﷺ.

والخضوع - كما ترى- معنى يحمل في طياته الذل والاستخاء وانحناء الجسد وتطامن الرأس لهذا الذي تخضع له، وميل الرقبة على هيئة الذليل المترقب والمسكين الذي يشعر بافتقاره وحاجته لذلك الذي يخضع له، وهو هنا كلام الله تعالى وقرآنه ووحيه.

تلك حقيقة الإسلام وروح الإيمان وفرقان العبودية.

عن أبي هريرة قال: (لما نزلت على رسول الله ﷺ:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله! كُلفنا من الأعمال ما نطيق؛ الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

فلما اقترأها القوم، دلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها:

﴿ءَا مَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَا مَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفِرُ بَيْنَ يَدَيْكَ أَحَدٌ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: نعم. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَيَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال: نعم. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: نعم. ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: نعم^(١).

فتأمل أيها المبارك!

كيف فهم أصحاب النبي ﷺ الآية الأولى!

وكيف اشتد عليهم ذلك!

(١) أخرجه مسلم ١/١١٥، ح ١٢٥.

وتخيل مشهد البروك جماعة على الركب في حضرة النبي ﷺ!

وتأمل تلك المشاعر المرعوبة من هول التكليف؛ إذ لا مناص من التسليم به!

وتأمل رد النبي ﷺ عليهم: (أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير). فالنبي ﷺ يحذرهم هنا من الانصراف عن التسليم للنص كما انصرف أهل الكتاب من قبل، ويرببهم على أن الواجب هو السمع والطاعة والتسليم حتى فيما لا تعقل حكمته وما لا تطيقه النفوس، ولم يحذرهم من الخطرات والوساوس التي نزلت بشأنها الآية. في حقيقة الأمر أن ذلك هو مقتضى كون القرآن كتاب هداية، مقتضى قول الله في أول سورة البقرة:

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَارِيبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

فلا يهتدي به إلا من أذعن له وخضع لكلماته، كحال إبراهيم عليه السلام:

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٥].

فهو النموذج الأروع للتسليم لكلمات الله وتوجيهاتها، وقد أخبر الله عنه أنه أتم ما فيها من العلم والعمل، قال الطبري: (وإتمامه إياهن إكمالها إياهن بالقيام لله بما أوجب عليه فيهن)^(١)، وقال ابن كثير: (قام بهن كلهن)^(٢).

وأخبر الله عن مسارعه في الاستجابة فقال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

(١) جامع البيان ٢/٥٠٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/٥٩٥.

فبمجرد الأمر بأن يسلم أسلم، قال ابن عاشور: (بادر بالفور دون تريث)^(١). لا يوجد وقت للنظر في حكمة التشريع، ولا توجد سعة لتتبع الأقوال في المسألة، ناهيك بتتبع الرخص ومحاولة الالتفاف على النصوص.

إنها الطاعة المطلقة لأمر الله.

وهذا مقتضى قول الله تعالى:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١].

قال ابن مسعود: (أن يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويقراه كما أنزل، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئاً غير تأويله). وفي لفظ: (يتبعونه حق اتباعه). وبنحوه روي عن ابن عباس والنخعي ومجاهد وعكرمة وعطاء^(٢).

وكما بينت سورة البقرة - في باكورة تنشئة الأمة المسلمة الجديدة - الواجب عليها تجاه النص الإلهي والأمر الرباني، وكما ذكرت لنا نموذج إبراهيم في الطاعة له وإتمامه الكلمات، بينت أيضاً حال بني إسرائيل تجاهها، وعلمتنا كيف انحرفوا عن هذه السبيل، محذرة هذه الأمة من سلوك طريقهم الذي لا يؤدي إلى الهداية والرشاد:

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

في سورة البقرة بيان وافٍ لما كان عليه المغضوب عليهم، فإنهم كانوا:

﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

[البقرة: ٧٥].

(١) التحرير والتنوير ١/ ٧٢٧.

(٢) انظر الآثار في: موسوعة التفسير المأثور ٢/ ٧١١.

تأمل!

يسمعونه! لقد عرفوه وفهموه، ولكنهم لغرض ما حرفوا المعنى وأولوا النص متعمدين.

وحين تحايل أهل أيلة -المحتلة والواقعة شمال خليج العقبة- على النهي عن الصيد يوم السبت؛ قاموا بنصب شباكهم يوم الجمعة وأخذوا ما فيها يوم الأحد، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦].

إنه تحذير من سلوك كهذا؛ يفضي بصاحبه إلى هذا التهديد والوعيد.

وحين أمرهم موسى عليه السلام بذبح بقرة -هكذا: أي بقرة!- تعنتوا وسألوا في كل مرة عن تفاصيل لم يكلفوا بها:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَنْتَذْبَحُهَا وَهِيَ غَيْرُهَا قَالِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَهُ شَرِكٌ وَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: ٦٧-٦٨].
﴿قَالُوا أَدْعُ لِنَارِكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [البقرة: ٦٨-٦٩].
﴿قَالُوا لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقْعُ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [البقرة: ٦٩-٧٠].
﴿قَالُوا أَدْعُ لِنَارِكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [البقرة: ٧٠-٧١].
﴿قَالُوا لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُوشُ ثِيرُ الْأَرْضِ وَلَا تَسْقَى الْحَرْثَ مُسَلَّمَةً لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا لَكِن جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبِّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة: ٧١-٧٢].

بعد كل هذا التعنت ترددوا في ذبحها!

هذا السلوك هو الذي حرصت سورة البقرة على أن تحذّر أصحاب النبي ﷺ منه وهم بعد في أول بنائهم للأمة الجديدة في المدينة، وحياتهم الإيمانية الجديدة.

وحين أمر الله تعالى بني إسرائيل أن يدخلوا بيت المقدس فاتحين خاضعين خاشعين مستغفرين؛ لم يعجبهم ذلك فعصوا الأمر ودخلوا ساخرين متكبرين مستهزئين، وبدلوا قولاً غير الذي أمرهم الله، وعملاً غير الذي أراده الله؛ استخفافاً بكلامه:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ^{٥٨} وَسَزَيِّدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: ٥٨-٥٩].

والآيات في سورة البقرة التي تتحدث عن الاتجاه السلبي لبني إسرائيل مع نصوص الكتاب كثيرة، إذا تدبرتموها يا أهل القرآن.

التسليم للنص هو مقتضى قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿وَلَا تَنْخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١].

أي لا تتلاعبوا بالأحكام التي جاءت بها النصوص الشرعية. بل التزموا ما فيها وأتموها، وإياكم وتأويلها وفق أهوائكم.

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم في ذروة السمع والطاعة لكلام الله ورسوله، ومن الأمثلة المشهورة على ذلك صبرهم على مشقة الصيام ابتداءً من أحد الوقتين؛ إما من صلاة العشاء وإما حين النوم في الليل قبل صلاة العشاء، ويمتد الصيام إلى غروب الشمس^(١)، وذلك قبل نسخه وتغيير وقته إلى الابتداء من الفجر إلى غروب الشمس:

(١) تفسير القرآن العظيم ٦٨/٢.

﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ ارْفَعُوا رُفَاتِكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ۖ فَالْآنَ بَشِّرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْإِيلِ ۗ وَلَا تَبَشِّرُوهُنَّ ۖ وَأَنْتُمْ عَنْكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿ [البقرة: ١٨٧].

وإن من صوارف التسليم لكلام الله ورسوله، التي ذكرتها سورة البقرة، سلطة المتبوعين:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا لَنَا كَرَّةً فَنَتَّبِعَ اللَّهُ مِنْهُمْ لَمَا كُنَّا وَهَّاءٌ مُّسْتَمْسِكِينَ ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧].

هذا جزاء الذين صدتهم سلطة المتبوع عن طاعة الله المطلقة، لذلك قال السعدي عن هؤلاء التابعين الذين رضخوا لسلطة المتبوعين؛ والذين تعلقوا بهم ورجوهم وخافوهم وأحبوهم: (الذنب ذنبهم)^(١)، أي أن هؤلاء التابعين يستحقون العذاب جزاءً على عملهم، فإن كل إنسان مجزي بعمله، وليس له عذر في كونه يقع تحت سلطة متبوع ما، أيًا كان موقعه ومكانته وقوته.

إنها تربية على المسؤولية الفردية تجاه النصوص، وتجاه أمر الله تعالى ورسوله ﷺ.

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ١٢٣.

وإنَّ من صوارف التسليم لكلام الله ورسوله إغواء الشيطان وتزيينه للباطل، كما فعل مع آدم في قصة أكل الشجرة التي نهى عن أكلها، ولذلك أمر الله تعالى بالحدز من السير في الطريق الذي يحدثه الشيطان:

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨-١٦٩].

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨]

الشيطان يزين للإنسان مخالفة أمر الله، ويجعلها في نظره أصلح حالاً وأحسن عاقبة، ويقبح في تصوره مآل طاعة الله في هذا الأمر، فيوحي إليه أن طاعة الله في ذلك ربما تسببت في فقره، أو عرضته لغضب السلطان، أو أخسرت الصفقة التجارية، أو تسببت في فقد مكانته الاجتماعية، أو نفرت الناس منه وصرفت الجماهير عنه، وبنحو ذلك يوحي فيقول: إنَّ الربا ضرورة معيشية، وإنَّ الاختلاط يزيد في الناتج القومي، وإنَّ صلاة الجماعة تعثر الحركة التجارية، ونحو ذلك.

هذا ونحوه الذي حذر الله تعالى منه أن يكون صارفاً عن الطاعة المطلقة لأمر الله، حتى لو أثبتت «الدراسات الحديثة» غير ذلك.

وإنَّ من صوارف التسليم لكلام الله تعالى ورسوله ﷺ التي ذكرتها سورة البقرة على سبيل التحذير منها، سلطة الأعراف والتقاليد والعادات الاجتماعية:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ءَأُولُو كُنَّا ءَأَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

فهم يجعلون للأعراف والتقاليد والقوانين سلطة مضاهية لسلطة الوحي.

ومن صوارف التسليم لكلام الله تعالى ورسوله ﷺ التي حذرت منها السورة ضمناً، الاحتجاجُ بالعقل في مقابلة النص، وذلك حين أورد البعض شبهة مفادها أن البيع مماثل للربا في الحيثية، وأنَّ شريعة الإسلام تناقضت في التفريق بينهما في الحكم، فبيّن الله تعالى أنَّ البيع حلال وأنَّ الربا حرام؛ دون أن يذكر الفرق بين ماهية البيع وماهية الربا الموجبتين للفرق بينهما، مع كونهما يختلفان في الماهية:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

تربية على التزام النص، حتى عند ورود الشبهات!

قال ابن عاشور: (هو إعراض عن مجادلتهم، إذ لا جدوى فيها، لأنهم قالوا ذلك كفرًا ونفاقًا، فليسوا ممن تشملهم أحكام الإسلام. وهو إقناع للمسلمين بأن ما قاله الكفار هو شبهة محضة، وأنَّ الله العليم قد حرّم هذا وأباح ذاك، وليس في هذا الجواب كشف للشبهة)^(١).

فلاحظ أن الآية تربي المؤمن على التزام النص؛ حتى وإن لم يدرك الحكمة

منه.

وأشارت السورة إلى أن هذه المسألة - أعني التسليم لكلام الله تعالى ورسوله ﷺ - تأتي على رأس مقاصد التشريع، وهذه هي حقيقة الإسلام؛ أن تدعّن وتستسلم لحكم الله وأمره، فقال تعالى في قصة تحويل القبلة:

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣].

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٨٤.

قال السعدي: (أي شرعنا تلك القبلة لنعلم ونمتحن من يتبع الرسول ويؤمن به، فيتبعه على كل حال لأنه عبد مأمور)^(١).

فكان أصحاب النبي ﷺ في أعلى درجات التسليم، وقصتهم معروفة إذ جاءهم خبر التحويل في أثناء الصلاة، فتحولوا وهم يصلون!

فهل تصدق؟

لم يتعللوا بإتمام الصلاة فيؤخروا التحويل.

وهي صورة مدهشة لمن تأملها، تدل على تحقق التربية القرآنية في نفوسهم.

تالله لقد صنع القرآن نفوسًا متفردة!

وسأورد لك أثرين أخرجهما البغوي في تفسيره^(٢) بينان ذلك:

عن البراء رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده، أو قال أخواله من الأنصار، وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت؛ وأن أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن صلى معه فمر على أهل مسجد قباء وهم راكعون، فقال: «أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل مكة».

فداروا كما هم قبل البيت.

وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قبل المقدس لأنه قبله أهل الكتاب، فلما ولَّى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك.

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/١٠٣.

(٢) معالم التنزيل ١/١١٧.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: بينا الناس بقاء، في صلاة الصبح،
إذ جاءهم آتٍ، وقال لهم:

«إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة
فاستقبلوها».

وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة.

لهذا المقصد الكبير جاءت آيات من مثل قوله تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ
أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فالقتال مكتوب وإن كان مكروهاً.

ولذلك قرر الشاطبي في أول مسألة في «بيان قصد الشارع في دخول المكلف
تحت أحكام الشريعة» أن المقصد الشرعي من وضع الشريعة: إخراج المكلف عن
داعية هواه، حتى يكون عبداً لله اختياراً كما هو عبد لله اضطراراً^(١).

وبعد هذا كله امتحن الله المؤمنين وابتلاهم بنزول الأحكام الشرعية ليدعونا
لما فيها ويخضعوا لتوجيهاتها.

والأمة اليوم تواجه امتحاناً في الوصول إلى هذه القناعة، امتحاناً صعباً للغاية،
في ظل الهيمنة الأجنبية على الحضارة والانتفاش الغربي للعلوم والمعارف وتعدد
المرجعيات، تواجه امتحان العبودية في القرن الخامس عشر، والذي يكمن في
الإذعان للنص والتسليم لأحكامه، والرضا بتوجيهه، والاقتران بهداياته؛ وإن خالف
العقل و«العلم الحديث».

(١) الموافقات ٢/٢٨٩.

وإذا كانت الأمة المسلمة اليوم متخلفة في المجالات التصنيعية والاقتصادية والعسكرية، فإنها أشد تخلفاً في تمسكها بهدايات الوحي وإرشاداته، وإنها لن تستطيع منافسة الأمم وهي مُعرضة عن حبل النجاة الممدود بين السماء والأرض، عن الوحي الذي يصلنا بالله تعالى، القادر على كل شيء والقاهر فوق كل شيء.

هذا أحد أهم منطلقات النهوض: الثقة المطلقة بالوحي والإذعان غير المشروط لإرشاده وهداياته.

فتأمل هذه المسألة وأنت تتلو سورة البقرة، وقل بلسانك وبقلبك أيضاً مثلما قال أصحاب النبي ﷺ: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

هذا الوصف لحالة المؤمنين الإذعانية تجاه الوحي مسبوق في العرض القرآني بوصف الذين غضب الله عليهم من بني إسرائيل، الذين وجههم أنبيأؤهم إلى الاستسلام لوحي الله تعالى؛ فكان لهم موقف مغاير:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣].

والبغوي - وغيره من أهل التفسير - يشيرون إلى كون هذا القول تعبيراً عن حالة مسلكية لدى القوم، فيقول: (قال أهل المعاني: إنهم لم يقولوا هذا بألستهم ولكن لما سمعوه وتلقوه بالعصيان، فنُسب ذلك إلى القول اتساعاً)^(١).

وهذه الحال أودت ببني إسرائيل في مهاوي التيه والضلال، وألقت بهم في

(١) معالم التنزيل ١/ ٧٧.

سفوح الخسائر الحضارية، لقد أصبح اليهود بعد رفضهم القلبي للوحي واعتدادهم
بذواتهم نشازاً بين الأمم، أصبحوا حواشي في متون الحضارات والدول، وقد كانوا
من قبل ذلك متربعين على عرش الاصطفاء والتكريم.

الأمانى والعمل

من كبرى القضايا التي ناقشتها سورة البقرة: معنى الإيمان.

ما هو؟

وما موقف الناس منه؟

وأيّن يوجد الصواب في هذه المواقف؟

ذلك أنّ سورة البقرة تحدثت عن الإيمان عند المنافقين وأهل الكتاب والمشركين والملائكة وآدم والشيطان.

وبينت السورة حقيقة الإيمان الذي يريده الله تعالى، وبه يدخل العبد الجنة، وبه ينجو من النار.

تأمل معي قول الله تعالى في بداية السورة:

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة: ٢-٥].

ستجد أنّ الله تعالى لم يجعل الإيمان محصوراً في تصديق القلب؛ المتمثل في الإيمان بالغيب والإيمان بالكتب واليوم الآخر، بل قرنه الله تعالى بالأعمال، مثل إقامة الصلاة والإنفاق، بل ستجد أنّ هذه الأعمال موضوعة في وسط أعمال القلب الإيمانية، بين الإيمان بالغيب والإيمان بما أنزل، ثم عقب الله تعالى على ذلك بأنّ

الذين تتحقق فيهم الصفتان؛ أعني تصديق القلب وعمل الجوارح، هم المهتدون وهم الذين يفلحون في الدنيا والآخرة.

والتفريط في هذه الحقيقة المركبة له وجهان:

الوجه الأول: وجود العمل وغياب التصديق بالقلب. وقد جعله الله تعالى استهزاء ولعباً ومخادعة وكذباً ورياءً.

وتحدثت الآيات عن طائفة من الناس يقولون: إنهم مؤمنون، ويصلون وينفقون وربما يجاهدون مع النبي ﷺ، لكنهم - في قرارة قلوبهم - مكذبون برسالة محمد ﷺ، لا يؤمنون به، ولا تخضع قلوبهم لشريعته، وإنما اضطرتهم الظروف للتظاهر بالإيمان؛ فهؤلاء هم المنافقون، وقد أخبر الله تعالى أنهم غير مؤمنين، لأنهم غير مصدقين، فالعمل والحالة هذه ليس إيماناً، ولا هو هدى، ولا يكون أهله من الناجين يوم القيامة:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

تأمل.. ينفي عنهم الإيمان.

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ٩ ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٩-١٠].

وهذه الحال لا تنفي عن المنافق جريان أحكام الدنيا عليه بوصفه مسلماً، فإن قول اللسان وعمل الجوارح يُجري على العبد أحكام المسلمين في الدنيا، والعبرة بظاهر الناس، ولا يؤاخذون بما تضره قلوبهم في أحكام الدنيا.

لكن ذلك لا ينجيه من عذاب الآخرة؛ لأنه لم يتحقق فيه معنى الإيمان، فالإيمان حقيقة مركبة من اعتقاد القلب وقول اللسان وعمل الجوارح، كما هو معلوم مشهور من أقوال الأئمة والعلماء، وكما هو عليه حال أصحاب النبي ﷺ وسلفنا الصالح.

ومدار الجزاء يوم القيامة على ذلك.

فإن الله تعالى لا يدخل الجنة إلا من جمع بين التصديق والعمل:

﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢].

الاثنان معاً.. إسلام الوجه لله وإحسان العمل، لذلك تعرض القرآن بالذم لمن يتصدق رياءً، فهو ينفق من ماله، ويقدم عملاً صالحاً، لكنه لم يصدر عن إيمان في القلب، ولم يكن الباعث له رجاء الأجر والمثوبة في الآخرة:

﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤].

قال ابن كثير: (وكذلك أعمال المرأئين تذهب وتضمحل عند الله، وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب)^(١).

والوجه الثاني للتفريط في حقيقة الإيمان يتمثل في التصديق بالقلب مع غياب العمل!

وإذا كان المنافقون والمرأون لم ينفعهم العمل لأنهم لم يقرؤا ولم يصدقوا بقلوبهم، ولم يبتغوا بأعمالهم وجه الله تعالى والدار الآخرة، فإن الله تعالى حكى عن قوم يعرفون جيداً أن محمداً رسول الله، لكنهم أبوا أن يتبعوه، وأبوا أن يعملوا بشريعته، فكانوا من أهل النار:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٦٣.

فهل المعرفة والتصديق بالقلب كافيان في الإيمان؟

تأمل هذا الحوار الذي دار بين عمر بن الخطاب وعبد الله بن سلام:

قال عمر: لقد أنزل الله على نبيه ﷺ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ
أَبْنَاءَهُمْ ﷻ. فكيف - يا عبد الله - هذه المعرفة؟

فقال عبد الله: يا عمر، لقد عرفته فيكم حين رأيته، كما أعرف ابني إذا رأيته مع
الصبيان يلعب، وأنا أشد معرفة بمحمد مني بابني.

فقال عمر: وكيف ذلك؟

فقال عبد الله: أشهد أنه رسول حق من الله، وقد نعته الله في كتابنا، وما أدري
ما تصنع النساء!

فقال له عمر: وفقك الله يا بن سلام، فقد صدقت وأصبحت^(١).

وهذه المعرفة تشمل صفته ونعته ونبوته وصدق ما جاء به من عند الله تعالى.

فالمعرفة التامة لا تكفي في تحقق اسم الإيمان على الإنسان حتى يصدقها
العمل؛ والعمل يعني التزام الشريعة في الشعائر والهدي.

قال ابن كثير عن أهل الكتاب: (أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإتيان العلمي
ليكتُمون الحق، أي: ليكتُمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي ﷺ وهم يعلمون)^(٢).

فلو كان التصديق بالقلب وحده كافيًا في مفهوم الإيمان لكان هؤلاء مؤمنين،
ولمدحهم القرآن، ولكنه الكفر، ولذلك ذكر الله تعالى لهم عملاً منافيًا للإيمان
استحقوا به الدم، وهو كتمان الحق ورفض الشريعة المحمدية.

(١) موسوعة التفسير بالمأثور ٣/ ١٥٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٥.

وفي واقع الأمر فإن اليهود يعتقدون أن معاصيهم لن تكون سبباً في إطالة مدة مكثهم في النار، وأنها لن تكون سبباً لخلودهم فيها كخلود الكافرين فيها:

﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴾ [البقرة: ٨٠].

فرد الله قولهم عليهم:

﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۗ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٨٠].

ثم بيّن الرب تبارك وتعالى حقيقة أثر العمل في الإيمان وأنه جزء منه وأنه لا يتصور أن يكون إيمان بلا عمل، فقال:

﴿ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨١-٨٢].

حضور العمل هنا إلى جوار التصديق ليس به خفاء.

وبيّن سبحانه أنهم تولوا وأعرضوا عما أمرهم الله به من العمل:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة: ٨٣].

فالآية - كما ترى - جعلت ترك العمل من التولي والإعراض.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لما فتحت خيبر قال النبي ﷺ لليهود: هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟

قالوا: نعم، يا أبا القاسم، وإن كذبتك عرفت كذبنا كما عرفته في أينا.

فقال لهم رسول الله ﷺ: من أهل النار؟

فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها!

فقال لهم رسول الله ﷺ: اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً^(١).

ومنشأ هذا الاعتقاد هو تحريفهم الذي أشار إليه قول الله تعالى في الآيتين

اللتين قبلها:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ
لِّلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ
إِلَّا أَنْتِ كَمَا مَعْدُودَةٌ ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة: ٧٨-٨٠].

فإن مما حرفوه في كتابهم أن الله تعالى لا يخلدهم في النار، وإنما سيقضون
فيها بعض الوقت ثم يخرجون منها ويدخلون الجنة، مهما ارتكبوا من المعاصي
والآثام، ما دام أنهم يقرون بالنبوات في بني إسرائيل والكتب التي أنزلت؛ وذلك قبل
مبعث محمد ﷺ، وهذا الاعتقاد الفاسد الذي أشاعوه في الناس هو الذي يجعلهم
لا يقيمون للعمل وزنه الصحيح، وهو الذي يجرئهم على الإعراض عن الشرع،
وبما أنهم آمنوا من المؤاخذه الأخروية إلا أياماً معدودة؛ فإذا لن يتوقوا الإقدام على
المعاصي ولا ارتكاب المحرمات^(٢).

إنها محض أمانى..

(١) أخرجه البخاري ٦/٣٢٣، ح ٥٧٧٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١/٥٧٩.

إنها الحيل النفسية التي تعبر بنا إلى الموبقات والمهلكات، التفافاً على تأنيب الضمير، وإقصاء للنفس اللوامة، وتحبيداً لدور القلب في إصلاح العمل.
إنها إشاحة الوجه عن الحقيقة..

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١١-١١٢].

قال ابن كثير: (ليس الأمر كما تمنيتم ولا كما تشتبهون، بل الأمر أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته؛ وهو من وافى يوم القيامة وليس له حسنة، بل جميع عمله سيئات، فهذا من أهل النار)^(١).

وهذا الأمر؛ أعني أن الإيمان حقيقة مركبة من التصديق والعمل، ليس مفهوماً مقصوراً على الأمة المسلمة فقط، بل هو في جميع الرسالات والأديان: شرط النجاة ومعقد السلامة وسبيل الظفر أن تؤمن بالله وتعمل صالحاً:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢].

والعمل الصالح هنا هو ما وافق الشريعة التي جاء بها كل نبي في زمنه، فما جاء به موسى في زمنه، وما جاء به عيسى في زمنه، وما جاء به نبي كل قوم في زمنه، حتى مبعث محمد ﷺ، فلما بعث الله محمداً ﷺ فلا يصح عمل إلا ما وافق شريعته ﷺ. بنحو هذا روي عن السدي وسعيد بن جبير^(٢).

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٧١.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٢٧.

ألا ترى أن سورة آل عمران فرقت بين مؤمني أهل الكتاب وكافريهم بأنهم أصحاب عمل، كما أنهم أصحاب تصديق ومعرفة:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران: ١١٢-١١٥].

وسورة البقرة تقرر هذه المسألة بأكثر من طريقة، وتشني مفهوم الإيمان فيها، الإيمان الذي يجمع بين الوجدان والعمل، ليعقل الناس ذلك وليستقر في نفوسهم:

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥].

وفي سورة آل عمران تأكيد لهذا المعنى:

﴿قُلْ أُوْتِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ ۖ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٥-١٧].

فهذا الوعد الكريم من الله تعالى بالجنة ونعيمها والخلود فيها، إنما يُبَشِّرُ به من آمن بقلبه بكل ما جاء الإيمان به، وأتبع ذلك بالعمل الصالح الذي أحبه الله تعالى وأمر به في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، ما استطاع العامل إلى ذلك سبيلاً:

﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

لا وجود لإيمان بلا عمل، والذين يقولون: نحن نؤمن بالله ورسوله ﷺ ولكننا لا نعمل كاذبون في ادعائهم، وقد استجابوا لتزيين الشيطان لطريقتهم في التفكير.

بل جاءت سورة البقرة بطريقة عجيبة في تقرير حقيقة الإيمان، وذلك في قصة تحويل القبلة، حين دار حوار في حكم صلاة الذين ماتوا من أصحاب النبي ﷺ قبل تحويل القبلة، فأجابت السورة بقول الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ولم تقل: صلاتكم. فتأمل مجيء الإيمان محل العمل!

هما شرطان لاكتساب الأجر والرفعة في الجنة والنجاة من النار: إسلام الوجه لله بتوحيده وإخلاص العمل له، وإحسان العمل بأن يكون له عمل يوافق فيه ما جاء به الرسول ﷺ.

وما عدا ذلك فهو تصور مغلوط عن حقيقة الإيمان، وانحراف الفكر في مسألة الإيمان، لم يأت به الرسول ﷺ ولم نتعلمه من القرآن. قال أبو العالية: أمني تمنوها على الله بغير حق^(١).

وهاتان سورتا البقرة وآل عمران، اقرأهما بتدبر وحضور قلب، وستجد الأمر في غاية الجلاء والبيان.

وفي تقرير حقيقة الإيمان يقول الله تعالى:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٦٥.

يَعْهَدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿البقرة: ١٧٧﴾.

وإذا تدبرت الآية فستجدها قد جمعت بين عمل القلب وعمل الجوارح في وصف الإيمان، وأكدت ذلك بوصفهم بالصادقين لأنهم صدقوا الإيمان بالعمل، وهذه حقيقة الإيمان؛ أنه مفهوم مركب من التصديق والعمل، يؤثر أحدهما على الآخر، زيادة ونقصاً، ووجوداً وعدمًا، قال الحسن البصري في الآية: (هذا كلام الإيمان، وحقيقته العمل، فإن لم يكن مع القول عمل؛ فلا شيء)^(١).

ولذلك شرعت سورة البقرة بعدها في بيان الأحكام الشرعية العملية كالصلاة والصيام والحج والإنفاق والقتال والقصاص وأحكام البيوت وغير ذلك، لأنه لا يكتمل معنى الإيمان -الذي يريد الله تعالى أن يعلمنا إياه في سورة البقرة الهداية إلى الصراط المستقيم- إلا ببيان تفاصيل الأعمال المنضوية تحته.

ولو كان تصديق القلب يكفي عن العمل لما حفلت السورة بعشرات الآيات المفصلة والمبينة للأحكام العملية.

ولو كان تصديق القلب يكفي نفعاً لنفع إبليس الذي أبى واستكبر عن طاعة الله.

والآيات التي تقرن العمل بالتصديق في سورة البقرة متعددة، والصحابة فهموا ذلك بهذه الطريقة، لذلك جاؤوا في حديث أبي هريرة إلى النبي ﷺ خائفين، وقالوا: كلفنا من الأعمال ما نطيق، أي أننا عملنا ما كلفنا الله العمل به طاعة له، ولعلمنا أن الإيمان الذي بايعناك عليه لا يتحقق معناه إلا بالعمل. فأمرهم النبي ﷺ أن يقولوا: سمعنا وأطعنا.

(١) جامع البيان ٣/ ٩٣.

وهو ما ذهب إليه الصحابة اعتقادًا وتطبيقًا، وهو ما ذهب إليه التابعون وأئمة السنة من بعدهم تنظيمًا وتقعيدًا: أن الإيمان تصديق القلب وأن عمل الجوارح يصدق ذلك الإيمان أو يكذبه.

أما أواخر سورة آل عمران فقد عمدت في تقرير هذه الحقيقة إلى طريقة تدعو إلى التأمل، إذ نصت على أن الله تعالى لا يضيع ثواب العاملين في الدنيا:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثِيَ ۖ بَعْضُكُمْ مِّنَ بَعْضٍ ۗ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ۝﴾ [آل عمران: ١٩٥].

قد تقول لي: إن إثابة العاملين أمر بدهي!

فسأقول لك: نعم، صدقت، ولكن ذكر هذه الأعمال في استجابة الله لدعاء المؤمنين جاء عقب ذكر دعائهم المتضمن إيمانهم وتفكرهم في الخلق:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝﴾^{١١٠} الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝﴾^{١١١} رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ۝﴾^{١١٢} رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ۝﴾^{١١٣} رَبَّنَا وَءَايَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٤].

ففي هذه الدعاء إقرار بالإيمان: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا﴾، وفي استجابة الدعاء أعمال وهجرة وقاتل في سبيل الله:

﴿لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْتِ بِبَعْضِكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ۗ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾.

والمراد أن أواخر سورة آل عمران فسرت الإيمان الوارد في الدعاء بالعمل الوارد في الاستجابة؛ إذ لا يمكن عدُّ العمل جزءاً منفصلاً عن الإيمان، ولا شرط كمال له، وإنما هو شرط صحة للإيمان وجزء من تعريفه. وهذا ما ينبغي للمؤمن فهمه وتصوره.

وهو التصور المستقيم لمفهوم الإيمان؛ خلافاً للمرجئة الذين يفصلون العمل عن مفهوم الإيمان، ويجعلون الإيمان مقتصرًا على ما يعمر القلب من تصديق ووجدانيات مقرونة بقول اللسان.

وإنَّ المؤمنَ ليجب عليه الحذر من الوقوع في هذا المزلق، فيهمل العمل ويفرط في الاستقامة ويتساهل في تعاطي المنكرات اتكالا على وجدانياته، وشهادته بالتوحيد لله، وأدائه أقل الواجب عليه من الشعائر، فلعل هذا المزلق لا يقف به إلا وادٍ سحيق.

الرسول المطاع

مسألة (الرسول) كانت من المسائل المحورية، التي حملها النبي ﷺ معه إلى المدينة ب مهمتها وحواراتها، وصارت الحديث الذي يشغل الناس في المدينة، كما أشغلهم في مكة.

من محمد؟

ما التعريف الذي يصح أن نصف به محمدًا؟

هل هذا معقول: رجلٌ نعرفه في صغره، عاش في أوساط الناس، ثم ينزل عليه ملك من السماء ليأمره أن يخبر الناس بأنه رسول من الله، لا إلى قومه فحسب، بل إلى جميع الناس، وجميع الأمم وجميع الممالك؟

بل وإلى الجن كذلك!

وإذا دخلنا المدينة الجديدة - قرية يثرب سابقًا - فهل تستحق شمسهُ ﷺ أن تخفي ضوء النجوم العالقة في سماء المدينة؛ من أسياذ الأوس والخزرج والأعراب واليهود؟

وهل سيكون لهذا النبي الجديد سلطان على كل ذي سلطان؟

من هذا الرجل الذي بعث رسوم السيادة الجاهلية وانتزع قلائد الملكيات

المهترئة؟

من هذا الرجل الذي خفض رؤوس الجميع، مؤمنهم وكافرهم، أمام سيادة

الوحي في المدينة؟

ثم ما مصير الزعماء الصاعدين؟

أولئك الذين مكثوا دهرًا يتلقون صنوف التدريب على سلوك الزعامة ومراسم السلطنة.. إلى أين سيتجه سهمهم؟

هنا امتحان الشهوة.. شهوة الملك أمام سيادة الوحي.

هنا امتحان العبودية الحقيقي.

قال ابن إسحق: (وقدم رسول الله ﷺ المدينة، وسيد أهلها عبد الله بن أبي بن سلول، لا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان، لم يجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين غيره حتى جاء الإسلام.

ومعه في الأوس رجل هو في قومه من الأوس شريف مطاع: أبو عامر عبد عمر بن صيفي بن النعمان، أحد بني ضبيعة بن زيد، وهو أبو حنظلة الغسيل يوم أحد، وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح، فكان يقال له: الراهب.

فشقيا بشرهما!

أما ابن أبي؛ فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجه ثم يملكوه عليهم، فجاءهم الله برسوله وهم على ذلك، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن، ورأى أن رسول الله ﷺ قد سلبه ملكًا عظيمًا، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مصرًا على النفاق.

وأما أبو عامر؛ فأبى إلا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام، فخرج منهم إلى مكة ببضعة عشر رجلًا مفارقًا للإسلام^(١).

لقد خطف بريق الملك أبصارهم عن شعاع الرسالة!

(١) عيون الأثر ١/ ٢٥٥.

ولليهود في المدينة شأن آخر..

عن ابن عباس رضي الله عنهما (أنَّ يهودًا كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه.

فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور: يا معشر يهود! اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته.

فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم.

فأنزل الله في ذلك من قولهم:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩] (١).

لقد نزلت سورة البقرة في هذه الظروف لتعرف بالنبى ﷺ وتبين فضله وماهيته في شريعة الله تعالى، وليكون واضحًا منذ بداية تأسيس الأمة المسلمة أن طاعة النبي ﷺ وتوقيره وإجلاله مما لا يصح الإيمان إلا بها.

هذا هو.. لا يصح الإيمان إلا بالتزام النفس طاعة النبي ﷺ واعتقاد وجوب ذلك، وتوقيره وإجلاله.

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٨٧/١.

وإذا كان إجلال قارئ القرآن والعالم وذو الشبهة المسلم محمودًا في شريعتنا، فكيف بإجلال أعظم رسول وأفضل نبي وأطهر نسمة وأصدق إنسان!

لقد أثبتت سورة البقرة رسالته من طريق الإيمان بالكتاب الذي أنزله الله:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٤].

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ، عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

وتجدها - أي سورة البقرة - بعد ذكر قصص الماضين وأخبار الأمم والأنبياء مما يستحيل أن يأتي بها على هذا الوجه غير نبي، تقول:

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

قال ابن عاشور: (خطاب للرسول ﷺ تنويهاً بشأنه وتثبيتاً لقلبه، وتعريضاً بالمنكرين رسالته).

ثم يلتفت ابن عاشور ببراعته البلاغية إلى استلال خيط من دلالات خطاب الله تعالى لرسوله بأنه من المرسلين، فيقول: (وجيء بقوله «من المرسلين» دون أن يقول: وإنك لرسول الله، للرد على المنكرين؛ بتذكيرهم أنه ما كان بدعاً من الرسل، وأنه أرسله كما أرسل من قبله، وليس في حاله ما ينقص عن أحوالهم)^(١).

وتجدها أيضاً تقول:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجُبَيْرِ ﴿١١٩﴾ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١١٩-١٢٠].

(١) التحرير والتنوير ٢/ ٥٠٣.

قال ابن عاشور في هذه الآية: (القصْدُ منها تأنيس الرسول عليه الصلاة والسلام، من أسفه على ما لقيه من أهل الكتاب مما يماثل ما لقيه من المشركين، وقد كان يود أن يؤمن به أهل الكتاب فيتأيد بهم الإسلام على المشركين، فإذا هو يلقى منهم ما لقي من المشركين أو أشد، وقد قال: «لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود كلهم»^(١)، فكان لتذكير الله إياه بأنه أرسله تهدئةً لخاطره الشريف، وعضدً له إذ أبلغ الرسالة، وتطمينٌ لنفسه بأنه غير مسؤول عن قوم رضوا لأنفسهم بالجحيم)^(٢).

فتأمل.. ما أكرم هذا النبي على الله تعالى!

يواسيه ويسليه ويعزيه ويهدئ خاطره ويطمئنه.

ومن التنويه بشأنه ﷺ بيان عناية الله تعالى بأحواله:

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [البقرة: ١٤٤].

قد نرى تقلب وجهك في السماء يا محمد.

إننا رأيناك وأنت تنظر في السماء.

رأيناك وأنت تنتظر تلبية رغبتك.

وعلمنا حين قلبك إلى الكعبة.

وعلمنا هواك في استقبالها عند الصلاة.

وعلمنا نظرتك في ارتباط أمة الإسلام بالمسجد الحرام.

وإننا لنحبك يا محمد.

(١) أخرجه البخاري ٤/ ٤٠٠، ح ٣٩٣٣.

(٢) التحرير والتنوير ١/ ٦٩١.

نحب كرامتك، ونحب رضاك.

وإنك لكريم لدينا.

وإنك لبأعيننا.

فلنولينك قبلة الكعبة التي تحبها وترضاها.

فهل رضيت يا محمد؟

ووالله الذي لا إله إلا هو؛ إِنَّ هذه الآية وحدها لتكفي في التنويه بشأن نبينا الكريم ﷺ، وتربية الناس على توقيره وحبه واتباعه؛ لو تأمل الناس كل هذا الاسترضاء الإلهي له وكل هذا الحب لجنابه.

وإنه والله لهو الرسول الكريم والعظيم، الذي يكون من شأنه أن الله تعالى -من فوق سبع سماوات- يقول له: ﴿فَلَنُوَلِّينَاكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾!

كل النياشين المتعلقة على صدور العظماء صارت بلا معنى.

وكل الألقاب العلمية التي تراحم الأسماء تلاشت.

وكل الثناءات التي سُودت بها الصحف والدفاتر لا شيء.. عند قول الله ﴿فَلَنُوَلِّينَاكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾.

فهل رضيت يا محمد؟

هل أسعدك أننا نحول القبلة لهواك؟

هذا هو كرم الله تعالى إذا أحب عبده.

ألم يقل في الحديث القدسي: (وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها

ورجله التي يمشي بها، ولئن سألتني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن؛ يكره الموت وأنا أكره مساءته^(١).
والله إنَّ هذا لخبرٌ صدق، وإنَّ الله إذا أحبَّ عبدًا فليس لإكرامه له وحفظه ومعيته منتهى.

فواأسفَى إنَّ حُرْمنا محبة الله!

ويا لوعة الأكباد إنَّ خسرنا معية الله وقربه.

وأى خسارة تعدل خسارة الحب الإلهي!

فاللهم أصلح أحوالنا، وأسبغ علينا من جودك وكرمك ما يقربنا منك.

ومرة أخرى يبين الله تعالى لنا عنايته بأحوال النبي ﷺ في آل عمران:

﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

[آل عمران: ١٢١].

فلقد رأيناك في صبيحة يوم السبت في النصف الثاني من شهر شوال للعام الثالث من هجرتك..

رأيناك وأنت تنزل المؤمنين منازلهم في القتال، وتقسمهم جماعات، فمنهم الميمنة ومنهم الميسرة ومنهم القلب ومنهم الرماة على الجبل..

رأيناك، وسمعنا تلاوتك عليهم تعاليم المعركة، وسمعنا ما قاله الناس حينها.

وعلمنا ما أخفته نفوسهم من أفكار ومخايل ومن أشجان أيضًا.

والله سميع عليم.

(١) أخرجه البخاري ٧/٤٧، ح ٦٥١١.

والله سبحانه - في سورة البقرة - يذكر مشركي العرب وأهل الكتاب بأنَّ محمدًا هذا إنما هو دعوة إبراهيم عليه السلام، إبراهيم الذين طالما تفاخروا على الناس بأنهم أتباعه، ألم يقل إبراهيم في دعائه:

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْنَا آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۗ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

واستجاب الله تعالى لخليله إبراهيم هذه الدعوة المباركة، فعمَّ نفعها ودام فضلها، وبعث الله محمدًا الصادق الأمين، فكان من شأنه أن يكون هو وأصحابه وأتباعه أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم ودعوته ودينه، وأصدق الناس في اتباعه:

﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٨].

ويذكر الله تعالى المؤمنين بأنَّ رسوله ﷺ نعمة تستحق دوام الشكر:

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَأذْكُرُونِي أَذْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢].

اذكروني واشكروني إذ أنعمت عليكم برسالة محمد ﷺ.

محمد الذي - منذ أن جاءه الأمر بالتبليغ - وهب حياته وماله ووقته في تلاوة القرآن على الناس، وتعليمهم معانيه وأحكامه وآدابه، وتزكية نفوسهم بهداياته، ومنهجة حياتهم بتعاليمه.

قال ابن إسحاق: (لقد منَّ الله عليكم يا أهل الإيمان، إذ بعث فيكم رسولاً من أنفسكم، يتلو عليكم آياته، ويزكيكم فيما أحدثتم وفيما عملتم، ويعلمكم الخير

والشر لتعرفوا الخير فتعملوا به والشر فتتقوه، لتستكثروا من طاعته، وتجتنبوا ما سخط منكم من معصيته، فتخلصوا بذلك من نعمته، وتذكروا بذلك ثوابه من جنته، وإن كنتم من قبل في عمياء من الجاهلية، لا تعرفون حسنة ولا تستغفرون من سيئة، صم عن الحق، عمي عن الهدى^(١).

وقال الزجاج: (بعث الله محمداً ﷺ رسولاً وهو رجل من الأميين لا يتلو كتاباً ولا يخطه بيمينه، وبعثه بين قوم يخبرونه، ويعرفونه بالصدق والأمانة، وأنه لم يقرأ كتاباً ولا لقنه، فتلا عليهم أقاصيص الأمم السالفة، والأنبياء الماضية، لا يدفع أخباره كتابٌ من كتب مخالفه، فأعلم الله أنه من علي المؤمنين برسالة من قد عرف أمره، فكان تناول الحجة والبرهان وقبول الأخبار والأقاصيص سهلاً من قبله، وفي ذلك أعظم المنة)^(٢).

واطرح علي نفسك ومن حولك هذا السؤال:

ماذا لو لم يُبعث محمد ﷺ؟

ماذا لو بقيت البشرية علي ما هي عليه قبل أن يُبعث؟

أيُّ تيهٍ ستقع فيه؟

أيُّ قاعٍ سيبتلعها؟

أيُّ ضياعٍ سيلفها؟

لكن الرحمة الإلهية أوقفت الضياع البشري، وأعلنت انبعاث النور في وسط الظلمات.. كان ذلك يبعث الرسول محمد ﷺ.

(١) جامع البيان ٦/ ٢١٣ و«تستغفرون» في طبعة شاكر، أما في طبعة هجر فهي «تستغيثون».

(٢) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٤٨٧.

وسوف يكون هذا الرسول شهيداً على إبلاغ أمته وتعليمهم يوم القيامة:

﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

والله تعالى ينهى الصحابة عن سلوك مسلك أهل الكتاب مع أنبيائهم من الاقتراح عليهم، والتعنت بطلب المعجزات والآيات وامتحان صدقه:

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۗ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

أي أن الواجب هو اتباعه وطاعته المطلقة.

وفعالاً.. سار الصحابة على هذا الأمر الصالح من حسن الاتباع والطاعة له ﷺ:

﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۗ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ۗ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ ۗ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۗ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وهكذا ثنت سورة البقرة الحديث عن رسولنا الكريم ﷺ، لتقول لأهل الإيمان: إنه يجب عليكم توقيره وإجلاله وتعظيم أمره ونهيه وطاعته المطلقة.

وكذلك فعلت سورة آل عمران، فهي تجعل اتباع النبي ﷺ دليلاً على حب الله:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢].

وأشادت بالمستوى الأخلاقي الذي وفق الله تعالى نبيه للوصول إليه في قيادته لأصحابه وترؤسه على المدينة:

﴿فِيمَا رَحِمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ۗ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أي: برحمة الله لك ولأصحابك، من الله عليك أن ألت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترقت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامثلوا أمرك^(١).

ومن الواجبات التي رسمتها سورة آل عمران تجاه نبينا ﷺ: نصرته ونصرة دينه ومنهجه، وقد حظيت آل عمران بجزء كبير منها في الحضر على الجهاد في سبيل نصرته دين الرسول، وأثنت على الصحابة الذين نصره ووقفوا معه في صف القتال وجاهدوا معه، على الرغم مما وقع من أخطاء، وأعلت من شأن الذين قتلوا في تلك المعركة وتساقطوا بين يدي الرسول ﷺ دفاعاً عنه:

﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِّثْلُهُ، وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾ (١٦٩) ﴿فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٧٠) ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧١) ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٢) ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٤].

الشهادة في سبيل الله شهادة على صدق الاتباع والتزام الطاعة.

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٥٥.

الشهادة في سبيل الله دليل على الحب الصادق، الذي يفدي فيه المحب
محبوبه بروحه.

الشهادة في سبيل الله صفقة لا تعرف الخسارة، بل ولا ترضى إلا بأجل
المكاسب.

إنها التذكرة المباشرة لصعود درجات الجنة.

وهي الممحة التي تمحو ذنوب العبد مع ربه.

وهي القربان البشري لنيل الرضوان الأكبر.

حتى وإن مات الرسول ﷺ في المعركة، فإن آل عمران حثت المؤمنين على
الثبات، وعلى الاستمرار في طريق الجهاد والمجاهدة، وهذا من تمام شكر الله
تعالى على نعمة الرسول الذي أنقذهم الله به من حفرة النار:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى
أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾
[آل عمران: ١٤٤].

وقد ظهر سمو أصحاب النبي ﷺ، وظهر صدق إيمانهم وحبهم حين استجابوا
للسلوة ﷺ وخرجوا معه لملاحقة المشركين في حمراء الأسد، فوراً عقب وقعة
أحد، ولما يتعافوا بعد من جراحهم، وكيف توجع الجراح من كانت روحه في كفه!
يبدلها لمحبوبه متى شاء وأنى شاء:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا
أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢].

هذه حقيقة التقوى والإحسان..

فله تلك النسمات الطاهرة المحبة، التي أصابها القرح والجرح، ثم استجابت
غير عابئة بحديث النفس ولا بنزغات الشيطان ولا بصراخ الجسد المجروح.
والإيمان بالرسول ﷺ ونصرتة ليس أمرًا حادًا ولا شرعًا جديدًا، بل هو
منصوص عليه في كل الشرائع وعليه أخذ الميثاق على جميع الأنبياء:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ
رَسُولٌ مٌصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي
قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١-٨٢].

فاللهم أوزعنا شكر نعمة الرسول ﷺ وأعنا على الوفاء بحقه علينا.

سفهاء المدينة

مما عجبت منه في كتاب الله تعالى أن يكون الحديث عن المنافقين مما افتُتح به القرآن الكريم عمومًا، ومما افتُتحت به سورة البقرة خصوصًا، فإنَّ المولى تبارك وتعالى لما ذكر صفات المؤمنين المتقين في أولها في ثلاث آيات، عطف عليها ذكر الكافرين بإيجاز في آيتين فقط، ثم ذكر المنافقين وأحوالهم وصفاتهم، حتى لكأنك تراهم رأي العين في ثلاث عشرة آية متتابعة، كلها عبارة عن إعلان حرب معهم بفضحهم وكشف خباياهم وبيان ضلالتهم:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

من الناس.. هكذا.

أي من الناس الذين هم بجوارك في مدينتك يا محمد.

بل هم من الأوس والخزرج، القبيلتين اللتين آمنتاك، ومن كان على هذا الأمر من غيرهم.

قال أهل التفسير قاطبة: المنافقون.

وقال ابن جريج: (هذا المنافق يخالف قوله فعله، وسره علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه)^(١).

ثم زال عجبني من هذا الاستفتاح حين قرأت كلامًا لأبي الفداء ابن كثير يقول في حكمة ذلك: (لثلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فسادٌ عريض من عدم

(١) جامع البيان ١/ ٢٧٧.

الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار في نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار: أن يُظنَّ بأهل الفجور خير^(١).

وهو كلام مهم لابن كثير يحسن تأمله.

وهذا يعني أن على المؤمنين - حتى وهم في مبدأ أمرهم - أن يكونوا على حذر من المنافقين، على حذر من الذين لجؤوا إلى التظاهر بالإيمان أمام الناس، خوفاً من سطوة الأحكام الشرعية المتعلقة بالكفر، لأنَّ هذا التظاهر يخفي سلوكاً عملياً في الصد عن الدين وكراهية الإسلام والإيقاع بأهله، فوجب على المؤمنين أن يكونوا على بينة من أمرهم وألا يكونوا محلاً قابلاً لخديعتهم ومكرهم.

وهل ظهر النفاق في أول مهاجر رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة؟

نعم، هو كذلك، وهذا أمر طبيعي في نشأة الأمة المسلمة وتكوين المجتمع المسلم، أن تتشكل فيه جيوب خبيثة وخلايا سرطانية، تحارب الإسلام خفية وتعادي أهله في الظلام.

وقد امتنع الطبري من التعريف بأسمائهم وسرد تفاصيلهم خشية التطويل، لكن ذكرهم بأسمائهم غير واحد، مثل ابن إسحاق في السيرة، إذ ذكر أسماء المنافقين في كل بيت من بيوت الأوس والخزرج.

قال الطبري: (إنَّ الله لما جمع لرسوله محمد ﷺ أمره في دار هجرته، واستقر بها قراره، وأظهر الله بها كلمته، وفشا في دور أهلها الإسلام، وقهر بها المسلمون من فيها من أهل الشرك، وذل بها من فيها من أهل الكتاب.. أظهر أجبارُ يهودها لرسول الله ﷺ الضغائن، وأبدوا له العداوة والشنآن حسداً وبعياً، إلا نفرًا منهم هداهم الله للإسلام، وطابقتهم - سرًّا - على معاداة النبي ﷺ وأصحابه وبعيهم الغوائل قومٌ

(١) تفسير القرآن العظيم ٢٧٤/١.

من أراهم الأنصار، قد سُموا لنا بأسمائهم، كرهنا تطويل الكتاب بذكر أسمائهم وأنسابهم، وظاهرهم على ذلك في خفاء، حذارَ القتل والسب من رسول الله ﷺ وأصحابه، وركوناً إلى اليهود، لما هم عليه من الشرك وسوء البصيرة بالإسلام^(١).
لقد كان مقدّم الصحابة المهاجرين إلى المدينة ومعهم الرسول الكريم ﷺ
إيداناً بوجود عدوٍّ جديد، أخبرت عنه سورة البقرة.

ليس العدو الجديد كالعدو الذي كان بمكة من المشركين الواضحين والأقوياء
أيضاً.

بل هو عدو من داخل بيوت المسلمين، يجلس على موآئدهم وينام على
فرشهم.

عدو يقترب منك، يراك في كثير من يوميات حياتك، يعرف نمط معيشتك،
يرصد سير أفكارك.

عدو رافض لسلطة الوحي وحكم الشريعة على شؤون حياته، لا سيما والأمة
المسلمة الجديدة تتهياً لتطبيق حزمة من التشريعات والتنظيمات التي ستأتي بها
سورة البقرة لاحقاً، كتلك التشريعات المتعلقة بالمال والبيوت والعلاقات والشعائر.

ثم إنَّ سورة البقرة ذكرت من صفات المنافقين: أنهم يفسدون في الأرض،
بكفرهم ومعاصيهم وكراهيتهم للدين، فيرى ذلك من حولهم من أهل بيوتهم
وقرابتهم، فينصحونهم بترك ذلك والإقبال على ما جاء به النبي ﷺ فيصرون
ويقولون:

إننا مصلحون!

(١) جامع البيان ١/ ٢٧٧.

وطريقنا هو الطريق الصحيح!

وما نفعله هو الأفضل لمجتمعنا!

إننا نريد أن نتشل المجتمع من سكة التيه ودروب الخراب!

وأنتم واهمون بأن هذا الدين سيصلح حالكم في الدنيا!

قال الطبري: (فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكهم في دينه الذي لا يقبل من أحدٍ عملٌ إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله، إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً. فذلك إفساد المنافقين في الأرض، وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها)^(١). وحسبانهم هذا لعله ما يفسر دأبهم في الصد عن دين الله:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١-١٢].

وهنا إشكال نفاقي عميق، أعني الجبل السري الذي يصل المنافقين من الأمة بأعداء هذه الأمة من خارجها! فمن طبيعة النفاق أن يمد صاحبه يده لليهود والنصارى في مواجهة العدو المشترك، وهو الإسلام وأهله:

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا بِكُنُوزِنَا نَحْنُ كَاذِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤].

(١) جامع البيان ١/٢٩٩.

فثمة شياطين إنسية يخلو بها المنافقون، قال قتادة وبنحوه أبو مالك وأبو العالية والسدي والربيع بن أنس: (رؤوسهم وقادتهم في الشرك والشر). وعن ابن عباس: (اليهود الذين يأمر ونهم بالتكذيب وخلاف ما جاء به الرسول ﷺ)^(١).

وقد علق ابن كثير على كلام الطبري السابق فقال: (وهذا الذي قاله حسن، فإنَّ من الفساد في الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء)^(٢).

المنافقون لا يسرهم إقصاء الكافرين، لا يودون رؤية أهل الشرك والشر منبوذين في المجتمعات الإسلامية، ومحبتهم لهم وقربهم منهم يجعلهم ينسجون الحيل للتقريب بين الفريقين، أهل الإيمان وأهل الشرك والشر، فلذلك يرفعون شعار الإصلاح:

إنما نحن مصلحون!

أي: نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين، ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء^(٣).

والآيات تجلي رؤيتهم للإيمان وأهله:

﴿وَإِذ قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

فالإيمان -من وجهة نظرهم- خفة في العقل، وقرار التحول من الشرك إلى الإسلام ضعف في الرأي، والالتحاق بركب الإيمان انضمام إلى قائمة السفهاء الذين ضل تفكيرهم.

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٨٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٨٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٨٠.

أتريدوننا أن نكون مثل سفهاء القوم؟!

وهم يقصدون بذلك أصحاب النبي ﷺ من قريش والأوس والخزرج وغيرهم ممن آمن حقيقة.. لكن هذا القول إنما يقال خفية، في الغرف المظلمة، وفي منأى عن المسلمين.

قال ابن عاشور: (قصدوا منه التبري من الإيمان على أبلغ وجه! وجعلوا الإيمان المتبراً منه شبيهاً بإيمان السفهاء؛ تشنيعاً له وتعريضاً بالمسلمين بأنهم حملهم على الإيمان سفاهة عقولهم)^(١).

لكن إفساداً آخر للمنافقين، ذكرته سورة البقرة عقب الحديث عن الصيام والحج:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ لَهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَلَيْسَ أَلْمِهَادُ ﴿﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦].

وقد ذكر بعض المفسرين أنها نزلت في معينين من المنافقين، إلا أن قتادة ومجاهد والربيع بن أنس وغيرهم قالوا: هي عامة في المنافقين كلهم. قال ابن كثير: وهو الصحيح^(٢).

وقد أضافت الآيات السعي في الأرض بالإفساد وإهلاك الحرث والنسل والغضب من الإرشاد ورد الأمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر.

(١) التحرير والتنوير ١/ ٢٨٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ١٢٦.

وهذا الإفساد أراد الله قدرًا وشرعًا أن يكون في أهل الإيمان من يتصدون له ويدافعونه ولو أهدرت أنفسهم في سبيل ذلك:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وحين مرَّ على هذه الآيات حبر الأمة ابن عباس قال: اقتتل الرجلان^(١). أي ذلك المنافق وهذا المؤمن.

إنَّ المؤمنين الصادقين لا يتركون وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنَّ تركها يُعبِّد الطريق لأهل النفاق.. طريق الإفساد وإهلاك الحرث والنسل.

وهؤلاء السفهاء من الذين نافقوا سجلت عليهم سورة البقرة موقفًا سيئًا، حين نزل تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وقد أذعن الصحابة في موقف عظيم خالدهما التوجيه الرباني، أما المنافقون فقال الله تعالى عنهم:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُم مَّا كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

يقولون: ما بال هؤلاء غيروا اتجاه القبلة؟!

يقولون: ما هذه الشريعة التي تتغير وتتناقض وتلغي بعض نصوصها حكم البعض الآخر؟!

وشارك المنافقين في هذا القول كلُّ سفيه من مشركي العرب ومن اليهود أيضًا. وعلى الرغم من أن الله وسمهم بالسفه وضعف الرأي هنا ومن قبل؛ فإنه نقض مقولاتهم وردَّ كلامهم وناقش شبههم التي يوردونها كل مرة، وهذا يدل على أن مدافعة أقوالهم في الأمة المسلمة ذات أهمية، وإن كانوا سفهاء، أو كانت مقولاتهم

(١) جامع البيان ٣/ ٥٨٨.

ضعيفة الاحتجاج، لأنَّ العبرة بنفاذ الكلمة وتأثير الشبهة، وليست العبرة بمكانة من يوردها.

ولذلك اعتادت أمة الإسلام التصدي للمقالات والشُّبه والأفكار المخالفة، عبر العصور والقرون.. وهذا الواجب المعهود.

وفي سورة البقرة ذُكِرَ لبعض صفاتهم، منها المشاركة في أعمال المسلمين رياء:

﴿يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطَلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وفي سورة آل عمران ذكرت الآيات دور المنافقين الكبير في تخذيل المؤمنين عن القتال في سبيل الله والدفاع عن بيضة الإسلام في غزوة أحد:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَىٰ الْجَمْعَانِ فَيَا ذَنَ اللَّهِ وَيَلْعَلَمُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٦﴾ وَيَلْعَلَمُ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٣٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلُوبُهُمْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٦-١٦٨].

قال الطبري: (يعني بذلك عبد الله بن أبي بن سلول المنافق وأصحابه، الذين رجعوا عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه، حين سار نبي الله ﷺ إلى المشركين بأحد لقتالهم، فقال لهم المسلمون: تعالوا قاتلوا المشركين معنا، أو ادفعوا بتكثيركم سوادنا، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لسرنا معكم إليهم، ولكننا معكم عليهم، ولكن لا نرى أنه يكون بينكم وبين القوم قتال. فأبدوا من نفاق أنفسهم ما كانوا يكتُمونه،

وأبدوا بألستهم بقولهم: «لو نعلم قتالاً لاتبعناكم» غير ما كانوا يكتمونونه ويخفونه من عداوة رسول الله ﷺ وأهل الإيمان به^(١).

فهم - كما ترى - يحاولون إيهام الناس أن المشركين الذين أعدوا العدة وجهزوا الجيش واستنفروا الناس وخرجوا إلى المدينة لن يقاتلوا المسلمين، ويوردون في ذلك الحجج المنطقية كما يزعمون، ثم لا يكتفون بذلك، فينسحبون من جيش المسلمين، ويقفلون راجعين إلى بيوتهم، قال القرطبي: (أي بينوا حالهم، وهتكوا أستارهم، وكشفوا عن نفاقهم لمن كان يظن أنهم مسلمون، فصاروا أقرب إلى الكفر في ظاهر الحال، وإن كانوا كافرين على التحقيق)^(٢).

وهكذا تجد سورتي البقرة وآل عمران تشي الحديث عن المنافقين، لتبصر المؤمنين بحالهم، وليكونوا على يقظة من أقوالهم وأفعالهم.

(١) جامع البيان ٦ / ٢٢١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٤ / ١٧١.

حتمية الابتلاء

بعد ما يزيد على عشر سنوات على مبعث الرسول ﷺ في مكة..
وبعد تلك الليالي المتجهمة، والأقيية الموحشة، والأغلال الموثقة..
وبعد كل الذكريات الأليمة، والعذابات الطويلة..
بعد سنواتٍ من الجوع والخوف والضرب والسجن والقتل والتهجير والحصار؛
كل ذلك بسبب الإيمان، والثبات على هذا الإيمان..
بعد ذلك كله اكتمل عقد المهاجرين المكيين الذين قدموا إلى مدينة الأنصار،
بقدم سيدهم محمد ﷺ، وعندها استطاعوا أن يبنوا مسجدًا، وأن يظهر دينهم،
وأن يناجزوا عدوهم، وأن يفرضوا حكمهم على أهل الكتاب في المدينة.
فهل انتهى زمن الآلام والأين؟
وهل انتهى عصر الأقيية والحديد؟
وهل انقضت فترة التعذيب والإيذاء والتخويف؟
هل حقًا لن ترجع تلك المعاناة وذلك الابتلاء؟
هل كانت الهجرة إلى المدينة إعلانًا لنهاية الابتلاءات؟
كلا.. لم تنتهِ المعاناة.

قال عطاء: (لما دخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة اشتدَّ عليهم الضر،
لأنهم خرجوا بلا مال، وتركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين، وآثروا رضا الله

ورسوله، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله ﷺ، وأسرَّ قومُ النفاق، فأنزل الله تعالى تطيباً لقلوبهم: أم حسبتم^(١). وهي قوله تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

فهذه الآية الكريمة إعلام بحتمية الابتلاء.

والبأساء آفات المال، والضراء آفات البدن، والزلزلة شدة الخوف. قال ابن كثير: (وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة ﷺ في يوم الأحزاب؛ كما قال الله تعالى: ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴾ ١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ ١١ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٠-١٢] ^(٢).

ولا يعني كون يوم الأحزاب مثلاً كبيراً لهذا الابتلاء انتفاءً له في غيره، فإن الصحابة ﷺ ابتلوا في بدر وأحد كذلك، وفي غيرها من المواطن.

وعلى أي حال فإن سورة البقرة أجابت عن ذلك السؤال صراحةً هنا، ومن قبل قالت:

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۗ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ١٥٣ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ ۗ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ ١٥٤ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ

(١) معالم التنزيل ١/٢٠١.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/١٣٧.

مُصِيبَةً قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٣-١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٣-١٥٧].

قال البغوي: (أي ولنختبرنكم يا أمة محمد، واللام لجواب القسم، تقديره: والله لنبلونكم)^(١). فهذا قسم من الله جلَّ شأنه على حتمية وقوع الابتلاء لهذه الأمة، فلتكن الأمة متهيئة له، مستعدة لسنوف المعاناة.

وقال السعدي: (أخبر تعالى أنه لا بد أن يتبلي عباده بالمحن، ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنته تعالى في عباده؛ لأنَّ السراء لو استمرت لأهل الإيمان ولم يحصل معها محنة لحصل الاختلاط الذي هو فساد، وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر؛ هذه فائدة المحن)^(٢).

والشهادة في سبيل الله مسألة حسمت كل الحسابات، وجعلت المؤمن الذي يتبلى بالأذى والتعذيب والقتل في حلٍّ من أسباب الخسران والهلاك، وهذا هو الفارق بين ابتلاء المؤمن وابتلاء الكافر، وهو الفارق بين قتل المؤمنين وقتل الكافرين، وقد ظن المشركون والذين لا يوقنون أنَّ الحسابات المادية تسري على هذه المسألة، ولكن القرآن يقول: كلا. والنبى ﷺ علم أصحابه عقب هزيمة أحد أن يقولوا للمشركين: لا سواء. قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار.

حسابات المؤمنين تختلف عن حسابات المشركين والمنافقين، لذلك يقدم المؤمن روحه في سبيل الله رخيصة، يشتري بها حب الله تعالى وجمته ورضوانه:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١١٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

(١) معالم التنزيل ١/ ١٢٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/ ١١٤.

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿آل عمران: ١٦٩-١٧٢﴾.

يا لجمال المصير، يا لعظمة المآل!

وقد ضربت سورة البقرة مثالين للابتلاء في بني إسرائيل:

أحدهما مجمل، وهو ابتلاء أمة بمجموعها، وهم بنو إسرائيل في مصر، إذ تسلط عليهم القبط بحكامهم الفراعنة، حتى انقضى أجل البلاء العظيم بغرق فرعون وجنوده في البحر، ونجاة بني إسرائيل من شرهم، وذلك في العاشر من شهر المحرم: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿البقرة: ٤٩﴾.

قال ابن كثير: (وذلك أن فرعون -لعنه الله- كان قد رأى رؤيا هالته، رأى ناراً خرجت من بيت المقدس، فدخلت دور القبط ببلاد مصر، إلا بيوت بني إسرائيل، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل. ويقال: بل تحدث سماره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم؛ يكون لهم به دولة ورفعة، فعند ذلك أمر فرعون -لعنه الله- بقتل كل ذي ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل، وأن تترك البنات، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأراذلها)^(١).

والابتلاء الآخر الذي ذكرته سورة البقرة كان مفصلاً، وهو ما حدث للملأ من بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام بدهر طويل، في زمن داود عليه السلام كما نصت الآية، قال ابن كثير: وكان بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة والله أعلم^(٢):

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٩٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٣٢.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذِ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أبعثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ [البقرة: ٢٤٦].

وخالصة القصة أن بني إسرائيل كانوا في حالٍ مغلوبين مقهورين فيها، ومكثوا على ذلك دهرًا، بلا ملك يقود جيوشهم ضد عدوهم، فطلبوا من أحد أنبيائهم أن يقيم لهم ملكًا يقاتلون معه أعداءهم، فقال لهم نبيهم: هل عسيتم إن أقام الله لكم ملكًا، ألا تفوا بما التزتموه من القتال معه؟ فأكدوا له عزيمتهم.

فكان الامتحان الأول أن الله عين لهم ملكًا هو طالوت.

وطالوت لم يكن من بيوت الملوك ولا الوجهاء ولا الأغنياء، بل كان فقيرًا، فاعترض بنو إسرائيل على تعيينه ملكًا، فكان ذلك أول إخفاق في هذا الامتحان.

قال نبيهم: إن الله هو الذي اختاره لكم ولست أنا! والله يعلم أنه أفضل منكم في العلم والمعرفة والقوة البدنية وبهاء المنظر، وأن هذا حكم الله، فسلموا له وارضوا به واعملوا به.

فأصبح طالوت ملكًا عليهم، وأيده الله بالآيات، فلما عبأ الجيش لمناجزة العدو لم يخرج معه إلا القليل، إذ لم يوف الجميع بما وعدوا به ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

وكان عداد جيش طالوت الذي خرج معه ثمانين ألفًا كما ذكر السدي^(١)، فلما مروا على نهر الشريعة بين الأردن وفلسطين؛ قال لهم طالوت مختبرًا عزائمهم:

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/٢٣٦.

﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهْكِكُمْ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وهذا ابتلاء السراء الذي تنزل له العزائم، وترتخي له المشاعر.

وقد روى البخاري عن البراء قال: (كنا أصحاب محمد ﷺ، نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، ولم يجاوز معه النهر إلا مؤمن؛ بضعة عشر وثلاثمئة)^(١).

وقال السدي وابن عباس: بل جاز معه أربعة آلاف، فلما نظروا إلى جالوت وجنوده، قالوا:

﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ورجع منهم ثلاثة آلاف، وستمئة وبضعة وثمانون، فلم يقاتلوا مع طالوت^(٢).

ولجأ طالوت ومن معه من القلة الصابرة الثابتة إلى التضرع إلى الله بأن ينصرهم، وأن يرزقهم الصبر والثبات، ذلك أن القلوب تنزل أمام طوفان القوة المادية، ولا يحميها إلا أن تلجأ إلى الله موقنة بقوته ونصره، فنصر الله هذه الفئة القليلة التي نجحت في كل الامتحانات، وثبتت في المعركة ولم تنهزم، ولم تجزع من سطوة الابتلاء، وقتل داود جالوت زعيم عدوهم، وكان دواود حينها جندياً في جيش طالوت:

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبِّنَا أَمْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴿ [البقرة: ٢٥٠-٢٥١].

(١) أخرجه البخاري ٤/٤٠٩، ح ٣٩٥٠.

(٢) انظر: المحرر الوجيز ٢/١٤٧.

وفي هذا التفصيل لما حدث من ابتلاء في بني إسرائيل درسٌ لأصحاب محمد ﷺ، ولأمته من بعده، بأنَّ التمحيص لا يقف عند زمانٍ معين، بل هي سنةٌ ماضية جارية، وفي كل مرة يتمحص المؤمنون، وتظهر معادتهم للعيان، ويظهر المنافقون والكاذبون والمدَّعون، ويظهر الضعفاء والعاجزون والمنهزمون؛ الذين يلهيهم النهر حيث كان، وفي أي قالب يتشكل، والذين يخيفهم لمعان السيوف وصلصلة الأغلال..

لا بد من ذلك!

وأصحابُ محمد ﷺ يستوعبون الدرس، فيقارنون هذه القصة بما جرى في بدر.

وفي تعقيب الآية إشارة عظيمة، إذ يقول الله تعالى:

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾

[البقرة: ٢٥٢].

قال ابن عطية: (وفي هذه القصة بجملتها مثالٌ عظيم للمؤمنين ومعتبر، وقد كان أصحاب محمد ﷺ معدّين لحرب الكفار، فلهم في هذه النازلة معتبر؛ يقتضي تقوية النفوس والثقة بالله، وغير ذلك من وجوه العبرة)^(١).

لا بد لأهل الإسلام - في كل مراحل دعوتهم - من ابتلاءٍ يرفع الله به درجات الصابرين الثابتين منهم، وينقي صفهم من الدخلاء والعاجزين والمنافقين، وتظهر فيه معادن كلا الفريقين.

لا بد من الزلزلة!

(١) المحرر الوجيز ٢/ ١٥٠.

ولا بد من المواجهة مع أعداء الله الذين يصدون عن سبيله ويعادون أولياءه:

﴿وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُذَوُّهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

[آل عمران: ١٤٠-١٤٢].

فواهاً لمن ثبت الله أقدامهم ونور بصائرهم.

ويا رب ارزقنا الصبر عند المدلهمات.

ووقفنا للثبات حين تطيش العقول، وتبلغ القلوب الحناجر.

الفصل الرابع

رعاية العلم

أمة علم

العلم هو الذي يحول الإنسان من سفك للدماغ مفسد في الأرض إلى باني حضارة وعابد لله تعالى.

في بداية نشأة الأمة المسلمة احتاج الناس إلى إدراك أثر العلم في التشييد الحضاري والبناء الإنساني، لأنَّ الجهل مؤذن بانتشار الرذيلة والظغيان وسفك الدماء، ولأنَّ الجهل نافذة تفتح على فضاء من العدمية والعبثية والسخافة.

هكذا يعلمنا الله تعالى في سورة البقرة، من خلال قصة خلق آدم، وتعليمه الأسماء كلها، ما أعقبه سجود الملائكة لهذا المخلوق المكرَّم «آدم» وحسد الشيطان له، فإنَّ الله تعالى في مبدأ خلق السماوات والأرض وخلق آدم؛ أراد أن ينوه بشأن العلم في قيام حياة الخليقة، فاقترن خلقه لآدم بتعليمه، إذ لا تصلح حياة بني آدم من دون العلم، وكأنَّ تعليم آدم أمر اقتضاه عدل الله وفضله في جعله في الأرض خليفة، ولاحظ معي الآيات:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢١) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَوُنَبِّئُكُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ

إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ [البقرة: ٢٩-٣٥].

فتأمل مجيء العلم في سياق عمارة الأرض في مقابل للإفساد وسفك الدماء فيها!

وتأمل مجيء التعليم عقب الخلق.

وتأمل مجيء السجود لآدم تكريمًا عقب التعليم.

وتأمل إسكان آدم الجنة عقب التعليم.

فمن هو آدم إذا لو لم يعلمه الله تعالى!

وكيف ستعيش ذريته لو لم يتعلموا!

إما العلم النافع، وإما الفساد والإفساد وسفك الدماء.

إما العلم النافع، وإما التردّي في ظلمات الجهل والجريمة والبعث عن الله تعالى.

وحين استدلت الملائكة على عدم صلوحية هذا المخلوق لأن يكون في الأرض خليفة بإفساده وسفكه للدماء؛ استدلت المولى الكريم على صلوحيته بتعليمه. قال ابن عاشور: (وفي هذه الآية منزع بديع لتعظيم شأن العلم، وجدارة العلماء بالتعظيم والتبجيل، لأنّ الله لما علم آدم علمًا لم يؤهل له الملائكة؛ كان قد جعل آدم نموذجًا للمبدعات والمخترعات والعلوم التي ظهرت في البشر من بعد، والتي ستظهر، إلى فناء هذا العالم)^(١).

(١) التحرير والتنوير ١/ ٤٢٢.

ولقد استقر تعظيم العلم وأهله في المخلوقات، على تعاقب العصور والقرون، هذا هو مقتضى الإرادة الإلهية، يدل على ذلك ما رواه قيس بن كثير، قال: قدم رجل من المدينة على أبي الدرداء وهو بدمشق فقال: ما أقدمك يا أخي؟ فقال: حديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ.

قال: أما جئت لحاجة؟

قال: لا.

قال: أما قدمت لتجارة؟

قال: لا.

قال: ما جئت إلا في طلب هذا الحديث! فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من سلك طريقاً يتبغي فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة.

وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم.

وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء.

وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب.

وإن العلماء ورثة الأنبياء!

وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم؛ فمن أخذ به أخذ

بحظ وافر»^(١).

فالنبي ﷺ يحدثنا عن تعظيم الملائكة للعلم وأهله، وعن تعظيم المخلوقات

جميعاً - في البر والبحر، وفي الأرض والسماء، بما فيها من الحيوانات والطيور

(١) أخرجه أحمد ٤٦/٣٦، ح ٢١٧١٥.

والحشرات والزواحف وكل شيء - للعلم وأهله، حتى إنهم ليستغفرون لأهل العلم.

وبيّن ﷺ أن العلماء هم أعمار الدنيا المنيرة، وهم ورثة الأنبياء وخلفاؤهم وأشباههم.

وهي رسالة إلى المؤمنين بأن العلم طريق للعبودية لله تعالى، وسبيل للرفي في الحياة وعمارة الأرض.

وعلى العلم قامت الحضارات وتنشأت الأمم، وبه شقت طرقها، على اختلاف في مشاربها وألوانها.

وأكثر وجهتين علميتين احتكاكًا بأمة الإسلام الجديدة آنذاك كانتا: الروم النصرانية، ويهود الحجاز.

ففي أوروبا ازدوجت العلوم اليونانية بالإمبراطورية الرومية، إذ تفوق الرومان في السلاح والعسكرية، وفي التنظيمات الإدارية والسياسية، وتفوقت اليونان في العلوم: الفلسفة والهندسة، فتشكل منهما مزيج حضاري ذو طابع خاص.

وفي يثرب كان أحبار اليهود يعلمون أبناءهم وينشرون علمهم في الأوساط المحيطة، وكان لهم مدارس معروفة.

وكانت العرب تنظر إلى الدول المجاورة نظرة تعظيم من عدد من الزوايا، وكانت العلوم واحدة من تلك الزوايا التي ينظر العرب فيها إلى غيرهم نظرة التعظيم تلك، وهكذا كان الحال مع يهود الحجاز.

وعلى سبيل المثال؛ فقد أورد ابن إسحاق خبر النضر بن الحارث، الدال على وقوع العرب تحت وطأة الإعجاب العلمي، فيقول: (كان النضر من شياطين قريش،

وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك فارس وأحاديث رستم وأسفندباد، وكان رسول الله ﷺ إذا جلس مجلساً يذكر فيه بالله، ويحدّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله؛ خلفه في مجلسه إذا قام، ثم يقول: أنا -والله- يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلّموا، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وأسفندباد، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثاً مني؟ فلما قال النضر ذلك بعثوه، وبعثوا معه عقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهما: سلاهم عن محمد، ووصفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا؛ من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة، فسألأ أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله، وقالوا لهم: إنكم أهل التوراة، فقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا.

فقال لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاثٍ يأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّلٌ، فَرُوا فيه رأيكم، سلوه عن فِتيّة ذهبوا في الدهر الأول؛ ما كان من أمرهم؟ فإنه كان لهم حديث عجب. وسلوه عن رجل طَوَّافٍ، قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها؛ ما كان بناؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فهو رجل متقوِّلٌ، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما مكة على قريش، فقالا: يا معشر قريش! قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبارُ يهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها،...^(١).

فتأمّل انهزام النفسية القرشية أمام العلوم الأجنبية!

(١) السير والمغازي ص ٢٠٢.

على الرغم مما تملكه من إرث إبراهيمي فإنها ترى لنفسها الدونية في موقعها الثقافي والفكري أمام الآخرين.

ولا يعني أن العرب كانوا أمة لا تعتنى بالعلم، وقد قرر الشاطبي وغيره أن العرب كان لهم اعتناء بعلم النجوم وعلوم الأنواء، وعلم الطب وغيرها من العلوم^(١). كانت العرب تعتنى بشيء منها، لكنها لم تهتد إلى العلم الذي يصلح حال الإنسان ويعرفه بربه وينظم حياته ويبنى أمته.

وكذلك ما وصلت إليه تلك الأمم والممالك من علوم وفنون؛ لم تُنر لها طريقها إلى الله تعالى، ولم تكن سبباً في الفوز برضاه والنجاة من عقابه، لأن العلم الذي لا يوصل إلى توحيد الله هو علم تدميري يعود على الأمم والممالك بالوبال والضياح والتمزق والشتات، والعلم الذي يرفع من منزلة الناس إلى مصاف الآلهة علم ناقص مشوه.

ثم إن أمة العرب - بعد الإسلام - أصبحت مركزاً علمياً عالمياً، مؤثراً في كل مجالات الحياة وفي كل أمم الأرض. فكيف كان ذلك؟

بالقرآن الكريم!

فإذا كان الأمر بالقراءة هو أول ما نزل في العهد المكي، وأول ما نزل في مبدأ الدعوة الإسلامية فإن سورة البقرة التي تنزلت في الصدر الأول من الهجرة المباركة كانت ترسخ في المؤمنين تعظيم شأن العلم، وتُشئ في المؤمنين عقل المفكر، وتشيد فيهم بناء الفقه.

كانت تسرد لهم حزمة من الأحكام الشرعية المهمة، بل حزمًا من الأحكام، ليتفقهوا في دينهم قبل أن يتوسع الكيان الإسلامي وتتراكم المهام الفردية

(١) الموافقات ٢/ ١١٢.

والجماعية، حزمة من أحكام الصيام، ومثلها من أحكام الحج، وقل مثل ذلك في الصلاة والصدقة، وأحكام النكاح والطلاق والرضاع والخطبة والعدة، وأحكام البيوع والدين والرهن، وأحكام القصاص والجهاد وغيرها.

أيضاً حذرت سورة البقرة من الانحرافات العلمية التي أودت بأهل الكتاب من قبلنا، فأصبحوا شذاً في الأرض؛ يتسولون الاستقرار والأوطان والأمان.

واستمر الحديث عن هذه القضايا العلمية من بدايات سورة البقرة إلى الآيات الأخيرة في سورة آل عمران، لتكون هاتان السورتان قد رسمتا لنا الخطة المنهجية للعلم والفقهِ؛ التي تبنى بها الأمة المسلمة، سواء كان من باب الوجود والطلب أو من باب العدم والترك.

فالحمد لله الذي لم يتركنا هملاً.

الجنابة العلمية

مرة أخرى؛ عجبت من البداية المبكرة لكشف فضائح الانحرافات العلمية التي تصف بها سورة البقرة أولئك الذين منَّ الله عليهم بالعلم من أهل الكتاب.

نحن نجد القرآن يبتدئ الحديث عن المنافقين، ثم نجده بالقرب من ذلك يتحدث عن انحرافات أهل العلم من بني إسرائيل، وهذه دروس ينبغي أن تعيها أمة الإسلام منذ البداية، منذ بداية النهوض، ومنذ بداية الاستيقاظ من السبات العميق.

على الأمة أن تعي أن هذا المسلك لا يؤدي بها إلا إلى الأودية السحيقة والدروب المظلمة.

في تلك الأزمنة التي فضل الله فيها بني إسرائيل على من سواهم من الأمم، إذ بُعث فيهم الأنبياء والمرسلون، وأنزلت معهم الكتب الإلهية تدلهم وترشدهم وتمنح حياتهم، فتعلم بنو إسرائيل كيف يعبدون الله تعالى، وتعلموا الأخلاق والصلة، وتعلموا كيف يبنون أمتهم بطريقة مستقيمة، وعرفوا طريق الحق وطرق الضلالة والانحراف والهمجية، وبقي غيرهم من الأمم يتخبط في التيه والضلال؛ يستعبدون بعضهم وينهشون البعض الآخر، ويتسافدون كتسافد البهائم، وتقتلهم الحيرة والشكوك وتمزقهم العدمية والإلحاد؛ في أمور يطول ذكرها وسرد تفاصيلها.. في تلك الدهور كان بنو إسرائيل يتربعون على عرش التفضيل الرباني:

﴿يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧].

فأيُّ نعمةٍ أعظم من هذه؟

وأيُّ تفضيل يداني هذا؟

لكن بني إسرائيل أخطئوا الطريق!

لقد تنكب كثير من المتعلمين منهم الاستقامة العلمية.

وجنوا على النصوص.

والجناية على النصوص وصف اقتبسته من كلام ابن القيم رحمه الله حين ناقش أهل الأهواء من الفرق الضالة في انحرافهم العلمي، وهو وصف بديع يقرب لك حجم الجريمة التي ارتكبتها هؤلاء في حق العلم. وكذلك كانت بنو إسرائيل.

ولقد أخبرنا النبي ﷺ أننا ستبعمهم في أخطائهم: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها، شبرًا بشبر وذراعًا بذراع). فقيل: يا رسول الله، كفارس والروم؟ فقال: (ومن الناس إلا أولئك).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (لتبعن سنن من كان قبلكم، شبرًا شبرًا وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم). قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: (فمن)^(١). وصدق ﷺ.

فما الانحرافات التي وقع فيها المشتغلون بالعلم من بني إسرائيل، أو الذين سماهم الله تبارك وتعالى: أهل الكتاب؟

ما هذه الآفات التي شرخت صروح العلم في الأمم من قبلنا؟

(١) أخرجهما البخاري ٤١٩/٧، ح ٧٣١٦، ٧٣١٥.

ما هذه المسلكيات التي من شأنها أن تكون سبباً في فساد الأمم والجماعات، والتي لا ترتبط بزمان ولا بمكان، وإنما ترتبط بقدرة الأفراد على الحفاظ على بنائهم العلمي، أو ضعفهم وعجزهم عن ذلك؟

والحق أن التنبيه على هذه المسألة أخذ حيزاً كبيراً في القرآن المدني بوجه عام، وفي سورتي البقرة وآل عمران بوجه خاص، لأن المعارف والعلوم في حد ذاتها لا تبني الأمة المسلمة.

وهذا درس في حد ذاته.

وانظر إلى ما وصل إليه العالم الغربي اليوم من الفنون والعلوم، ولكنها لا تصلح لبناء أمة مسلمة.

وإنما يبني الأمة المسلمة العلم ذو المنهجية القرآنية، العلم الذي تحفه الرقابة الأخلاقية، هذا هو الحد الفاصل بين العلم الباني والعلم التدميري، بين العلم الذي انتهجه أصحاب النبي ﷺ والتابعون لهم بإحسان والعلم الذي انتهجته بنو إسرائيل من قبل، وعلى طريقهم تسير الأمم الكافرة اليوم.

ألا ترى في سورة البقرة -مثلاً- أن القرآن يقرر أن السحر علم! لكن هذا العلم كفر بالله تعالى:

﴿يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ومثل هذا التوجيه في القرآن يحمل معلومة ما، ويحمل أيضًا معه منهجًا أخلاقيًا في تلقي العلم ونشره.. هكذا نوذي على أصحاب النبي ﷺ في صبيحة تكوين الأمة المسلمة، وهكذا عودنا الوحي.

ومن هذه الجنايات والانحرافات العلمية ما يأتي:

بذل العلم ثمنًا لنيل المكاسب الدنيوية:

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٤١].

وهذا مسلك خطر من مسالك من آتاهم الله علمًا من أهل الكتاب، وهو استخدام العلم في قضاء المصالح الشخصية، سواء كانت مالية كالرشي والنقود والمتاع، أو معنوية كالترقي في الرتب الوظيفية والمناصب الوظيفية والفوز برضا المسؤول والسلامة من غضب السلطان ونحو ذلك.

لقد امتهن علماء بني إسرائيل العلم، حتى صاروا يسامون به، ولكثرة وقوعهم فيه ضاعت حقيقة العلم، وأصبح للمفتي رأيان: حق وباطل، وأصبح للعالم قولان: صدق وافتراء، وكلاهما يُبذل حسب الدفع!

فحقيقة الصفقة أنها تتضمن أمرين:

أولهما التخلي عن واجبات الإيمان وتكاليف الشريعة خوف فوات حظ الدنيا. وثانيهما بذل العلم في الطريق الجالبة لحظ الدنيا، ولو كان باطلاً أو بهتاناً أو افتراء على الله.

فما أخسر هذه الصفقة!

ولقد سماها الله: ثمنًا قليلًا.

قال البيضاوي: (ولا تستبدلوا بالإيمان بها والاتباع لها حظوظ الدنيا، فإنها وإن جلت قليلة مستردلة، بالإضافة إلى ما يفوت عنكم من حظوظ الآخرة بترك الإيمان، قيل: كان لهم رئاسة في قومهم ورسوّم وهدايا منهم، فخافوا عليها لو اتبعوا رسول الله ﷺ فاختاروها عليه، وقيل: كانوا يأخذون الرشى فيحرفون الحق ويكتمونه)^(١).

وقال محمد رشيد رضا: (تستبدلون بهدايته هذا الثمن القليل، وهو ما يستفيده رؤساؤكم من المرؤوسين من مال وجاه أوقعاهم في الكبر، وما يتوقعه المرؤوسون من الزلفى والحظوة بتقليد الرؤساء واتباعهم، وما يخشونه إذا خالفوهم من المهانة والذلة، وإنما سمي هذا الجزاء قليلاً؛ لأن كل ما عدا الحق قليلٌ وحقيراً بالنسبة إليه، وكيف لا يكون قليلاً وصاحبُه يخسر عقله وروحه قبل كل شيء؛ لإعراضه عن الآيات البينات والبراهين الواضحات؟ ثم إنه يخسر عزَّ الحق وما يكون له من الشأن العظيم وحسن العاقبة، ثم إنه يخسر مرضاة الله تعالى، وتحل به نقمه في الدنيا وعقوبته في الآخرة)^(٢).

وما ذكره محمد رشيد رضا جدير بالتأمل.

وأنا -أيها القارئ الكريم- أُلجأ إلى الله بالدعاء لي ولك بأن يثبتنا الله على دينه القويم، وألا يجعلنا مطية لأهل الدنيا، وألا يفتننا في ديننا فنهلك كما هلك الذين أوتوا الكتاب من قبلنا.

ولقد اعتنى سلفنا الصالح بهذه الآية وأورثتهم خوفاً وخشية على أنفسهم مما تضمنته، وأسهبوا في بيان معناها، وألحقوا -في الحديث عنها- فروعاً فقهية تدل على عنايتهم بمضمونها، ثم إنهم عمدوا إلى دنياهم فقطعوا حبال التعلق بها، واعتزل

(١) أنوار التنزيل ١/ ٧٦.

(٢) المنار ١/ ٢٤٣.

كثير منهم أهل الدنيا من الرؤساء والكبراء خشية على دينهم من الزيغ، وانظر - بعين التأمل - إلى ما قاله الشوكاني: (فمن أخذ من المسلمين رشوة على إبطال حق أمر الله به، أو إثبات باطل نهى الله عنه، أو امتنع من تعليم ما علمه الله، وكتب البيان الذي أخذ الله عليه ميثاقه به، فقد اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً)^(١).

وإنَّ الخشية من الله والخوف من سوء الحساب والتيقظ الوجداني لتمنع بإذن الله من الوقوع في موبقة كهذه الموبقة، ألا ترى أنَّ الله تعالى ختم الآية بقوله:

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٤١].

وختم سورة آل عمران بقوله:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

فجمع في الأولى بين التقوى والامتناع من هذه الموبقة.

وجمع في الأخرى بين الخشوع القلبي والامتناع من هذه الموبقة!

ومعنى ذلك أنَّ الذين قدموا حظوظ الدنيا وكسب الأموال ورضا الرؤساء على حق العلم والصدع به قلَّ حظهم من التقوى وقلَّ حظهم من الخشوع؛ ولو لبسوا عباءة المتقين واعتمروا عمامة الخاشعين، إذ لا يمكن اجتماع الخشوع الحقيقي مع بذل العلم في كسب دنيا أو رضا رئيس أو تجميع أتباع أو تولي مناصب.

ذلك قانون الخشوع الحقيقي..

﴿خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

(١) فتح القدير ١/ ٨٨.

وفي هذا الملحظ التربوي يقول السعدي: (وهؤلاء أهل الكتاب والعلم على الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، ومن تمام خشيتهم لله أنهم لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، فلا يقدمون الدنيا على الدين، كما فعل أهل الانحراف الذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون به ثمناً قليلاً، وأما هؤلاء فعرفوا الأمر على الحقيقة، وعلموا أن من أعظم الخسران الرضا بالدون عن الدين، والوقوف مع بعض حظوظ النفس السفلية، وترك الحق الذي هو أكبر حظ وفوز في الدنيا والآخرة، فأثروا الحق وبينوه ودعوا إليه، وحذروا من الباطل، فأثابهم الله على ذلك بأن وعدهم الأجر الجزيل والثواب الجميل، وأخبرهم بقربه وأنه سريع الحساب، فلا يستبطئون ما وعدهم الله، لأن ما هو آتٍ محقق حصوله فهو قريب^(١).

تخليط المعاني بقصد التلبيس:

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ٤٢].

ولبس الحق بالباطل تخليطهما ببعض؛ فيغتر الناظر بوجود الحق فيقبله كله، بما فيه من باطل مدسوس، أو يكون باللباس الباطل ثوباً من الحق، فيظن الناظر أن كل ما تحته حق، ولا يرى الباطل المستتر تحته، قال البيضاوي: (والمعنى لا تخلطوا الحق المنزل عليكم بالباطل الذي تخرعون وتكتمونه حتى لا يميز بينهما، أو ولا تجعلوا الحق ملتبساً بسبب خلط الباطل الذي تكتبونه في خلاله، أو تذكرونه في تأويله)^(٢).

والحق: التوراة التي أنزل الله على موسى، والباطل: الذي كتبه بأيديهم، كما ذكر ذلك ابن زيد^(٣)، فإن التوراة نزلت من عند الله، ولكن طالتها أيدي العابثين من العلماء والرؤساء، فأدرجت فيها ما ليس منها.

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٧٢.

(٢) أنوار التنزيل ١/ ٧٦.

(٣) جامع البيان ١/ ٦٠٧.

ومما جاءت به: الإخبار عن مبعث نبينا محمد ﷺ ووجوب الإيمان به على صفات ونعوت ذكرتها، ومحمد رشيد رضا يقرب لك هذا المسلك التضليلي، فيقول: (قد جاء في كتبهم التحذير من أنبياء كذبة، يُعثون فيهم ويعملون العجائب، وجاء فيها أيضًا أنه تعالى يبعث فيهم نبياً من ولد إسماعيل يقيم به أمة، وأنه يكون من ولد الجارية هاجر، ويبيّن علاماته بما لا لبس فيه ولا اشتباه، ولكن الأخبار والرؤساء كانوا يلبسون على العامة الحق بالباطل؛ فيوهمونهم أنّ النبي ﷺ من الأنبياء الذين نعتهم الكتب بالكذبة -حاشاه- ويكتمون ما يعرفون من نعوته التي لا تنطبق على سواه، وما يعلمون من صفات الأنبياء الصادقين، وما يدعون إليه، وكله ظاهر فيه بأكمل المظاهر).

وبهذا الصنيع أضلّ علماء بني إسرائيل الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ.

ولم يكن لبس الحق بالباطل مقصوراً على مسألة الإيمان بمحمد ﷺ، بل قد تعدى إلى أمور كثيرة؛ حتى أصبحت التوراة لا تصلح للاهتداء ولا الاستهداء مما لحقها من التخليط، يقول رشيد رضا: (ومن اللبس أيضًا ما يفتره الرؤساء والأخبار، وهو لبس أصول الدين بالمحدثات والتقاليد التي زادوها على الكتب المنزلة، بضروب من التأويل والاستنباط من كلام بعض المتقدمين وأفعالهم، فكانوا يُحكّمون هذه الزيادات في الدين؛ حتى في كتب الأنبياء، ويعتذرون بأنّ الأقدمين أعلم بكلام الأنبياء وأشدّ اتباعاً لهم، فهم الوساطة بينهم وبين الأنبياء، وعلى من بعدهم الأخذ بما يقولون دون ما يقول الأنبياء الذين يصعب عليهم فهم كلامهم بزعمهم)^(١).

فحقيقة الأمر أنّ الشرائع التي جاءت بها رسل بني إسرائيل تخضع لعمليات التحريف المموّه، والذي يختلط فيه الحق بالباطل، ويُخدع به الناس فيضلون.

(١) المنار ١/ ٢٤٣.

وكل هذا التلبس وتخليط المعاني وتخريب الشرائع قام به علماء بني إسرائيل واجتهدوا له تنظيراً وتعميداً وتأليفاً وتنسيقاً، ليتكون من ذلك دين مختلق، مختلف عن دين الله الذي أنزله وارتضاه، فأصبحوا بذلك جيشاً علمياً يحارب الله ورسوله من خلال العلم المزيف.

والسردي التاريخي للمذاهب الباطلة والفرق الضالة المحدثه، يثبت أن فكرة (لبس الحق بالباطل) ذات مفعول قوي في ترويح العقائد الباطلة والابتداع في الدين والصد عن سبيل الله، وابن عاشور يخلص إلى أن اللبس هو مبدأ التضليل والإلحاد في الأمور المشهورة، وأن أكثر أنواع الضلال الذي أدخل في الإسلام هو من قبيل لبس الحق بالباطل، واستشهد على ذلك بشبه الذين ارتدوا عن الإسلام بعد وفاة نبينا ﷺ، وشبه الناقلين على عثمان بن عفان ﷺ، وشبه الخارجين على علي بن أبي طالب ﷺ، وشبه الباطنيين والمتفلسفين والمرجئة وغيرهم^(١).

كتمان الحق وإخفاء المعلومات:

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢].

وكتمان الحق بإخفائه وصرف الناس عنه إلى غيره، قال الرازي: (واعلم أن إضلال الغير لا يحصل إلا بطريقتين؛ وذلك لأن ذلك الغير إن كان قد سمع دلائل الحق فإضلاله لا يمكن إلا بتشويش تلك الدلائل عليه، وإن كان ما سمعها فإضلاله إنما يمكن بإخفاء تلك الدلائل عنه ومنعه من الوصول إليها.

فقوله: «ولا تلبسوا الحق» بالباطل إشارة إلى القسم الأول، وهو تشويش الدلائل عليه، وقوله: «وتكتموا الحق» إشارة إلى القسم الثاني، وهو منعه من

(١) انظر: التحرير والتنوير ١/ ٤٧١.

الوصول إلى الدلائل^(١).

والحق الذي كان يكتمه علماء بني إسرائيل يتمثل في عدد من العقائد والشرائع، وعلى رأسها الإيمان بنبوّة محمد ﷺ وشريعته، لا سيما من عاصر منهم زمن النبوّة المحمدية، قال قتادة والربيع: (كتموا شأن محمد، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل؛ يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر)^(٢):

﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وإذا كان المقدمون في الأمم -كالعلماء- يخفون الحق ولا يظهرونه للناس؛
فماذا سيؤمن عامة الناس إذا؟

وعلى ماذا ستبنى عقائدهم؟

وما الشريعة التي سيتكلفون بها تحملاً وأداءً؟

وما حال المجتمعات التي لا تعرف الحق، وإنما تعرف قليلاً منه وكثيراً من
الباطل؟

فيا لغربة المتمسكين حينها.

وهكذا يكون كتمان الحق وعدم إظهاره -لأي سبب كان- جريمة في حق الله تعالى، وجريمة في حق الأمة، ويكون العلماء والمتعلمون الذين يتعمدون كتمان الحق قد صفوا أقدامهم ورسوا صفوفهم في كتيبة المضلين من أعداء الأمة، لذلك استحقوا غضب الله ومقتته، سواء كان كتمانهم للحق رغبة أو رهبة:

(١) مفاتيح الغيب ٤٣/٣.

(٢) جامع البيان ٤٩٤/٥.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۗ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ۖ مِمَّا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٥﴾ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ ۖ وَالْعَذَابُ بِالْمُعْفَرَةِ ۖ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ [البقرة: ١٧٤-١٧٥].

قال ابن كثير: (هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب، من بعد ما بينه الله تعالى لعباده في كتبه التي أنزلها على رسله، قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب، كتموا صفة محمد ﷺ، ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء، حتى الحوت في الماء، والطير في الهواء، فهؤلاء بخلاف العلماء الذين يكتمون، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. وقد ورد في الحديث المسند^(١) من طرق يشد بعضها بعضاً، عن أبي هريرة وغيره: أن رسول الله ﷺ قال: «من سئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار»^(٢)).

وابن العربي المالكي ومثله القرطبي يضعان قيداً لاستحقاق الوعيد، وهو أن العالم إذا قصد الكتمان عصى.

وإذا لم يقصده لم يلزمه التبليغ؛ إذا عرف أن معه غيره من أهل العلم الذين يبلغون.

وأما من سئل فقد وجب عليه التبليغ، لهذه الآية.

(١) المسند ١٦/٢٦٤، ح ١٠٤٢٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/٢٦.

ومن تعيّن عليه البلاغ لعدم الاكتفاء لزمه^(١).

والسورة كررت مسألة كتمان الحق، لأنه في وقت الحاجة إلى بيانه يعدّ جريمة علمية وسقوطاً أخلاقياً؛ نأى القرآن الكريم بالمؤمنين أن يقربوه:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَدَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾
[البقرة: ١٤٠].

التملص من واجبات الشرع:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾
[البقرة: ٤٤].

كيف تجعلون من الدعوة إلى الله وتعليم الناس أمور دينهم مجرد صنعة احترافية ومهنة مادية خالية من الروح والوهج؟ وذلك بأنهم لا يعملون بما يعلمون، وهذا المسلك يردي بهم ولا شك.

وانتفاء القدوة في أهل العلم يبعث تصورات خاطئة عن التزام الشريعة، فيقول قائل: لو كان هذا الذي يقوله أهل العلم حقاً لكانوا أولى الناس بتطبيقه، ولكنوا أقدر الناس على فعله، لكنه ليس كذلك، فالحق قابل للتطبيق والتنفيذ، وما دام أن أهل العلم عجزوا عن تطبيقه فعامّة الناس من باب أولى.

وهكذا حتى تضيع الشريعة والإيمان.

وسيحيء الوقت الذي يعاقب فيه هذا الجاني على نفسه وعلى الشريعة بعقوبة مخصوصة، قال رسول الله ﷺ: «يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيُلقي في النار، فتندلق

(١) أحكام القرآن ١/ ٧٢، الجامع لأحكام القرآن ١/ ١٢٤.

به أفتابه، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار، فيقولون: يا فلان ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت أمركم بالمعروف ولا آتية، وأناهاكم عن المنكر وآتية»^(١).

فاللهم رحمتك نرجو، فاغفر لنا وارحمنا.

وقد يجد طالب العلم فرصة في الترخيص المستمر وفي تمييع الدين، وذلك بتطويعه للعلم الذي من الله به عليه، ثم لا يلبث أن يجد نفسه في منأى عن التزام الشريعة! وهذا ما حذر منه أهل العلم والمحققون، فقالوا: «من تتبع الرخص فقد تزندق»، لأن الحركة العلمية الهائلة التي شهدتها القرون الأولى لم تخل من أخطاء؛ كان لها أسبابها التي حررها العلماء المحققون، ومن أبرز ما دُوّن في ذلك كتاب: «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فلا يصح أن تكون تلك الأخطاء ديناً متبعاً.

قال إسماعيل بن إسحاق القاضي: دخلت على المعتضد، فدفع إليّ كتاباً، فنظرت فيه، فإذا قد جُمع له فيه الرخص من زلل العلماء، فقلت: مصنّف هذا زنديق.

فقال: ألم تصح هذه الأحاديث؟

قلت: بلى، ولكن من أباح المسكر لم يُبَحَّ المتعة، ومن أباح المتعة لم يُبَحَّ الغناء، وما من عالم إلا وله زلة، ومن أخذ بكل زلل العلماء ذهب دينه.

فأمر بالكتاب فأحرق^(٢).

(١) أخرجه البخاري ٤/ ٦١، ح ٣٢٧٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٦٥.

الاحتيايل على النصوص:

﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ أَعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾﴾
فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦].

قال ابن كثير: (ولقد علمتم -يا معشر اليهود- ما حلَّ من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله، وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره، إذ كان مشروعاً لهم، فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت، بما وضعوا لها من الشصوص والحبال والبرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت على عاداتها في الكثرة نشبت بتلك الحبال والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت. فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة)^(١).

حين لم يتمكنوا من تأويل النصوص أو ردها عمدوا إلى التحايل عليها، فصنعوا حيلة تخفف عنهم الحمل، وتحمل عنهم التبعة صورياً، فإذا قيل لهم: ارتكبتم خطأ قالوا: انظر إلينا! أين الخطأ؟ وما وجه اللوم؟ فنحن لم نفعل محذوراً يوم السبت! فاستحقوا العقوبة العاجلة في الدنيا.

عدم الثقة بالنصوص:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنظَرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة: ٥٥].

فلم يكفهم ما أنزل الله على رسوله، فطلبوا رؤية الله عياناً بأبصارهم لكي يصدقوا أن ما جاء به موسى حق!

(١) تفسير القرآن العظيم / ١ / ٤٣٢.

ضعف الثقة بنصوص الوحي مؤذن بغضب الله تعالى ومقتته، ومنه التردد في التسليم لها والإيمان بمضمونها والعمل بما فيها من الشريعة، وكيف يزعم العلم والإيمان من يرى قصور النصوص الشرعية عن الوفاء بمتطلبات الحياة؟ وكيف يزعم العلم والإيمان من يرى سنة الرسول ﷺ غير صالحة للعمل بها في هذا الزمان؟

وكيف يزعم العلم والإيمان من يقدر المحسوسات والماديات على الغيبات؟

كيف يزعم العلم والإيمان من يظن أننا بحاجة إلى معالجات أجنبية لقضايانا المعيشية؟

قال الطبري: (واذكروا أيضًا إذ قلتُم: يا موسىٰ لن نصدقك ولن نقر بما جئتنا به حتىٰ نرىٰ الله جهرة عيانًا، برفع الساتر بيننا وبينه، وكشف الغطاء دوننا ودونه حتىٰ ننظر إليه بأبصارنا)^(١).

وهذه معضلة الذين يعظمون المحسوسات، وينهرون بالماديات، فيثقون بها أكثر من إيمانهم بالغيب الذي جاءت به الرسل، ويقيمونها مقام القطعيات من الأدلة، فإذا قيل لهم: قال الله وقال رسول الله، قالوا: أثبت «العلم الحديث»، وأثبتت الدراسات، والواقع يقول، وهلمَّ جراً، وبعضهم تجاوز الحد فقال: الناس وصلوا إلى القمر واكتشفوا الذرة وصنعوا التكنولوجيا وتريدوننا أن نتبع الشرع القديم!

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَايَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣].

(١) جامع البيان ١/٦٨٧.

بعد أخذ الميثاق ورفع الطور وإيتائهم الكتاب، اتخذوا عجباً يؤلهونه!

أليس ذلك هو الضلال؟

تالله إن شريعة الله جاءت بما يكفيننا عن ما أنتجته عقول البشر.

وتالله إن كتاب الله أغنانا عن كل عجل ذهبي!

تحريف المعنى والتأويل الفاسد:

﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْكِتَابِ وَقَدْ كَانَفَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

قال ابن زيد: (التوراة التي أنزلها عليهم يحرفونها، يجعلون الحلال فيها حراماً والحرام فيها حلالاً، والحق فيها باطلاً والباطل فيها حقاً، إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه محق، وإن جاء أحد يسألهم شيئاً ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء أمره بالحق)^(١).

ومن تحريف كلام الله تعالى تأويله بالباطل، أي إيجاد معنى له غير المعنى الصحيح، وهو صرف المعنى الظاهر والصحيح إلى معنى آخر، للوصول إلى ما تمليه الأهواء والعقول، قال ابن عطية: (وتحريف الشيء إحالته من حال إلى حال، وذهب ابن عباس رضي الله عنه إلى أن تحريفهم وتبديلهم إنما هو بالتأويل ولفظ التوراة باق)^(٢):

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونِ السَّنْتَهِمَ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

(١) جامع البيان ٢/ ١٤١.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٥٩.

قال ابن عطية: (معناه يحرفون ويتحيلون بتبديل المعاني من جهة اشتباه الألفاظ واشتراكها وتشعب التأويلات فيها)^(١).

وابن القيم يقرر أنّ خراب العالم وفساد الدنيا والدين كان بسبب فتح باب التأويل، ويذكر ملاحظة مهمة للغاية، تكشف لك خطر هذا الباب في التحريف، فيقول: (فالأهواء المتولدة من قبيل التأويلات الباطلة غير محصورة ولا متناهية، بل هي زائدة نامية، بحسب سوانح المتأولين وخواطرهم، وما تخرجه إليه ظنونهم وأوهامهم، ولذلك لا يزال المستقصي عناء نفسه في البحث عن المقالات وتتبعها يهجم على أقوال من مذاهب أهل التأويل؛ لم تكن تخطر له على بال، ولا تدور له في خيال، ويرى أمواجاً من زبد الصدور تتلاطم، ليس لها ضابط؛ إلا سوانح وخواطر وهوس تقذف به النفوس التي لم يؤيدها الله بروح الحق، ولا أشرفت عليها شمس الهداية، ولا باشرت حقيقة الإيمان، فخواطرها وهوسها لا غاية له يقف عندها)^(٢).

وهي ملاحظة تفسر لنا ظهور التأويلات الفاسدة الجديدة، زمنًا بعد زمن، إلى يومنا هذا، لأنه من غير تعب يستطيع الجاني على النصوص أن يتلاعب في معانيها، وهؤلاء الجناة هم أحق بالحبس من الزعار وقطاع الطريق، ولا قوة إلا بالله.

والآيات في سورة البقرة - في آفات العلم وإشكالاته - نزلت لتحذّر الأمة المسلمة من أن تسلك مسلك أهل الكتاب من قبلنا، حيال هذه الآفات.

وعلى هذه الآيات تربى أصحاب نبينا ﷺ، ليكونوا فقهاء علماء ربانيين، متجردين من حظوظ النفس، مدركين لخطر الانزلاق في مهاوي الآفات، معظّمين للعلم ولأدلته.

(١) المحرر الوجيز ٤٧٦/٢.

(٢) انظر: الصواعق المرسلّة ٣٤٨/١ وما بعدها.

فرضي الله عنهم وأرضاهم، وعصمني وإياكم من زيغ القلوب والآراء، وجعلنا
من الذين يتلون الكتاب حق تلاوته.

البواعث الخفية

منذ البدايات الأولى لسورة البقرة يطلعك القرآن على مركزية عمل القلب في تلقي الأدلة والنصوص؛ قبولاً ورفضاً، فيخبرك أنه لا ينتفع من نصوص الوحي إلا من فتح لها نوافذ قلبه وأشرع لها أبواب وجدانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة: ٦-٧].

قال البغوي في معنى ختم: (طبع الله على قلوبهم، فلا تعي خيراً ولا تفهمه)^(١). أي أنّ الانتفاع بكلام الله وحدوث التغيير بالتأثر بآيات القرآن لا يتحصلان والقلب غير مهياً لذلك، بل ويذهب الرازي إلى أبعد من ذلك فيستدل بالآية السابقة على أنّ محل العلم هو القلب^(٢).

ولقد كررت سورة البقرة الالتفات إلى القلب في التعامل مع الأحكام الشرعية، انظر إلى قوله تعالى:

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ﴿٢٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٢٨].

(١) معالم التنزيل ١ / ١٨ .

(٢) مفاتيح الغيب ٢ / ٥٥ .

قال البغوي: (إن أرادوا بالرجعة الصلاح وحسن العشرة لا الإضرار؛ كما كانوا يفعلونه في الجاهلية: كان الرجل يطلق امرأته، فإذا قرب انقضاء عدتها راجعها، ثم تركها مدة ثم طلقها، يقصد بذلك تطويل العدة عليها)^(١). ولأن إرادة الخير والشر محلها القلب، ولا تظهر للعيان؛ فإن الله تعالى يذكر الناس - في ثانيا تقرير الأحكام - بالاعتناء بها وعدم إغفالها:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتِدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۗ﴾
[البقرة: ٢٣١].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرَمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِنْبُ أَجَلَهُ، وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۗ﴾
[البقرة: ٢٣٥].

الإرادة القلبية هي الموجّه الحقيقي في تتبع مسائل العلم، وعليها مدار السعادة بالعلم أو الشقاء به، لذلك يخشى المؤمنون من غائلة الأهواء الدفينة فيبتهلون إلى الله متضرعين خائفين، معترفين بضعف قلوبهم ملتجئين إلى مولا لهم:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۗ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۗ﴾
[آل عمران: ٨].

لا تجعلنا ممن زاغت قلوبهم عن الحق فانعكس ذلك على طريقتهم في تتبع مسائل العلم.. نعوذ بك يا رب من ذلك.

(١) معالم التنزيل ١/ ٢٢٥.

زيع القلوب يستنهض المرء فيجعله يتتبع المتشابهات لأغراض فاسدة:

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾

[آل عمران: ٧].

قال الطبري: (فأما الذين في قلوبهم ميل عن الحق وحيث عنه فيتبعون من أي الكتاب ما تشابهت ألفاظه واحتمل صرفه في وجوه التأويلات، باحتماله المعاني المختلفة لإرادة اللبس على نفسه وعلى غيره، احتجاجاً به على باطله الذي مال إليه قلبه).

ثم قال: (وهذه الآية وإن كانت نزلت فيمن ذكرنا أنها نزلت فيه من أهل الشرك، فإنه معني بها كل مبتدع في دين الله بدعة، فمال قلبه إليها تأويلاً منه لبعض متشابه آي القرآن، ثم حاج به وجادل به أهل الحق، وعدل عن الواضح من أدلة آيه المحكمات، إرادة منه بذلك اللبس على أهل الحق من المؤمنين، وطلباً لعلم تأويل ما تشابه عليه من ذلك كائناً من كان، وأي أصناف البدعة كان؛ من أهل النصرانية كان أو اليهودية أو المجوسية، أو كان سبئياً أو حرورياً أو قدرياً أو جهمياً^(١)).

وهنا مسألتان في غاية الاهتمام القرآني: اتباع الهوى والبغي بغير الحق.

فاتباع الهوى يؤدي إلى الانتقاء من الأحكام وأدلتها ما يتماهى مع المصلحة الشخصية، لا مع الحق، فيصبح طالب العلم بلا منهج يسير عليه، وتصبح مواقفه سائلة، لا يُعرف لها ثبات ولا شكل محدد، مضطربة لا يُعرف لها انسجام:

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۗ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ

مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا

تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٥].

(١) جامع البيان ٥/٢١٣-٢١٤.

وإضافة إلى ما يؤدي إليه اتباع الهوى من الانتقائية في الاستدلال؛ فهو يؤدي أيضًا إلى الإعراض عن الاحتكام إلى النصوص التي لا تؤيد ما يذهب إليه المتبع هواه:

﴿الَّذِينَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَوِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣-٢٤].

ويذكر في سبب نزولها أن نبينا ﷺ أراد أن يحاكم اليهود في قضية إلى التوراة التي بين أيديهم فأبوا^(١). ولاحظ أن القرآن يكشف عن نواتج هذا الإعراض واتباع الهوى من افتراء على الله وتبديل للأحكام، فهم الذين:

﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بَقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ [آل عمران: ١٨٣].

﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

فاتباع الهوى إذا يؤدي إلى الأمرين: الانتقاء والإعراض.

والبغي إحدى علامات زيغ القلوب، وهو اعتداء تولد عن الحسد والتنافس، وهو ليس حسدًا وتنافسًا على شريف الأمور من الديانة والعمل الصالح ونفع الناس، وإنما هو حسد وتنافس على ما يثره أصحاب الرياسات على البعض من لعاعة الدنيا، وما يتحصلونه بالتقرب إليهم من المناصب التي يتفوقون بها على الناس:

(١) انظر: جامع البيان ٥/ ٢٩٣.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩].

قال أبو العالية: (بغياً على الدنيا، وطلب ملكها وسلطانها، فقتل بعضهم بعضاً على الدنيا، من بعد ما كانوا علماء الناس)^(١). وقال ابن كثير: (بغى بعضهم على بعض، فاختلّفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرههم، فحمل بعضهم بغض البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله، وإن كانت حقاً)^(٢).

وهذه النفسية الحسودة لا تقف عند حدٍّ حتى تتيقن من جرّ أهل الإسلام إلى حظيرة الكفر، وعند ذلك فقط سيتم لها الرضا والارتياح:

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩].

(١) جامع البيان ٥/ ٢٨٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٢٩.

عقل الفقيه

(الإيمان يزيد الفطنة، لأنَّ أصول اعتقاده مبنية على نبد كل ما من شأنه تضليل الرأي وطمس البصيرة)^(١).

هذه درة فريدة من كلام الطاهر ابن عاشور رحمه الله.

لم تكن التربية القرآنية لتنشئ أمة مغفلة لا تعرف كيف تستضيء بكتاب الله الذي أنعم عليها به، بل كانت تصنع عقولاً متفكرة ناقدة، عقولاً فقهية، لديها القدرة على التعامل مع الأدلة وتكييف الواقع.

إضافة إلى مسارد الأحكام الفقهية الشرعية العملية وبيان الانحرافات العلمية؛ اعتنت سورة البقرة ببيان قواعد النظر في الأحكام والأدلة، لتصوغ بذلك عقل المسلم وتجعل منه عقلاً فقهياً يجيد النظر في أدلة الأحكام.

فمن ذلك: بينت سورة البقرة المنزلة العليا للنصوص في الاستدلال؛ فالنص معصوم، وهو واجب الاتباع، ومتأكد الثقة به، ولا مجال للعقل في الحكم على قبوله:

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَارِيبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦].

(١) التحرير والتنوير ١ / ٢٧٥.

قال السعدي: (فيفهمونها، ويتفكرون فيها، فإن علموا ما اشتملت عليه على وجه التفصيل ازداد بذلك علمهم وإيمانهم، وإلا علموا أنها حق، وما اشتملت عليه حق وإن خفي عليهم وجه الحق فيها، لعلمهم بأن الله لم يضربها عبثاً، بل لحكمة بالغة ونعمة سابغة)^(١).

﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

﴿ذَلِكَ يَأْنَى اللَّهُ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾

[البقرة: ١٧٦].

وإن كان دأب بني إسرائيل إسقاط العصمة النصية، كما في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ
بِسْمَايَا مَرْكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣].

فإن دأب أصحاب النبي ﷺ هو السمع والطاعة والتسليم:

﴿ءَا مَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَا مَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ
وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ
الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ومن ذلك: ما أشارت إليه سورة البقرة من أثر التقوى والإيمان في معرفة الدليل وإصابة الحق وصحة الاستدلال، أي أن طلاب العلم المتقين هم أسعد الناس بالاستفادة من هدي القرآن وأدلته:

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٥٠.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

قال القرطبي: (وعدُّ من الله تعالى بأنَّ من اتقاه علمه، أي يجعل في قلبه نورًا يفهم به ما يلقي إليه، وقد يجعل الله في قلبه ابتداءً فرقانًا، أي فيصلاً يفصل به بين الحق والباطل)^(١).

ولذلك؛ فإنَّ الذين في قلوبهم مرض وريب وانحراف لا يوفقون إلى الاستهداء بالقرآن:

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

ومن ذلك: ما أشارت إليه السورة من أنَّ التفكير الصحيح الخالي من الأهواء والمؤثرات الفاسدة يوصل إلى النتائج الصحيحة، وأنَّ آيات الكون وتقلبات الحياة يستفيد منها هذا المتفكر العاقل.

ولذلك ينبغي أن يكون للإنسان حصة من أوقاته للنظر في ملكوت السماوات والأرض، لينظر في دورة الحيوانات وفيزياء الأجسام وكيمياء المواد، فهي - إذا صاحبها قلب مؤمن - أورثت تعظيم الله وعبادته:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٢٦٢.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ٢١-٢٢﴾.﴾

كما أشارت إلى أن أخطاء التفكير توصل إلى نتائج خاطئة:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿البقرة: ٢٨﴾.﴾

﴿وَقَالُوا أَخَذَ اللَّهُ وِلْدَانًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْبُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿البقرة: ١١٦-١١٧﴾.﴾

أي من خلق السماوات والأرض، وهو يملكها بما فيها ومن فيها، لا يحتاج لأن يكون له ولد، فإذا كنتم تؤمنون بأنه الخالق المالك وجب عليكم عقلاً أن تنفوا عنه الولد.

وهذا يقودنا إلى دليل الحس والمشاهدة، فهو دليل قوي إذا صحت طريقة الاستدلال به، وهو بهذا الوصف لا يمكن له بحال من الأحوال أن يعارض دليل الوحي، وهذا يلزم منه ألا يستقل بالاستدلال، لأن العقل يعتوره القصور أحياناً أو تؤثر في طريقة عمله المؤثرات، ألا ترى أن الذي مرَّ على القرية توصل إلى نتيجة خاطئة باستدلال عقلي خاطئ:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴿٢٥٩﴾ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴿البقرة: ٢٥٩﴾.﴾

وحين كان الناس يتوهمون فائدة الخمر والميسر لما تعود عليهم به من المكاسب المالية وانتشاء الروح ولذة الفؤاد وطرد الهموم وإطعام الفقراء وإكرام الضيوف؛

أجاب الله عن ذلك بأن ما فيهما من الضرر أكثر مما فيهما من النفع، وأشد خسارة في المال؛ لما يفضيان إليه من العداوة والبغضاء، والغفلة عن الواجبات الشرعية، واعتياد الكسل عن النشاط المطلوب في عمارة الأرض وكسب الرزق، وذهاب العقل المفضي إلى صدع المروءات وامتهان الدعارة، وأكل المال بغير وجه حق، وإيلاج الأمراض إلى الجسد، وغير ذلك من الآفات التي تتطلب تفكيراً صحيحاً:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

فلا بد من تصور مكتمل واستقراء تام لموضوع المسألة المبحوثة، لكي يبنى الحكم على العدل ويتوج بالصواب. وهذا ما يقودنا إلى قاعدة النظر التالية.

وهي ما أشارت إليه السورة من أهمية النظر في حقائق الأمور وكنهها، وترك الانسياق الأعمى لمجرد الظواهر دون تمحيص:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨-٩].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٥].

ونحوها من الآيات، التي تشير إلى أن للأمر أحياناً وجهاً آخر مختلفاً عن ظاهرها.

ومن ذلك: ما أشارت إليه السورة من أهمية استحضار القواعد الكلية في الدين، فهي موجّهات للحكم على المسائل الجزئية، ومؤثرة فيها، وذلك من خلال ذكرها في ثنايا آيات الأحكام:

﴿لَا تَضَارَّ وَالِدَةً يُوَلِّدُهَا وَلَا مَوْلُودًا لَهُ يُولَدُ لَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣].

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوًا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨].

قال السعدي: (في هذه الآية دليل على أن الأصل في الأعيان الإباحة؛ أكلاً وانتفاعاً، وأن المحرم نوعان:

إما محرم لذاته، وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب.

وإما محرم لما عرّض له، وهو المحرم لتعلق حق الله أو حق عباده به، وهو ضد الحلال)^(١).

وهكذا لو استعرضنا هذه الآيات وما تضمنته من قواعد وضوابط للنظر الفقهي لوجدنا الكثير. وإنها - بهذه القواعد الكلية - تنشئ لدى المؤمن تصوراً بشمولية الإسلام، وانسجام أحكامه، وتنظيم تحريراته.

ومن ذلك: ما أشارت إليه السورة كثيراً من إعمال الموازنة بين المتزاحمات، توضيحاً للحكم الشرعي، وتعويداً للمؤمنين على إعمالها عند تراحم الأعمال والأسباب والنتائج، وهذا ما يسمى بفقهِ الموازنة بين المصالح والمفاسد:

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَعْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٣].

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٤.

﴿إِنْ بُدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنَ ۚ وَالْأَمَةُ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَّ بِالْعُرْفِ ۚ وَالرِّجَالُ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۗ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۗ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ ۗ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۗ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

والعديد من الآيات التي تبني فقه الموازنات، وتعوّد الصحابة إياه، لأنّ به تتحصل أعلى المصالح وتُدرأ أشد المفسدات، وبه يكون العدل في الأحكام والمواقف، وهذا نوع من الابتلاء، لأنّ الموازنة تتطلب اجتهادًا وعلماً وتجردًا عن الأهواء وحظوظ النفس.

وبهذه الموازنة يتمكن الذين آتاهم الله فهم القرآن من الحكم على كل مستجد في الحياة، ويستطيعون بناء الحياة الإسلامية في واقعهم؛ على مستوى الأفراد والأمة.

ومن ذلك: ما أشارت إليه السورة من دقائق في المعالجات الفقهية والنظر في الأمور؛ كبيان المطلوب في حده الأدنى، والأكمل منه الذي تتحقق به المروءة والتدبّر ومحاسن الأخلاق:

﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

﴿وَأَن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

قال البغوي: (إفضالٌ بعضهم على بعض بإعطاء الرجل تمام الصداق أو ترك المرأة نصيبها، حثهما جميعاً على الإحسان، لأنه من شيم الأخلاق)^(١).

وقال السعدي: (ثم رغب في العفو، وأن من عفا كان أقرب لتقواه، لكونه إحساناً موجِباً لشرح الصدر، ولكون الإنسان لا ينبغي أن يهمل نفسه من الإحسان والمعروف، وينسى الفضل الذي هو أعلى درجات المعاملة، لأنَّ معاملة الناس فيما بينهم على درجتين:

إما عدل وإنصاف واجب، وهو: أخذ الواجب، وإعطاء الواجب.

وإما فضل وإحسان، وهو: إعطاء ما ليس بواجب والتسامح في الحقوق، والغض مما في النفس، فلا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة، ولو في بعض الأوقات، وخصوصاً لمن بينك وبينه معاملة، أو مخالطة، فإن الله مجازٍ المحسنين بالفضل والكرم)^(٢). فيتعلم القارئ لسورة البقرة أهمية مكارم الأخلاق وتأثيرها في الأحكام الشرعية، وتصير الفقه نموذجاً أخلاقياً يقتدى به.

ومن ذلك: ما أشارت إليه السورة من النظر إلى الحكمة والسبب والعلة، فتجعل منها مؤثرات في النظر الفقهي والمعرفي:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

(١) معالم التنزيل ١/ ٢٢٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/ ١٧٨.

﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٢].

﴿ قَالَ أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۗ أَحْبَبُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالْمَسْكِنَةُ وَبَاءُوا بِعَعْصِهِ مِنَ اللَّهِ ۗ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٦١].

﴿ يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۗ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩].

قال ابن عاشور: (فإن قلت: ما الوجه في ذكر منافع الخمر والميسر مع أن سياق التحريم والتمهيد إليه يقتضي تناسي المنافع؟

قلت: إن كانت الآية نازلة لتحريم الخمر والميسر؛ فالفائدة في ذكر المنافع هي بيان حكمة التشريع، ليعتاد المسلمون مراعاة علل الأشياء، لأن الله جعل هذا الدين ديناً دائماً، وأودعه أمة أراد أن يكون منها مشرعون لمختلف ومتجدد الحوادث، فلذلك أشار لعلل الأحكام في غير موضع)^(١).

ومن ذلك: ما استفاضت بذكره السورة من الحوارات ومناقشة الشبهة والمقولات، بعدها أسلوباً مفيداً في الاحتجاج والتدليل والمناظرة، ونقض الأدلة الخاطئة ومعالجة الشبهات الواردة، كما في قصة إبراهيم مع النمرود بن كنعان، وكما في النقاش الحاصل على إثر تحويل القبلة، وغيرهما:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبرَهِيمَ فِي رِيهٖ أَنْ ءَاتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبرَهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۗ قَالَ إِبرَهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

(١) التحرير والتنوير ٢ / ٣٥٠.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتَهُمْ عَنِ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

إنها تعلم المؤمن والمتفقه طريقة الحجاج والجدال، وبأي المسائل يتدئ وبأيها ينتهي.

ومن ذلك: اقتران العلم بالتزكية صريحًا في موضعين من سورة البقرة:

﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

لأن العلم من دون تزكية يتحول إلى وسيلة من وسائل الانحراف، وفي حكاية القرآن عن بني إسرائيل معتبر.

ومن ذلك: الإشارة إلى أن إبراهيم عليه السلام هو نموذج العلماء الباذلين، الذين جعلهم الله قدوة للناس، فلا يقتدى إلا بمن كان كذلك:

﴿وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

فهي تربية لطلبة العلم على إتمام كلمات الله فهمًا وعملاً، وبذلك يجعلهم الله قدوة للناس ودعاة إلى الخير.

وهكذا شيدت سورة البقرة - في وقت مبكر - بناء الفقه والعلم في مجتمع المؤمنين، المجتمع الجديد ذي الخصائص الجديدة والمتفردة، لأنه لا يمكن بناء الأمة إلا ببناء العلم وتشديد الفقه في أفرادها ونظامها ومعيشتها.

وهي دعوة لأهل القرآن أن يأخذوا من العلم الشرعي بنصيب وافر، وأن يكتسبوا الملكة الصحيحة للتفقه والمنهجية المحمودة للتعلم.

وبتربية الله تعالى لأصحاب نبيه ﷺ على طريقة النظر في الأدلة والنصوص وترتيبها والاستنباط منها، قامت الأمة الناشئة ونهضت، وتعلمت وغيرت الحياة.. إنها ليست مسألة نظر الآحاد من الناس، وإنما هي منهجية ينبغي أن تكون هي السائدة على مستوى الأفراد والدول والكيانات.

المسؤولية العلمية

يظل أهل العلم في الموقع المركزي للأمم والجماعات، ويظل دورهم في البناء والهدم محل عناية القرآن المدني، ومنذ بدايته. إنها مسألة مفصلية يجب على الأمة أن تعيها وتوجه من نشاطاتها ما يحفظ وصف البناء في دور العلماء.

وبناء الأمة ليس بالأمر اليسير، والعلم شرط البناء وأول طريق النهوض، وهو علامة صحة الطريق، ويتحمل الذين سلكوا طريق العلم أمانة البناء والنهوض، وعليهم تجنب الطرق العلمية المنحرفة، لأنها هي ذاتها التي أودت بأهل الكتاب من قبل.

وإذا كان قد غلب على المعالجة العلمية في سورة البقرة الحديث عن الانحرافات والمسلكيات الخاطئة التي تلبس بها أهل العلم والمعرفة في أهل الكتاب، فإن سورة آل عمران غلب على المعالجة العلمية فيها الحديث عن الواجبات والمسؤوليات العلمية.

وسورة آل عمران ثنت الحديث عن أهل العلم من أولها وحتى منتهاها، على الرغم من اختلاف الموضوعات التي تناولتها السورة، لتشكل بذلك مفهومًا متكاملًا عن دور أهل العلم وطلابه.

ويمكن أن ننظر -وفقًا للسورة- إلى هذا الدور من خلال عدة أمور:

منها: بيان المحكمات، وتوضيحها وكشف الخفاء عنها، واتباعها والمحافظة عليها، والدعوة إليها:

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ٧].

وفي هذه الآية إشارة إلى أن أتباع المتشابه دون المحكم وعدم رده إلى المحكم كان سبباً في ضلال النصارى حين ألَّهوا عيسى عليه السلام، وأصبغوا عليه وعلى أبحارهم ورهبانهم ورؤسائهم بعض صفات الألوهية، وصرفوا لهم بعض أنواع العبودية، وإلا فلو ردوا ما اشتبه عليهم من كونه وُلد بغير أب إلى ما هو محكم عندهم من أن الله خلق آدم بلا أب ولا أم، وأنَّ عيسى عبد الله ورسوله، وأنَّ الله على كل شيء قدير، وأنه نفى عن نفسه العلية الزوجة والولد، لاتضح لهم وجه الحق، ولما تحرف دين عيسى عليه السلام، الذي هو التوحيد والإسلام.

وعلى رأس المحكمات التي يجب المحافظة عليها والدعوة إليها: أصول دين الإسلام العشرة وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت الحرام.

ويأتي في أولها الدعوة إلى توحيد الله؛ فما دور العلماء في ذلك؟

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

قال السعدي: (وأما شهادة أهل العلم فلأنهم هم المرجع في جميع الأمور الدينية، خصوصاً في أعظم الأمور وأجلها وأشرفها وهو التوحيد، فكلهم من أولهم إلى آخرهم قد اتفقوا على ذلك، ودعوا إليه، وبينوا للناس الطرق الموصلة إليه)^(١).

(١) تيسير الكريم الرحمن ٤/ ٢٠٣٧ - فروقات.

فيا للهلكة إذا نام أهل العلم عن حراسة التوحيد، ويا للهلكة إذا فرطت الأمة في تعلم الإيمان.

ومنها: ردُّ المتشابه إلى المحكم:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَةٌ﴾

[آل عمران: ٧].

قال ابن كثير: (ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن رد ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، وحكم محكمه على متشابهه عنده، فقد اهتدى، ومن عكس انعكس)^(١).

وابن كثير في هذه العبارة يذكر الواجب في التعامل مع المتشابهات، وهو ردها إلى المحكم، وذلك يكون بجعل المحكم قاعدة للنظر، وجعل المتشابه فرعاً عنه لا يحدد عن طريقه، وليس العكس، فلا يُرد المحكم إلى المتشابه كما فعل فريق من أهل الكتاب.

ورد المتشابهات إلى المحكمات عملٌ علمي عظيم، ينبري له الراسخون في العلم ليحاجوا أهل الباطل والزيغ الذين يلوون ألسنتهم بالكتاب فيضلون الناس، لذلك سطر التاريخ الإسلامي جهود أئمة السنة وأهل الإصلاح في الردود والمناظرات.

ومنها: المحافظة على أدب العلم وأخلاق أهله، فإنها عنوان صحة العلم في نفس العالم وطالب العلم، ولذلك وصف الراسخون في العلم في بعض الآثار الواردة في تفسير الآية بأخلاقهم، كالتجرد عن الأهواء وحفظ النفس وقبول

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣١٠.

الحق والتواضع له، وهذا ما يقينك من البغي الذي ذمه الله تعالى وذم أهله، وقد نقل البغوي قول بعضهم: (الراسخ في العلم من وجد في علمه أربعة أشياء: التقوى بينه وبين الله، والتواضع بينه وبين الخلق، والزهد بينه وبين الدنيا، والمجاهدة بينه وبين نفسه)^(١).

وأخرج ابن أبي حاتم بسنده عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عن الراسخين في العلم، فقال: (من برَّتْ يمينه، وصدق لسانه، واستقام قلبه، ومن أعف بطنه وفرجه، فذلك من الراسخين في العلم)^(٢).

ألا يحدثك قلبك عن القيمة الأخلاقية الواجبة على طالب العلم؟!
هكذا يريينا القرآن.

ومنها: الاجتهاد في الحكم على نوازل العصر ومستجدات الحياة وتوليد الحلول للمشكلات المعاصرة، لأنَّ القرآن جاء ليصلح حياة الناس كلهم، في كل الأزمان، قال ابن عاشور: (على أنَّ من مقاصد القرآن أمرين آخرين:

أحدهما كونه شريعة دائمة، وذلك يقتضي فتح أبواب عباراته لمختلف استنباط المستنبطين، حتى تؤخذ منه أحكام الأولين والآخرين.

وثانيهما تعويد حملة هذه الشريعة، وعلماء هذه الأمة، التنقيب، والبحث، واستخراج المقاصد من عويصات الأدلة، حتى تكون طبقات علماء الأمة صالحة -في كل زمان- لفهم تشريع الشارع ومقصده من التشريع، فيكونوا قادرين على استنباط الأحكام التشريعية)^(٣).

(١) معالم التنزيل ١/ ٣٢٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣١٧.

(٣) التحرير والتنوير ٣/ ١٥٨.

ومنها: جمع الناس على أصول الدين ومحكماته، وذلك بدوام اتباع الحق ودوام الدعوة إليه، والتحذير من الاختلاف المذموم والتفرق المقيت:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۗ﴾
[آل عمران: ١٩].

يقول الشيخ عابد السفيناني حفظه الله: (وقد حرص الكفار والمشركون على أن يفرقوا المسلمين عنها لأنهم يعلمون أن المسلمين إذا تفرقوا في المحكمات فإنهم يضلون، ويضيعون مجتمعاتهم، لأنه لا يمكن حفظ المجتمع إلا بحفظ الضروريات الخمس المعروفة، ولا يمكن أن يكون المسلمون أمة واحدة إلا باتباع المحكمات، ولم ينحرف الكفار والمشركون إلا بسبب تفرقهم عنها من بعد ما جاءهم العلم، ولما جدد الله سبحانه لهم البلاغ على لسان الرسول ﷺ كبر عليهم أن يدعوا إلى تلك المحكمات)^(١).

ومنها: دفع الشبهات ومعالجة الأفكار والصبر على ذلك، وقد مكث وفد نجران في المدينة أياما يناقش الرسول ﷺ في مسائل العقيدة، والرسول ﷺ يجب عنها ويحاور ويستدل، والقرآن ينزل كذلك بالإجابات والتبيين، وهو دور العلماء وطلبة العلم المتقنين، حراسة للدين وحفظاً لكيان الأمة من الانزلاق في مهاوي الأفكار المنحرفة:

﴿قُلْ يَأْهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَأْهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَتَأْتُمْ هَتُولَاءَ حِجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ

(١) المحكمات في الشريعة الإسلامية ص ٨٠.

فَلَمْ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِإِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّكَ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ [آل عمران: ٦٤-٦٨].

وقد ذكر أهل التفسير - وأهل التفسير بالمأثور خصوصًا - وأهل السير تلك الحوارات التي أشار إليها القرآن عن وفد نجران، مما تغني الإشارة إليه عن تفصيله في هذا المبحث.

ومنها: الصدع بالحق على الرغم من المخاطر، وإظهار العلم ولو كانت الحال عُسرة، وبيان حكم الله ولو على حساب فوات المكتسبات ونقص حظوظ الدنيا:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ذلك أن الصدع بالحق من أثقل الأشياء على العلماء وطلبة العلم، إذ تنتظر منهم الأمة كلمة الحق، وينتظر منهم أهل الدنيا كتمان الحق، فيقعون في منطقة حرجة، ويمتحنون حينها امتحان الأمانة العلمية..

هل يصدعون بالحق؟

ويتحملون تبعات ذلك من الإبعاد والتضييق عليهم في معاشهم والسخرية منهم وتلفيق الاتهامات الباطلة بشأنهم وترويجها بين الناس، وربما عرَّضوا أرواحهم للقتل والتعذيب وربما آثروا السجن والتغريب لأجل تلك الكلمة: كلمة الحق.

أم يرضخون للأمر الواقع؟

فيكتمون الحق أو يحرفونه أو يتأولونه؛ فتسلم لهم دنياهم، وتسلم لهم معاشهم، وتغدق عليهم الأموال والمناصب الدنيوية، وتوهب لهم حياة!

لقد أخذ الله عليهم الميثاق ألا يكتُموا الحق.

قال السعدي: (الميثاق هو العهد الثقيل المؤكد، وهذا الميثاق أخذه الله تعالى على كل من أعطاه الله الكتاب وعلمه العلم: أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله، ولا يكتُمهم ذلك ويبخل عليهم به، خصوصاً إذا سألوه أو وقع ما يوجب ذلك، فإن كل من عنده علم يجب عليه - في تلك الحال - أن يبينه، ويوضح الحق من الباطل)^(١).

وهذا الميثاق يؤكد لك أن بيان العالم وصدعه بالحق في وقت الحاجة إليه يمثل مفترق طريقين في الأمة: الاستقامة العامة أو الانحراف العام.

ومنها: نزع الربوبية عن الأنبياء والأولياء والصالحين، ونزع الألوهية عن الحكام والرؤساء والمسؤولين، بل محاربة أي شرك بالله مهما كان صغيراً ودقيقاً، ودفع كل وسيلة توصل إليه مهما كانت الحاجة إليها، ذلك أن فيمن قبلنا من الأمم من ضلت في هاتيك المسائل:

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّنِيذِينَ إِمَّا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠].

إما الدعوة إلى الأرباب، وإما الدعوة إلى الربانية.

وحين يتخلى العالم عن مسؤوليته في حراسة التوحيد، فإنه لا يكون ربانياً ولا شاهداً على وحدانية الله على وجه الحقيقة، وسيكون معولاً في تمزيق الأمة وتفرقتها وتناحر أبنائها.

(١) تفسير تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٦٨.

وكيف يسكت العالم عن مظاهر الشرك -ولو خفت ودقت- وقد أشهده الله
على وحدانيته؟

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

ألا إن مسؤولية العلم عظيمة!

قال ابن كثير: (فالجهلة من الأبحار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في
هذا الذم والتوبيخ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنما يأمرؤن بما
أمر الله به وبلغتهم إياه رسله الكرام، وإنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه وبلغتهم
إياه رسله الكرام. فالرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، هم السفراء بين
الله وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أتم قيام،
ونصحوا الخلق، وبلغوهم الحق)^(١).

وأول ما يبدأ العالم -في هذا الطريق- بنفسه، فلا يرضى لها أن يكال لها
المديح والثناء، ولا يحب أن يصرف لها التعظيم والألقاب، ولا يقبل أن يُمنح
العطايا والهبات، لأنه لا يدعو إلى نفسه، إنما يدعو إلى الله العظيم، ولأنه يمقت
نفسه في جنب الله، كما قال العالم الجليل أبو الدرداء رضي الله عنه:

(لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله، ثم يرجع إلى نفسه
فيكون لها أشد مقتاً)^(٢).

ومنها: الربانية في التعليم:

﴿كُونُوا رَبَّيْنَكَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٦٩.

(٢) جامع البيان ١/ ٦١٥.

أي: كونوا (علماء حكماء حلما، معلمين للناس ومربيهم بصغار العلم قبل كباره، عاملين بذلك، فهم يأمرون بالعلم والعمل والتعليم التي هي مدار السعادة، وبفوات شيء منها يحصل النقص والخلل)^(١).

الربانيون يربون الناس على حقائق العلم وروحه، وعلى أخلاقه وسمته، إنهم يعكفون الدهر على غرس الإيمان والتوحيد في نفوس المتعلمين، ولا يرضيهم إلا أن يتخرج طلابهم وقد عرفوا حقيقة الإيمان وتعودوا القيام بمسؤولياته وواجباته. الربانيون حريصون على تحقيق العلم فيمن يعلمون، لأن مرادهم أن يكون الرب المعبود هو الله وحده، لا كما فعل - ويفعل - كثير من الأبحار والرهبان؛ من الوصول بالناس إلى أن يتخذوهم أرباباً من دون الله، هذا هو الفرق بين العلماء الأرباب والعلماء الربانيين.

ويكفي في جعل العالم نفسه رباً أن يغرس في نفوس الناس أنهم لا يستطيعون الوصول إلى الله في طريقهم إلا من خلاله، فيصبح وسيطاً بينهم وبين الله، بشكل خفي. وطرائق هذا الباب كثيرة وملتوية، عافانا الله وإياكم. أما العالم الرباني فهو الذي استطاع - بتوفيق الله له ثم بحرصه - أن يعبد الناس لله وحده:

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرْكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَالِكَةَ وَالنَّبِيَّاتِ أَرْبَابًا أَيَأْمُرْكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠].

(١) تيسير الكريم الرحمن ٤ / ٢٠٥٥ - فروقات.

هذه واجبات العلم، وهذه مسؤوليته وأمانته، وعليها انقسم الناس إلى فريقين،
(فأما الموفقون فقاموا بهذا أتم القيام، وعلموا الناس مما علمهم الله، ابتغاء مرضاة
ربهم، وشفقة على الخلق، وخوفاً من إثم الكتمان).

وأما الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ومن شابهم من هذه الأمة،
فنبذوا هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم، فلم يعبؤوا بها، فكتموا الحق وأظهروا
الباطل، تجرؤاً على محارم الله، وتهاوناً بحقوق الله تعالى وحقوق الخلق، واشتروا
بذلك الكتمان ثمنًا قليلًا، وهو ما يحصل لهم من بعض الرياسات، والأموال
الحقيرة، من سفلتهم المتبعين أهواءهم، المقدمين شهواتهم على الحق^(١).

إنَّ سورة آل عمران لهي مفتاح مهم في فهم الواجبات المنوطة بأهل العلم
وطلابه، إعلاء لحق الله تعالى وتوحيده، وحفاظًا على جناب العلم الصحيح،
وحراسة للأمة من التمزق والانحيار.

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٦٨.

الفصل الخامس

البناء الاجتماعي

لما أراد الله تعالى لآدم وذريته أن يخلف بعضهم بعضاً في الأرض، وتكون لهم مستقراً ومتاعاً إلى قيام الساعة؛ أعلم ملائكته المسبحة بقدسه بهذه الإرادة، فعجبت الملائكة لذلك، لما تعلمه من طبيعة خلق آدم التي تجمع بين الشهوة والغضب والعقل، لأن الطبيعة التي تجتمع فيها هذه الثلاثة من شأنها أن ينتج عنها بعض الشرور، فاستفهمت الملائكة من الله تعالى عن الحكمة من هذا الأمر، في الحوار الذي أثبتته القرآن:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: ٣٠-٣١].

فإذا كانت الطبيعة الأدمية بهذا الوصف فإنها أحوج ما تكون إلى علم ينير لها طريق الحياة الاجتماعية، وأحوج ما تكون إلى هداية سماوية ربانية تعصمها من الانزلاق في الأخطاء، وتحفظ بها كيانها الاجتماعي.

العقدة المباركة

كل الشرائع السماوية عنيت ببناء نظام الزواج، لأنَّ الزواج الفطري أصل العلاقات والوظائف الاجتماعية، وهو اللبنة التي تبنى منها الأمة، والقرآن يسميه النكاح، بل ويسميه بما يدل على أنَّ له تبعة تدل على أهميته، فيقول تعالى: ﴿وَلَا تَعَزَّمُوا عُقَدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكَيْدُ أَجَلَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. وهو تعبير جليل القدر، ولا يمكن تسميته بخير من ذلك، ولذلك بوب الفقهاء والمحدثون المسائل الزوجية بالنكاح، وكانوا أكثر دقة علمية وأعمق فهمًا بالمدلولات.

يقول الراغب الأصفهاني: (العقدُ: الجمعُ بين أطراف الشيء، ويُستعمل ذلك في الأجسام الصلبة كعقدِ الحبل وعقد البناء، ثم يستعار ذلك للمعاني نحو: عقد البيع، والعهد، وغيرهما، والعُقدة: اسم لما يُعقد من نكاح أو يمين أو غيرهما)^(١).

ويقول كذلك: (أصل النكاح للعقد، ثم استعير للجماع، ومحال أن يكون في الأصل للجماع ثم استعير للعقد)^(٢)، يشير إلى القول الذي يرى خلاف ذلك.

وقال الزجاج: (والعقود: العهود، يقال: وفيت بالعهد وأوفيت. والعقود واحدها عقد، وهي أوكد العهود، يقال: عهدت إلى فلان في كذا وكذا، وتأويله ألزمته ذلك. فإذا قلت: عاقدته أو عقدت عليه، فتأويله أنك ألزمته ذلك باستيثاق)^(٣).

(١) المفردات في غريب القرآن ص ٥٧٧.

(٢) المفردات في غريب القرآن ص ٨٢٣.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ١٣٩ / ٢.

وعقدة النكاح عقد بين الزوج وزوجه ووليها، يترتب عليه الكثير من المتطلبات والالتزامات من الطرفين، وينبني عليه مسائل السكن والوالدية والبنوة والإرث والعصبة والعاقلة والنسب والمصاهرة، وغير ذلك.

لذلك اعتنت كل التشريعات الأمامية والدولية اليوم بموضوع الزواج بما يتوافق مع رؤيتها الاجتماعية والاستراتيجية.

ويرى ول ديورانت أن التشريعات التي سنها «أغسطس» ١٨ ق.م هي أهم التشريعات الاجتماعية في التاريخ القديم^(١)، وذلك ضمن خطة الإصلاح الاستراتيجية لإنقاذ الإمبراطورية الرومية من الانحلال والتهالك.

وهي خطة تتفق في كثير منها -أو في جوهرها- مع الفطرة ومع جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عبر العصور، من تشييد البناء الأسري والحد من التشرذم والانحلال وتضييق الخناق على العهر والفجور. يقول ديورانت:

(كان ضعف العقيدة الدينية القديمة بين الطبقات العليا سبباً في القضاء على ما كان للزواج والوفاء والأبوة من حرمة وقداسة، وكانت هجرة الناس من الأرياف إلى المدن قد جعلت الأطفال عبئاً ثقيلاً على آبائهم، أو لعباً يتسلون بها على أحسن تقدير، بعد أن كانوا مصدر ربح لهم، واشتدت رغبة النساء في التجميل واجتذاب الأموال بعد أن كن يرين أن خير زينة لهن هي إنجاب الأبناء. وقصارى القول أن الرغبة في الحرية الفردية بدت في ذلك الوقت مجانية لحاجات العنصر الروماني الأصيل).

(١) في الرؤية الإسلامية تحفظ على هذا التصنيف للتاريخ، وإنما أنقل روايته، فنحن نعتقد أن التاريخ يبدأ من خلق آدم كما علمنا القرآن، أما هم فيرون أن التاريخ يبدأ من ظهور الكتابة، في تفصيل ليس هذا محله.

ومما زاد الطين بلة أن السعي وراء الهبات والوصايا أضحي وقتئذ أكثر الأعمال ربحاً في إيطاليا، فقد كان الرجال الذين لا أبناء لهم إذا بلغوا مرحلة العمر الأخيرة يجدون أحسن الترحيب في بيوت لهم أبناء، يُستقبلون فيها ويُطعمون، وكان كثير من الرومان يحبون هذه المتعة وهذا النوع من الحياة اللينة، حتى أصبحت سبباً آخر من أسباب العقم! يضاف إلى هذا أن طول سني الخدمة العسكرية حال بين كثيرين من الشبان وبين الزواج في أكثر سني العمر صلاحية له.

وامتنع كثيرون من الرومان الأصليين عن الزواج بتاتاً، وفضلوا الاتصال بالعاهرات أو اتخاذ السراري والعشيقات؛ حتى على تعدد الزوجات متفرقات. ويلوح أن الكثرة العظمى من المتزوجين عمدت إلى تحديد عدد أفراد أبنائها بالجوء إلى إجهاض الزوجات وقتل الأطفال ومنع الحمل.

واستخدم «أغسطس» ما له من حقوق بوصفه رقيباً وتربيوناً [التربيون: مسؤول منتخب يمثل الشعب في حماية المصالح العامة والدفاع عنها]، فأصدر طائفة من القوانين -أو لعله حمل الجمعية على إصدارها- تهدف كلها إلى تقويم الأخلاق وتشجيع الزواج والوفاء بين الأزواج والأبوة الصالحة والحياة البسيطة، والعودة بها إلى السنن القديمة.

وحرّمت هذه القوانين على المراهقين والمراهقات أن يحضروا دور اللهو العامة في صحبة الكبار من أقاربهم؛ ومنع النساء من مشاهدة الاستعراضات الرياضية، وقصر أماكنهم في المجتلدات على المقاعد العليا؛ ثم حدد مقدار ما ينفق من المال في البيوت، وعلى الخدم والولائم والزواج والجواهر والملابس. وكان أهم هذه «القوانين اليوليائية» كلها «القانون اليوليائي الخاص بالعفة ومنع الزنى» ١٨ ق.م.

وبهذا القانون وضع الزواج لأول مرة في التاريخ الروماني تحت حماية الدولة، بعد أن كان متروكاً لسلطة الآباء في أسرهم، واحتفظ الأب بحقه في قتل ابنته الزانية هي وشريكها ساعة أن يضبطهما متلبسين بهذه الجريمة، وأجيز للزوج أن يقتل عشيق زوجته إذا ضبطه في منزله، أما زوجته فلم يكن له أن يقتلها إلا إذا ارتكبت الفحشاء في بيته هو. وكان يطلب إلى الزوج الذي يكشف عن خيانة زوجته أن يأتي بها إلى المحكمة في خلال ستين يوماً من هذا الكشف؛ فإذا لم يفعل هذا كان يُطلب إلى والد الزوجة أن يقوم بهذا العمل؛ فإذا لم يفعل الوالد نفسه ذلك جاز لأي مواطن أن يتهمهما.

وكان عقاب المرأة الزانية أن تُنفى من البلاد طوال حياتها، وأن تجرد من ثلث ثروتها ومن نصف بائنتها، وأن يحرم عليها الزواج مرة أخرى.

وقد قررت هذه العقوبات نفسها على الزوج الذي يتغاضى عن زوجته الزانية. غير أنه لم يكن من حق الزوجة أن تتهم زوجها بالزنى، فقد كان له أن يتصل بالعاشرات الرسميات المسجلات دون أن يعاقبه القانون على هذا الاتصال. ولم يكن هذا القانون يطبق إلا على المواطنين الرومان^(١).

والحق أنني أردت بهذا الاقتباس المطول أمرين معاً:

الأول: بيان خطر الانحراف الاجتماعي في مفهومي الزواج والأسرة على الأمم والممالك والدول، وأن التساهل في ضبط نظام الزواج الفطري لا يؤدي إلى تفكك أهل البيت فقط، بل يتجاوز ذلك إلى تحلل الأمة والدولة وضعفها وتهالكها.

الثاني: اهتمام أولي الأمر بالشأنين الزوجي والأسري، لكونهما من الركائز الاستراتيجية في قوة الأمة وضعفها، وباباً إلى تماسك الدولة وتمزقها.

(١) قصة الحضارة ١٠/ ٢٨-٣٠ بتصرف يسير.

يمكن أن تضع خلاصة مفادها: قل لي ما نظام الزواج؛ أقل لك ما هو حال الأمة. وإنما أوردت لك مثلاً واحداً على ذلك، وإلا فإنَّ التاريخ لا يكفُّ عن حكاية هذه الأحوال، لا يكف عن التأثر -قوة وضعفاً- بكيان الزوجية، ولا يكف عن الحملات التصحيحية بما يتوافق مع الرؤى الاستراتيجية للنخب الحاكمة وأهل الرأي والقرار.

وهكذا تجتهد الأمم والممالك في إيجاد نظرية اجتماعية تعنى بمفهوم الزوجية، لما سيكون لها من أثر بالغ في قوته وضعفه.

وفي مستهل بناء الأمة الجديدة نزلت سورة البقرة -وغيرها من السور بالتأكيد- لتضع اللبنة الفكرية والتشريعية لشؤون الأسرة والزواج، إذ لا تقوم الأمة إلا إذا كان نظام الزوجية الفطري فعالاً.

ففي موضوع الزواج، ذكرت السورة تزويج حواء من آدم، وأخبرتنا أنَّ زواج الذكر بالأنثى كان في مبدأ أمر الخليفة، ما يشير إلى فطرية الزواج وكونه أصلاً في بناء البيوت:

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥].

ولاحظ هنا أنَّ السكنى في الجنة لا تكتمل إلا بزوجه حواء!

فمع ما في الجنة من نعيم وملذات، إلا أنَّ آدم لم يتحصل له السكن والاستقرار إلا بوجود زوجة يأوي إليها وتسكن نفسه إليها.

أخرج الطبري^(١) عن ابن عباس وابن مسعود أنَّ الله تعالى أخرج إبليس من الجنة حين لعن، وأسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وحشاً ليس له زوج يسكن

(١) جامع البيان ١/٥٤٨.

إليها، فنام نومة فاستيقظ، وإذا عند رأسه امرأة قاعدة؛ خلقها الله من ضلعه، فسألها:
من أنت؟

فقالت: امرأة.

قال: ولم خلقت؟

قالت: لتسكن إليّ.

لاحظت؟

آدم يدخل الجنة، ثم هو لا تسكن نفسه بما فيها من النعيم حتى ينعم الله عليه
بالزوجة.

والزوجة تخبر أن وظيفتها - وهي إذ ذاك في الجنة - تسكين وحشة آدم.

ثم يهبط آدم إلى الأرض ومعه زوجه:

هو يعمر الأرض.

وهي تسكن نفسه؛ ليستطيع القيام بواجبه.

آدم له وظيفة.

وحواء لها وظيفة مختلفة.

وهذه أول هداية يجب على الأمة أن تفهمها، وهي أن الحياة لا تصلح إلا
بالزواج، ولا تستقر إلا به، حتى لو كانت الحياة في وسط الجنة المملوءة نعيمًا
وترفًا ولهواً وزينة، وأن الذين ينشدون الاستقرار والطمأنينة في أي شكل من أشكال
التمتع خارج إطار الزوجية الفطرية إنما يسعون لمعاكسة ما جُبلوا عليه ومخالفة
فطرهم، فلا ريب بعد ذلك أن ينعكس استقرارهم اضطرابًا وشتاتًا، وأن تؤول
سكناهم وحشة وجفافًا.

والثقافة الغربية اليوم لا ترفع بشأن النكاح رأسًا، ولا تُعلي من شأنه، لأنها تعتمد نظام الأسرة وحدةً للمجتمع، ثم تجعل للأسرة مفهومًا أوسع من قصره على الزواج الفطري؛ إذ يشمل أي اجتماع بشري في مكان إقامة مشترك ذي خصائص محددة. سواء كان الاجتماع بين رجل وامرأة أو بين رجلين أو بين امرأتين، وسواء كان الأطفال من ولادة طبيعية من الزوجين أو من الأم فقط أو بالتبني. والأب ليس هو الأصل! ناهيك بمسائل العصمة والميراث وبر الوالدين...

عقدة النكاح هي الفطرة القويمة، والتي لا قوام للحياة إلا بها، وعليه اتفقت جميع الشرائع.

وبها يستمر النسل ويتكاثر الناس كما أراد الله تعالى لآدم حين خلقه:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

ألا ترى أنّ أوروبا لديها الكثير من الإشكالات المتعلقة بالنظام البشري.

ثم إنه في مرحلة الحروب الصليبية المتأخرة، والتي تسمى نفسها «الاستعمار»، قام تياران مناهضان للبناء الزواجي الفطري، المكون من الأب والأم والأبناء، وهذان التياران الشيوعية والنسوية، معادة للفطرة، وحرّبًا على قوة الأمة التي تكتسبها من عقد النكاح، وسعيًا إلى تقوية رابطة الدولة الحديثة وهيمنتها بإقصاء رابطة الدم والنسب والأسرة والقبيلة، وإسقاطًا لمعاني الشرف والنبل والعفاف في الشعوب ليقبى بعد ذلك ذليلاً مأجورًا للكيانات والمنظمات.

واليوم يعلو ويتنفش تيار تحرير المرأة الغربي (النسوية)، وتقف معه أنظمة ومؤسسات دولية وأممية بغرض عولمته على الأمم المغلوبة والبلاد المهزومة، من خلال موثيق تُوقّع باسم تمكين المرأة ورفض التمييز العنصري بين الجنسين وحقوق المرأة، ومن خلال تصدير ثقافته عبر الوسائل التي تخاطب الأجيال الجديدة.

وفي سورة البقرة نجد القرآن يعلي من شأن الزواج في صورته الوجدانية
والعاطفية، فيصفه باللباس لقربه والتصاقه وستره:

﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةٌ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَابِسُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَابِسُ لَهُنَّ﴾
[البقرة: ١٨٧].

والطبري يذكر للباس في هذه الآية ثلاث دلالات، كلها تعلي من شأن الرابطة
الزوجية، وإنما عبر عنها القرآن بالتكنية أدبًا تعليميًا، فيقول:

فإن قال قائل: وكيف يكون نساؤنا لباسًا لنا ونحن لهن لباسًا؛ واللباس إنما هو
ما لبس؟

قيل: لذلك وجهان من المعاني:

- أحدهما أن يكون كل واحد منهما جُعل لصاحبه لباسًا لتجردهما عند النوم،
 واجتماعهما في ثوب واحد، وانضمام جسد كل واحد منهما لصاحبه؛ بمنزلة
 ما يلبسه على جسده من ثيابه، فليل لكل واحد منهما هو لباس لصاحبه، كما
 قال نابغة بني جعدة:

إذا ما الضجيع ثنى عطفها تداعت فكانت عليه لباسا

فكنى عن اجتماعهما متجردين في فراش واحد باللباس، كما يكنى بالثياب عن
جسد الإنسان.

- والوجه الآخر أن يكون جعل كل واحد منهما لصاحبه لباسًا لأنه سكن له،
 كما قال جل ثناؤه: ﴿جَعَلَ لَكُمْ الْيَلَ لِبَاسًا﴾ [الفرقان: ٤٧] يعني بذلك سكنًا
تسكنون فيه. وكذلك زوجة الرجل سكنه يسكن إليها، كما قال تعالى ذكره:
﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] فيكون كل واحد منهما
لباسًا لصاحبه بمعنى سكنه إليه، وبذلك كان مجاهد وغيره يقولون في ذلك.

- وقد يقال لما ستر الشيء وواراه عن أبصار الناظرين إليه هو لباسه وغشاؤه، فجائز أن يكون قيل: هن لباس لكم وأنتم لباس لهن، بمعنى أن كل واحد منكم ستر لصاحبه - فيما يكون بينكم من الجماع - عن أبصار سائر الناس^(١).

وذكرت سورة البقرة التماثل بين حقوق الزوجين على بعضهما، مع زيادة درجة القوامه والرياسة للرجل:

﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَاللِّرَجَالِ عَلَيْنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾
[البقرة: ٢٢٨].

قال ابن عاشور: (وكان الاعتناء بذكر ما للنساء من الحقوق على الرجال، وتشبيهه بما للرجال على النساء، لأنَّ حقوق الرجال على النساء مشهورة، مسلمة من أقدم عصور البشر، فأما حقوق النساء فلم تكن مما يلتفت إليه، أو كانت متهاونًا بها، وموكولة إلى مقدار حظوة المرأة عند زوجها، حتى جاء الإسلام فأقامها. وأعظم ما أسست به هو ما جمعته هذه الآية)^(٢).

وزيادة الدرجة تكون في الحقوق للرجل، فهو القائم على رعايتها وحمايتها والإنفاق عليها وإسكانها وسوق المهر لها، فلزم من ذلك أن يكون القائد والقائم والرئيس لبيته وأهله. قال السعدي: (أي رفعة ورياسة، وزيادة حق عليها، كما قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤])^(٣).

وهي درجة تشبه - من باب التمثيل والتقريب فحسب - درجة مدير المؤسسة ورئيس الدائرة، فهذه الدرجة له لا تعني هو ان الأعضاء والموظفين أو احتقارهم.

(١) جامع البيان ٣/ ٢٣١.

(٢) التحرير والتنوير ٢/ ٣٩٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ١/ ١٧٠.

لكن المشغبين على شريعة الله والذين يحسدون المسلمين على شرفهم وتماسكهم وفضلهم يزعمون أن هذا انتقاص لحق المرأة، ويسودون الصحف ويملؤون الفضاء ضجيجًا بالمناداة بحق المرأة، وفي المسلمين سماعون لهم.

وتعلمنا سورة البقرة أن الإيمان بالله هو أهم معيار للزواج، سواء في ذلك الرجل والمرأة، ولأن حياتنا مؤطرة به فينبغي أن يكون الزواج كذلك:

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ۚ وَلَا مُمِئَةً مُّؤْمِنَةً خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۗ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۗ وَيَسِّرُ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۗ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وذكرت السورة ما يحل وما يحرم في عقد الزوجية، فمثلاً:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۗ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا ۗ وَالنِّسَاءُ فِي الْمَحِيضِ ۗ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۗ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ۗ﴾ [٣٣] نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۗ وَقَدِمُوا ۗ لِأَنفُسِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۗ وَأَعْلَمُوا أَنَكُمْ مُّكَلَّفُوهُ ۗ وَبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ ۗ﴾ [البقرة: ٢٢٢-٢٢٣].

تحريم الجماع مدة المحيض - ومثلها مدة النفاس - وجواز الاستمتاع بما دون ذلك في هذه المدة، ويكون التطهر فصلاً بين الحيضة والجماع، وإباحة الاستمتاع بكل شيء عدا الدبر: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۗ﴾.

وفي آيات الصيام أحل للمسلمين ذلك في ليالي الصيام دون نهارها، وحرّم ذلك في حال الاعتكاف.

وذكرت السورة تحريم الإيلاء - هو الحلف على ترك وطء الزوجة - على الرجال لمدة تزيد على أربعة أشهر، لما فيه من الإضرار بحق الزوجة والاعتداء عليها:

﴿لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَابِهِمْ رَبُّصٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣٣) وَإِن عَزَمُوا
الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧].

وبعد أربعة أشهر يخير الرجل بين الرجوع «الفيئة» إلى وطء زوجته والتكفير
عن اليمين، أو الطلاق، والفيئة أحب إلى الله.

ثم ذكرت السورة أحكام الطلاق: عدد الطلقات وما يترتب عليها من أحكام
متعلقة بالمهر والسكن والنفقة والعدة والرجعة ورضاع الأولاد؛ مما تؤلف في
تفاصيله المجلدات من الكتب.

وذكرت السورة أحكام عدة المتوفى عنها زوجها، وأحكام الخطبة وكيف
تكون، ومكارم الأخلاق المأمولة في تلك الأحوال.

لكن الله تعالى يحذر من التلاعب بهذه الأحكام، لأن في التلاعب بها
والالتفاف عليها وعدم العمل بها إضراراً يلحق بالبيت والأمة:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبِغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا
تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّنَعْنَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا
وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ [البقرة: ٢٣١]

قال البغوي: (لا تتخذوا آيات الله هزواً بالإعراض عنها والتهاون في العمل
بما فيها)^(١).

ونددت السورة بالتفريق بين الزوجين وفصل رباطهما عدواناً، حتى إنها لما
أرادت أن تبين خطر السحر، ذكرت أشد آثاره على الأمة:

(١) أنوار التنزيل ١/ ١٤٣.

﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

قال ابن عاشور: (إشارة إلى جزئي من جزئيات السحر، وهو أقصى تأثيراته، إذ فيه التفرقة بين طرفي آصرة متينة؛ إذ هي آصرة مودة ورحمة، فإن المودة وحدها آصرة عظيمة، وهي آصرة الصداقة والأخوة وتفاريعهما، والرحمة وحدها آصرة، منها الأبوة والبنوة، فما ظنكم بآصرة جمعت الأمرين)^(١).

إن تحطيم أو اصر الزوجية من أكبر الاستراتيجيات التي لا يكف الشيطان عن السعي لتحقيقها في واقع الناس؛ لما في ذلك من استرقاق لهم وتدمير لكيانهم وتمزيق لهوية الإنسان، ولهذا الغرض يقيم إبليس جائزته اليومية.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، قال ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنت). قال الأعمش: أراه قال: (فيلتزمه)^(٢).

فوجود البيت المبني على الزواج الفطري هو أشد على الشيطان من كثير من شؤون الاستقامة السلوكية.

وفي تعظيم حق الوالدين ذكّرت السورة بأنّ حقهما شريعة قديمة، جاءت بها الرسل والأنبياء وأنزلت بها الكتب:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

(١) التحرير والتنوير ١/ ٦٤٤.

(٢) أخرجه مسلم ٤/ ٢١٦٧، ح ٢٨١٣.

ومن أعظم فضائل الوالدين حفاظهما على حق الله في الزواج؛ فالزواج أصل
الوالدية، ونقل شرفه إلى الأبناء، وتوريث الإسلام إلى الأجيال اللاحقة، وهذه
بعض الحكمة في تشريع بر الوالدين والإحسان إليهما عند الكبر.

وكما ترى فإن الآية ذكرت بحق القرابة واليتامى أيضًا والمساكين:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى
وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وسورة البقرة إذ تحت على بر الوالدين وتقديمهما في الإنفاق والإحسان؛ تنبه
إلى أن واجب البر لا يصح أن يطغى فيتحوّل الوالدان إلى مصدر تشريع وتتحول
أعرافهما وعاداتهما وما اعتاده إلى حق مطلق واجب التقليد والاتباع:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ
آبَاءُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: (دعا رسول الله ﷺ اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام،
ورغبهم فيه، وحذّرهم عقاب الله ونقمته، فقال له رافع بن خارجه ومالك بن عوف:
بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا؛ فإنهم كانوا أعلم وخيرًا منا، فأنزل الله الآية^(١)).

والآية ترفض التعصب لآراء الآباء إذا هي خالفت الحق، وأن الحمية لهم لا
تصح ما لم يكن الحق معهم.

ولم تغفل السورة ذكر النماذج الصالحة في تربية الأبناء على توحيد الله وتعظيم
حقه والتزام طاعته، فهذا إبراهيم عليه السلام يبني البيت الحرام بمعية ابنه إسماعيل،
ويدعو بصلاح ذريته:

(١) جامع البيان ٤٢/٣.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن دُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٨].

ومسؤولية الحفاظ على توحيد الله بالعبادة واجتناب الشرك وتوريثه للأجيال اللاحقة كان شعورًا متجذرًا في أنبياء الله تعالى، حتى إنهم ليوصون به أبناءهم في أكرب الساعات وأشدّها؛ أعني ساعة الاحتضار:

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَايَكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٢-١٣٣].

أعظم ما يقدمه البيت لأبنائه، وما تقدمه الأجيال الحالية للأجيال اللاحقة هو توريث التوحيد ونقل رسالته إليها.

وإن كانت سورة البقرة أطلعتنا على شيء من سيرة آل إبراهيم، فإن سورة آل عمران أطلعتنا على شيء من سيرة آل عمران:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٧].

فهذه البيوت العريقة المؤمنة هي النموذج الأصلاح للاقتداء في حرصها على هداية بنينا المتمثل في الدعاء لهم وتنشئتهم على توحيد الله وطاعته واحتساب الأجر في ذلك.

ولقد نشأت الأمة على هذه المفاهيم الفطرية للنكاح والزواج والأبوة والبنوة، وعاشت على ذلك قرونًا، حتى وطئت جيوش الاستعمار بلاد المسلمين، واحتلت أرضهم، ونشرت عقائدها وأفكارها وثقافاتهما، وفطنت إلى القوة المتجذرة في الأمة - أعني عقدة النكاح - فعمدت إلى تسخير أدواتها بغرض تدمير نظام الزواج الفطري، وإحلال مفاهيم جديدة للأسرة بديلاً عن مفهوم القرآن، فسخرت الإعلام والفن والقضاء والتجارة وكل ما يمكن لإزاحة هذه القوة العتيدة، فأصبح المسلم اليوم - يا للأسف - يناقش حقوق المرأة وقضية المرأة وتمكين المرأة وحرية المرأة، وغيرها من المصطلحات الفضفاضة ذات المفاهيم المنحرفة والأبعاد التفكيكية، التي لم تعهدها الأمة من قبل.

نحن مطالبون بالعودة إلى نداء الفطرة، والرجوع إلى هدايات القرآن لتصح حياتنا وتقوى أمتنا، والله المستعان.

حركة الأموال

بات من الأهمية بمكان -في تأسيس الأمة المسلمة- أن يكون لها نظام مالي، يحافظ على كيانها الاجتماعي من الضعف والاهتراء، ويحفظ على الأفراد حقوقهم الخاصة، ويأخذ بيد الفئة الضعيفة وغير المنتجة.

ولكل أمة نظامها الاقتصادي، لأن المال عصب الحياة، ولا يمكن بحال إغفال هذا الجانب في إدارة الدول والجماعات والكيانات.

فكيف بالممالك العظمى!

ثم كيف بأمة أراد الله لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

وأراد الله لها أن تكون أمة عالمية لا إقليمية.

وأراد الله لها أن تكون أمة رحمة لا أمة ظلم واستعباد!

وقد بعث الله نبيه ﷺ، وبعث به هذه الأمة الجديدة، وقد كان العالم تائهاً في دروب الضلالة الاقتصادية، وإذا ضربنا بعض الأمثلة على ذلك فإننا سنذكر المثال الأبرز حينها، وهو النظام الإقطاعي الذي شاع في بقاع كثيرة من العالم، لا سيما في أوروبا، وهو نظام اجتماعي اقتصادي تعتمد الممالك الزراعية..

فالأرض في المملكة الإقطاعية هي ملك الملك، ويوزعها إقطاعات على الأمراء في نظير التزامات مالية أو عسكرية يقدمها الأمراء، ويزيد عدد الأمراء وينقص بحسب المساحة التي يملكها هذا الملك.

ويقسم الأمير الواحد مقاطعته إلى إقطاعات أصغر مساحة، يوزعها بين طبقة من السادة الإقطاعيين في نظير التزامات يتكفلون بها.

ويعيش السادة الإقطاعيون على عمل الفلاحين وكدهم؛ الذين يرتبطون بالأرض ويصيرون جزءاً منها، فعندما تباع الأرض أو تنتقل ملكيتها فإن الفلاحين أيضاً تنتقل ملكيتهم إلى السيد الجديد، ويخضعون لإرادة هؤلاء السادة الإقطاعيين^(١).

والنظام الإقطاعي يحمل معه -طبيعياً- نظاماً اجتماعياً يحدد مفهوم المواطنة والدولة، والحقوق والواجبات تبعاً لذلك، كما يضع تعريفاً لعلاقة السيد الإقطاعي بالفلاحين «أقنان الأرض» وعلاقته بالأمر وعلاقة الأمير بالملك.

ولما تنصرت أوروبا في القرن الرابع الميلادي أقرت هذا النظام، وجعلت الكنيسة شريكاً فيه، بل أصبح الأساقفة ينافسون الأمراء! في السيطرة والتحكم والاستعباد؛ ولكن بطريقة فيها بعض الاختلاف.

وهذا النظام الإقطاعي لم يأت باعتبار الأصلح والأفضل للناس، وإنما أفرزته الحروب والصراعات التي خولت القوي أن يفرض نظاماً اقتصادياً يصب في مصلحته أولاً، والتي سخرت الحركة المالية في تعبيد الناس لأسيادهم، فاتخذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله؛ كما تعبر الآية في سورة آل عمران:

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وانتشر النظام الإقطاعي في بقاع كثيرة في العالم إضافة إلى أوروبا.

هذا مثال لما كان وقتها من أنظمة اقتصادية.

ومما نفشى قبل مبعث نبينا ﷺ في الجزيرة العربية وغيرها كذلك: الخمر والميسر والربا.

(١) انظر: القاموس السياسي ص ٩٦.

وهي -إذا صحت العبارة- سياقات اقتصادية اجتماعية، أضرت بالمجتمع في بنيته، وأضرت بالفرد كذلك.

كانت الخمر علامة على الكرم والسخاء والثراء، وكان الشعراء يتمدحون بها لأجل ذلك، يقول عنتره:

وإذا شربت فإنني مستهلك مالي، وعرضي وافر لم يكلم

ويقول عمرو بن كلثوم في مستهل معلقته:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

وكانت لها مراسم وطقوس يسيرة في شربها، وكانت أنواعاً وألواناً، كما كانت مصدر ربح للتجار والمزارعين.

وكذلك الميسر الذي هو في حقيقته مقامرة بالمال، لكنه موضوع على هيئة كرم وبذل، وكان يُنفق منه -تمدحاً- على الفقراء، ويتضمن كسباً سريعاً من دون عمل ولا استحقاق، وكانت له طقوس يعمل بها الناس تدلك على أن الميسر كان له شأن كبير في الحركة المالية والاجتماعية في الناس^(١).

وأما الربا فقد كان أعظم هذه النظم إجراماً في حق الناس وكسباً للمال بالباطل، إذ تؤول فكرة الربا إلى أن يتضخم المال في أيدي القلة من الناس من دون كثير جهد، في حين يتحول الناس إلى عبيد كادحين لأجل سداد الدائنين المرابين.

وكان في المجتمعات الجاهلية دائنون مرابون معروفون، يقرضون الناس، فإذا طلب هؤلاء المدينون تأجيل سداد ديونهم أجلوا السداد بشرط الزيادة في الدين، وهكذا في كل مرة.

(١) انظر في تفصيله -على سبيل المثال- التحرير والتنوير ٢/ ٣٣٩ وما بعدها.

وهذه أمثلة على الخطوط التي كان يتحرك المال وفقها والسياقات الاقتصادية في الأمم والمجتمعات، وليس المقصود استقصاء كل الصور والعناصر التي تكونت منها النظم الاقتصادية الجاهلية.

المهم.. لقد تحولت حركة المال في المجتمعات إلى سيف وصلت على رقاب الناس، وكان القوي يأكل الضعيف، ونتج عن ذلك: الطبقة، وهي التفاوت في الدرجة بين الناس، ما يترتب عليها من آثار اجتماعية؛ يتعلق بعضها بالزواج والشرف والقضاء والرأي المسموع، والحقوق والواجبات.

وبدلك على ذلك وصف النبي ﷺ لهذه الحالة في الحديث الذي روته عنه أمنا عائشة رضي الله عنها (أنَّ قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حب رسول الله ﷺ، فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟! ثم قام فاختطب، ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله! لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)^(١).

في ذلك الحين نزل القرآن، ليهدي الناس صراط الله المستقيم، في كل شؤون حياتهم، ومن أهمها: الخطوط المستقيمة لحركة الأموال.

وكانت سورة البقرة حافلة بهذا التأسيس العادل بين الناس، الرحيم بهم، المعترف بحقهم في التملك، والدليل على ذلك مجيء نحو ثلاث وعشرين آية متتالية في بيان ما يحل وما لا يحل، ما يحسن وما لا يحسن، إضافة إلى الآيات المتفرقة بهذا الشأن.

(١) أخرجه البخاري ٤/١٧٩، ح ٣٤٧٥.

ففي حركة المال وكسبه أباحت سورة البقرة البيع والشراء والدين والرهن ونحو ذلك:

﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بَدِينَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبًا بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَهُ ۗ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتِنَ اٰمَنَتَهُ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وحرمت السورة أكل المال بالباطل:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَىٰ الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

قال الزجاج: أي تعملون على ما يوجهه الإدلاء بالحجة، وتخونون في الأمانة، لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم، وأنتم تعلمون أن الحجة عليكم في الباطن، وإن ظهر خلافها^(١).

وهذه الآية تحمّل المسلم مسؤوليته تجاه التدرع بالقوانين التجارية التي يستطيع أحياناً أن يأكل المال بالباطل من خلالها أو بالالتفاف عليها، فإذا ما قيل له اتق الله، قال: أنا أتكسب وفقاً للقوانين، ولم أحرق النظام! قال ابن عطية: (قال قوم: معنى الآية تسارعون إلى المخاصمة إذا علمتم أن الحجة تقوم لكم، إما بالألّا تكون على الجاحد بينة، وإما بأن يكون مال أمانة كاليتيم ونحوه مما يكون القول فيه قوله، فالباء في «بها» باء السبب)^(٢).

(١) معاني القرآن وإعرابه ٢٥٨/١.

(٢) المحرر الوجيز ٦٩١/١.

وقال قتادة: (اعلم - يا ابن آدم - أن قضاء القاضي لا يحل لك حراماً، ولا يُحق لك باطلاً، وإنما يقضي القاضي بنحو ما يرى ويشهد به الشهود، والقاضي بشر يخطئ ويصيب، واعلموا أن من قُضي له ببطل أن خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضي على المبطل للمحق بأجود مما قضي به للمبطل على المحق في الدنيا)^(١). وقال الشوكاني: (لا خلاف بين أهل العلم أن حكم الحاكم لا يحل الحرام ولا يحرم الحلال)^(٢).

وهذه مسؤولية أخلاقية يجب على المسلم أن يكون لها أهلاً، فقدرتة على أكل المال بالباطل لا تبرر له صنيعه عند الله تعالى، ومن هنا ونحوه نص أهل العلم على أنه (ليس كل سبب نال به الإنسان حاجته يكون مشروعاً، بل ولا مباحاً)^(٣).

وتلك الآية تعم كل أكل مال بالباطل، فكل معاملة تزيد رصيدك المالي بغير وجه تستحقه لا تجوز لك.

هذا قانون الإسلام في المال.

وسورة البقرة هيأت الناس لتحريم الخمر والميسر، وتحريم الخمر يعني تحريم تجارتها التي كانت أحد مصادر الدخل المهمة لمجتمعات الجاهلية، لأن تجارة الخمر تشمل تصنيعها ونقلها وتوزيعها وتحضير المواد الخام وصناعة أوعيتها وبيعها وغير ذلك، وتحريم الميسر يعني تحريم الأموال التي تصرف في وجه اللهو والمقامرة:

(١) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٨٠.

(٢) فتح القدير ١ / ٢١٧.

(٣) مجموع الفتاوى ٢٧ / ١٧٧.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

عن عائشة، قالت: (لما أنزلت الآيات من سورة البقرة في الربا خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد، فقرأهن على الناس، ثم حرم تجارة الخمر)^(١).

وهذا من التدرج في تحريم الخمر، حيث التنبيه على ضررها وتحريم تجارتها، وشيئاً فشيئاً حتى نزل التحريم الصريح لشربها.

وأشارت الآية إلى الاعتناء بما تؤول إليه المعاملات المالية، مما يصح أن يكون مؤثراً في أحكامها.

وحرمت سورة البقرة أكل الربا واتخاذها وسيلة للتكسب والتعامل المالي:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩].

وآيات الربا هذه حوت الكثير من المسائل الفرعية المرتبطة به، قال القرطبي: (الآيات الثلاث تضمنت أحكام الربا وجواز عقود المبيعات، والوعيد لمن استحل الربا وأصر على فعله. وفي ذلك ثمانٍ وثلاثون مسألة)^(٢).

وقد ذكرت لك هذه العبارة لتدرك عناية سورة البقرة بتأسيس نظام الاقتصاد الرباني؛ العادل والرحيم، فقد قام أهل التفسير والفقه باستنباط الأحكام الكثيرة

(١) أخرجه البخاري ١/٤٠٩، ح ٤٦٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣/٢٢٥.

منها، وهذه الأحكام عبارة عن تفصيلات تشريعية لجوانب في النظام الاقتصادي وحركة الأموال.

وتأمل التشديد في تحريم الربا، فقد جعله الله مؤذناً بحربه، وأن الأمة التي تعتمد على الربا أمة تحارب الله ورسوله، فوالله لقد عرضت نفسها للخسارة ومحق البركة والضعف الاقتصادي، لأنه لا يمكن لأحد أن يغلب الله في حربه.

ثم إن سورة البقرة حين منعت من هذه السياقات المالية المنحرفة كشفت الستار عن شريعة رحيمة عطوفة على الناس، فبدلاً من انتفاع الناس بالربا مؤقتاً، ثم وقوعهم في الخسارة الفادحة، أو تحولهم إلى عبيد لدى الدائنين الجشعين؛ جاءت الشريعة بإنظار الدائن المعسر احتساباً لوجه الله تعالى.

ثم فرضت السورة الإنفاق في سبيل الله والصدقة على الفقراء والمحاييج من عموم الناس، فلم ترغب بإهمال هذه الفئة التي لم تتمكن -بشكل أو بآخر- من الاستكفاء بما لديها، ووجب على الأمة أن تقدم لها الدعم الكافي:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وشريعة الإنفاق تعود بالنفع على فاعلها، وتعود بالنفع على الأمة التي جعلتها جزءاً من ثقافتها وهويتها، فالأمة التي تنفق في سبيل الله لا تحتاج إلى مد يدها إلى الكافر الأجنبي، ولا تحتاج إلى مد يدها إلى المرابي الجشع، إنها في حالة من الاكتفاء الذاتي، وفي حالة من التدوير الصحيح للأموال بين أيدي الناس كافة، ألا ترى أن الله تعالى جعل الإنفاق وسيلة للنجاة من الضعف الذي ينتاب المجتمعات والأمم، بل جعل الله تعالى ترك الإنفاق في سبيل الله سبيلاً إلى الهلكة والضياع والضعف والتمزق:

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا﴾ [البقرة: ١٩٥].

قال حذيفة بن اليمان وابن عباس والحسن وعطاء وعكرمة وجمهور الناس: (المعنى لا تلقوا بأيديكم بأن تتركوا النفقة في سبيل الله وتخافوا العيلة؛ فيقول الرجل ليس عندي ما أنفق)^(١).

وهذا مفهوم أصيل في الإسلام، أعني أن سد حاجات الأمة المالية احتساباً يقوي الأمة ولا يضعفها، ويخلف الله به على صاحبه ولا ينقصه، جاءت بذلك سورة البقرة إبان تأسيس الأمة الجديدة المؤمنة.

فالجميع إذاً مستفيد من حركة المال وفق شريعة الإنفاق، وليسوا كذلك إذا تمت الحركة هذه وفق النظام الربوي.

في تنشئة الأمة المسلمة أراد الله أن يهديها لأحسن حركات المال نفعاً وصلاًحاً في طريقة الكسب وطريقة الإنفاق.

وهذا الإنفاق محفوف بمكارم الأخلاق والمروءات، لا كإنفاق أهل الجاهلية الذي يرفع الناس ويخفضهم:

﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنْنًى وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

فهذه شريعة أخلاقية، ليست كالنظم الجافة الصلفة، والتي لا تعباً بالإنسان ولا تراعي وجدانه ولا تجتذب حبه وقلبه، ولا تهتم بما ستؤول إليه شخصيته.

والمال في حقيقته وسيلة وليس غاية، وهذا ما جهدت سورة البقرة في تبيانه وغرسه في عقلية المؤمن؛ هي وآل عمران جنباً إلى جنب، وذلك من خلال الحث على الإنفاق في حالة تشوف النفس للمال:

(١) المحرر الوجيز ١/٧٠٢.

﴿وَعَائِيَ أَلْمَالَ عَلَىٰ حَيْبِهِ ذَوَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ
وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ^٤ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل
عمران: ٩٢].

وحذرت السورة من إيهامات الشيطان وتخويفه من نقص المال وضعف
الاقتصاد وانتشار الفقر بسبب الإنفاق في سبيل الله وترك المحرمات من المعاملات
المالية، وللشيطان أتباع من الإنس يحملون رايته وينظرون بعينه، فيوردون أدلتهم
ودراساتهم على ضرورة الربا، والأثر الإيجابي لحرية الكسب المطلقة:

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا^٥
وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وقد أوحى الشيطان اليوم إلى أوليائه، وأملى عليهم كثيرًا من الخطط والطرائق
التي تفضي إلى أكل المال بالباطل، وزينها في نفوس الخلق، وجملها في عقولهم،
حتى آلت إلى أن تكون شبهات تتطلب العرض والنقد والمناقشة والتفنيد، كما
تجعل المؤمن أكثر حاجة إلى الاستهداء بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ليكون على بصيرة
من أمره، في كسبه وإنفاقه، ذلك أن الله تعالى سيسأل كل فرد يوم القيامة عن ماله:
من أين اكتسبه، وفيم أنفقه.

فإذا قام النظام الاجتماعي على حركة المال الشرعية، وتحمل الأفراد
مسؤولياتهم الأخلاقية تجاه ذلك أصبحت الأمة أقوى ما تكون.

أسباب القوة والنصر

استجاب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام دعوته أن يجعل من ذريته أمة مسلمة وأن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، وذلك بمبعث نبينا ﷺ ونشوء الأمة المسلمة والدولة العادلة في المدينة:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾
[آل عمران: ١٦٤].

والله تعالى بين لنا أن سبيل الفلاح والتمكين هو الاهتداء بالقرآن:

﴿وَأُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥].

فإن الاهتداء بالقرآن يعني الصعود والقوة والتماسك، ويعني الرقي والسمو والعلو.

وكما أن هذا الأمر كان يتطلب القيام بعدد من المهام والتضحيات، والتي منها الهجرة من الأوطان ومفارقة الأهل والعشيرة والأزواج والتخلي عن الأموال والممتلكات والعقار.. فإن الحفاظ عليه يتطلب أيضاً العديد من المهام والتضحيات والواجبات، وقد أراد الله تعالى لهذه الأمة أن تكون أمة قوية، أمة قادرة على حمل الرسالة الخاتمة والمهيمنة، أمة تستطيع مواجهة التحديات التي تعترض لها عبر الأزمان، ولا يريد الله لها أن تكون أمة ضعيفة مستضعفة، ولا أمة مخذولة مهزومة.

وقد أفاضت سورة آل عمران في بيان مكونات السياج الذي به تحفظ الأمة من الانهيار والتآكل والتمزق، وعناصر القوة التي تجعلها قائمة على سوقها ومناكفة لخصومها.

■ ومن تلك الأسباب رعاية المحكمات وحفظها والدعوة إليها:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

والاعتناء بمحكمات الشريعة يحفظ الأمة من الانحلال والتمزق والانهيار، ذلك أنها محل إجماع المسلمين وسبب اجتماعهم وتوحدتهم، كما سبق بيانه.

لذلك تكرر الأمر بالاعتصام بالله تعالى وبجبله المتين:

﴿وَأَعِصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ولذلك استفهمت السورة إنكارًا عن عدم الاهتداء بكتاب الله تعالى ورسوله ﷺ:

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ، وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

قال قتادة: (علمان بينان: وجدان نبي الله ﷺ وكتاب الله؛ فأما نبي الله فمضى ﷺ؛ وأما كتاب الله فأبقاه الله بين أظهركم، رحمة من الله ونعمة، فيه حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته)^(١).

فالمقصود أن الله جعل الاهتداء بكتابه سببًا مباشرًا في فلاح الأمة ونجاح المجتمعات وقوتها وبقائها متماسكة، ألا ترى أن من مقاصد وجود المتشابهات

(١) جامع البيان ٥/ ٦٣٤.

في كتاب الله ضمان استمرار صلوحية الوحي في هداية الأمة، بالحكم على كل المستجدات والنوازل.

■ ومن أسباب القوة والنصر الاجتماع على الهدى والتعاقد على الحق والتناصر عليه:

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

قال البيضاوي: (أي ولا تفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب، أو لا تفرقوا تفرقكم في الجاهلية يحارب بعضكم بعضاً، أو لا تذكروا ما يوجب التفرق ويزيل الألفة)^(١).

ويبسط القرطبي بيان ذلك فيقول: (ولا تفرقوا، يعني في دينكم كما افترت اليهود والنصارى في أديانهم؛ عن ابن مسعود وغيره. ويجوز أن يكون معناه: ولا تفرقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة، وكونوا في دين الله إخواناً، فيكون ذلك منعاً لهم عن التقاطع والتدابير، ودلّ عليه ما بعده وهو قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وليس فيه دليل على تحريم الاختلاف في الفروع، فإن ذلك ليس اختلافاً؛ إذ الاختلاف ما يتعذر معه الائتلاف والجمع، وأما حكم مسائل الاجتهاد فإن الاختلاف فيها بسبب استخراج الفرائض ودقائق معاني الشرع، وما زال الصحابة يختلفون في أحكام الحوادث وهم مع ذلك متآلفون)^(٢).

(١) أنوار التنزيل ٣١/٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٠٣/٤.

والأمة التي تختلف نخبها على المحكمات، ويدب إليها البغي والتفرق والتشردم أمة ضعيفة، أمة تشرع أبوابها لدخول الغزاة، وتفتح خزائنها لهم للاستقواء على الفريق الآخر منهم، والتاريخ كشف حجه عن وقائع من هذا القبيل.

ولا يتم اجتماع الأمة على شيء مثل الاهتداء بالوحي في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، هذا الاجتماع والتآزر والتكتل ضروري في بناء الأمة ومواجهة الأزمات والتصدي للأعداء. ألا ترى أن عيسى عليه السلام نادى في الحواريين:

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسَلِّمُونَ ﴿٥٤﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٢-٥٣].

قال ابن كثير: (والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله؟ كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر: «من رجل يؤويني حتى أبلغ كلام ربي؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي». حتى وجد الأنصار، فأووه ونصروه وهاجر إليهم، فواسوه ومنعوه من الأسود والأحمر، رضي الله عنهم وأرضاهم)^(١).

الاجتماع على محكمات الشريعة مقياس قوة.

■ ومن أسباب القوة والنصر التي تقوي قواعد الأمة وتحفظ سياجها العدل والقسط في كل شيء:

وسورة آل عمران تربي المسلمين على هذا المعنى:

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/٣٤٩.

قال ابن عاشور: (وقد أقام الله القسط في تكوين العوالم على نُظمها، وفي تقدير بقاء الأنواع، وإيداع أسباب المدافعة في نفوس الموجودات، وفيما شرع للبشر من الشرائع في الاعتقاد والعمل: لدفع ظلم بعضهم بعضاً، وظلمهم أنفسهم، فهو القائم بالعدل سبحانه، وعدل الناس مقتبس من محاكاة عدله)^(١). وكما أن الكون لا يقوم إلا بالعدل، فكذلك الأمة لا تقوم إلا به.

والأمة التي تأذن بظلم القوي للضعيف وتسمح بذلك أمة غير شريفة، ولا هي تستحق النصر من الله، بل كلما خفتت أضواء العدل وعلا ضجيج الظلم آذنت الأمة بالانهيار والتمزق وتسلط الأعداء، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه رضي الله عنه قال: (سأل رسول الله ﷺ جعفرًا رضي الله عنه حين قدم من الحبشة: ما أعجب شيء رأيت؟

قال: رأيت امرأة تحمل على رأسها مكتلاً من طعام، فمرَّ فارس فركضه، فأبدره، فجلست تجمع طعامها، ثم التفتت فقالت: ويلٌ لك إذا وضع الملك تبارك وتعالى كرسيه، فأخذ للمظلوم من الظالم.

فقال رسول الله ﷺ تصديقاً لقولها: لا قدست أمة، أو كيف تقدس أمة لا يأخذ ضعيفها حقه من شديدها غير متعتع)^(٢).

■ ومن أسباب القوة والنصر الاستصحاب الدائم لأحوال الآخرة ومنازلها:

فإن الإيمان باليوم الآخر على وجه الحقيقة، والعلم بدقائقه ومشاهده وتفصيله، يولد رقابة داخلية لدى أفراد الأمة، رقابة تمنعهم من ارتكاب المحظور وتدفعهم إلى القيام بالواجبات، وتوقظ فيهم حس المحاسبة والمجاهدة، فتجعلهم

(١) التحرير والتنوير ٣/ ١٨٧.

(٢) أخرجه البزار ١٠/ ٣٥٥، ح ٤٤٦٥. والقصة حسنها الألباني، أما لفظ الحديث فقد صححه، كما في صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ٣٥٩، ح ١٨١٦-١٨١٩.

الأمة التي لا تؤمن إلا بالقوة المحسوسة أمة ضائعة فاقدة للبوصلة، تتيه في ظلمات المعاصي والانحرافات، وتديم سجودها للدرهم والدينار، وتبيع شرفها لأجل خميصة أو خميلة، وتقترب كل يوم من حتفها وهلكتها ونهايتها.

والناس الذين تخضع قلوبهم للغيب الأخرى يقيم الله بهم اعوجاج الأمة وينهضها الله من كبوتها بهم، فأنت ترى الرقي والسمو، ولهذا قال الإمام مالك: (بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا)^(١).

لقد كانوا على درجة من البهاء والرقي ما يجذب إليهم الناس كالمغناطيس، ولا أقول ذلك على مستوى الأفراد - وهم كذلك - وإنما أقصدهم بوصفهم أمة وكياناً.

■ ومن تلك القواعد البذل والسخاء والإنفاق في سبيل الله:

الإنفاق في سبيل الله ورفعة الدين ونهضة الأمة وحمايتها من الانهيارات وإغناء الفقراء وإعفاف المحاويج، إلى الدرجة التي تصل بصاحبها إلى أن ينفق من أعز ما يملك، لأن قيمة الشهوات انخفضت لديه لصالح الأمة وفي سبيل المصالح العامة:

﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى نُنْفِقُوا مِمَّا نَحِبُّونَ ۚ وَمَا نُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

[آل عمران: ٩٢].

قال عطاء: (لن تنالوا شرف الدين والتقوى حتى تتصدقوا وأنتم أصحاب أشحاء)^(٢).

وقال ابن عطية: (أي من رغائب الأموال التي يُضن بها)^(٣).

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٧٠١.

(٢) معالم التنزيل ١/ ٣٨١.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٤.

أن يتحول الإنفاق والبذل في أوجه الخير - بلا مقابل - إلى ثقافة اجتماعية ومنهج حياة؛ هذا دليل على قوة الأمة الداخلية، وقدرتها على التماسك، مهما بلغت الخطوب والمخاطر، ولذلك ضرب أصحاب الرسول ﷺ أروع الأمثلة في وجوه الإنفاق المختلفة، ومثال أبي بكر وعثمان وأبي الدرداء وأبي طلحة ظاهر.

وهذا أيضًا يعني ارتفاع حس المسؤولية لدى أفراد الأمة المسلمة الواعية، لذا قال ابن عطية: (وإذا تأملت جميع الطاعات وجدتها إنفاقًا مما يحب الإنسان، إما من ماله وإما من صحته وإما من دعوته وترفه، وهذه كلها محبوبات)^(١).

■ ومن أسباب القوة والنصر تعظيم البيت الحرام:

البيت الذي جعله الله مباركًا وهدى للناس، وجعل فيه من آثار إبراهيم عليه السلام، الاسم الذي يذكرنا دائمًا بالحنيفية والتوحيد:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا قَامَ إِبْرَاهِيمُ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧].

يقول السعدي: (فوصفه بخمس صفات، أحدها: كونه أسبق بيوت العالم وضعا في الأرض).

الثاني: أنه مبارك، والبركة كثرة الخير ودوامه، وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيرا ولا أدام ولا أنفع للخلائق.

الثالث: أنه هدى، ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة، حتى كأنه نفس الهدى.

الرابع: ما تضمن من الآيات البيئات التي تزيد على أربعين آية.

(١) المحرر الوجيز ٢/٥٠٥.

الخامس: الأمن الحاصل لداخله.

وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس على حجه؛ وإن شطت بالزائرين الديار وتناوت بهم الأقطار^(١).

ألا ترى أن الله أوجب الحج إليه؛ إذ لا تقوم الأمة بغير السفر إليه والازدحام في ساحته. قال الطبري: (وأصل البك الزحم، يقال منه: بك فلان فلاناً إذا زحمه وصدمه فهو يبكه بكاً، وهم يتباكون فيه: يعني به: يتزاحمون ويتصادمون فيه، فكأن بكة: فعلة من بك فلان فلاناً: زحمه، سميت البكعة بفعل المزدحمين بها)^(٢).

فكلما كان المسجد الحرام محتفظاً بهذه الصفات، باقياً على هيئته التي أَرادها الله تعالى.. كان أكثر بركة للعالم وأكثر صلاحاً ونفعاً في المعاش.

وآيات البيت الحرام التي ذكرها أهل العلم عجيبة، ومما يطول بذكرها المقام، وقد سمعت مرة واحداً من طلاب العلم من المعتنين بحدود الحرم المكي؛ يتحدث عن آيات الله تعالى في جغرافية مكة وحدودها وجبالها وأوديتها وأمطارها وتاريخها، ما يدهش السامع ويحثه على الاستزادة من معرفة خصائص هذه البلدة المباركة التي حجها الأنبياء من قبل.

■ ومن أسباب القوة والنصر القيام بأمر الدعوة إلى الخير ومداومة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿[آل عمران: ١٠٤-١٠٥].

(١) تيسير الكريم الرحمن ٤/٢٠٥٩.

(٢) جامع البيان ٦/٢٣ - ت: شاكر.

واختلف المفسرون في قوله تعالى ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ هل «من» تعني بعضكم أم تعني كلكم؟

فابن جرير الطبري والقرطبي والبيضاوي وابن كثير والشوكاني والسعدي على أنها للتبعض، أي جماعة منكم يدعون إلى الخير.

والبغوي والزجاج وابن عطية على أنها تعني كلكم.

قال السعدي: (أي جماعة، يدعون إلى الخير وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويبعد من سخطه، ويأمرون بالمعروف وهو ما عرف بالعقل والشرع حسنه، وينهون عن المنكر وهو ما عرف بالشرع والعقل قبحه.

وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه، ويدخل في ذلك: العلماء المعلمون للدين، والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقد أحوال الناس وإلزامهم الشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام، وكتفقد المكايل والموازين وتفقد أهل الأسواق ومنعهم من الغش والمعاملات الباطلة، وكل هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ إلخ، أي لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة.

ومن المعلوم المتقرر أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به، فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به، كالأستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء وعز الإسلام، وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير ووسائلها ومقاصدها، وبناء المدارس للإرشاد والعلم، ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ

الشرع في الناس بالقول والفعل والمال، وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه، وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين^(١).

وكأنك تقرأ خطة النهضة الإسلامية، لكن الحقيقة أن معنى الآية هكذا، معناها أن عليّ مجموع الأمة -بغض النظر عن الأفراد- أن يقوموا بواجبهم تجاه الإصلاح ومنع الفساد، وتجاه الاتقاء ومنع السفول، وتجاه التقوي ومنع الضعف، وتجاه البناء ومنع الشروخ والتصدعات.

وهذا هو تلخيص فكرة الواجبات الكفائية في الإسلام.

وابن كثير -وإن كان يرى التبعض- يوجب عليّ الجميع القيام بالدعوة إلى الخير، فيقول^(٢): (والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً عليّ كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فقلبه وذلك أضعف الإيمان، وفي رواية: وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»^(٣)).

وابن عطية يمدنا بمزيد من البسط في شرحها وتحليلها، فيقول: (قال الضحاك والطبري وغيرهما: أمر المؤمنون أن تكون منهم جماعة بهذه الصفة، فهم خاصة أصحاب الرسول، وهم خاصة الرواة. فعلى هذا القول «من» للتبعض، وأمر الله الأمة بأن يكون منها علماء يفعلون هذه الأفعال عليّ وجوهها ويحفظون قوانينها

(١) تيسير الكريم الرحمن ٤/٢٠٦٥ - فروقات.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/٣٩٣.

(٣) أخرجه مسلم ١/٦٩، ح ٤٩.

على الكمال، ويكون سائر الأمة متبعين لأولئك، إذ هذه الأفعال لا تكون إلا بعلم واسع، وقد علم تعالى أن الكل لا يكون عالمًا.

وذهب الزجاج وغير واحد من المفسرين إلى أن المعنى: ولتكونوا كلكم أمة يدعون، و«من» لبيان الجنس، ومعنى الآية على هذا التأويل: أمر الأمة بأن يكونوا يدعون جميع العالم إلى الخير، الكفار إلى الإسلام، والعصاة إلى الطاعة، ويكون كل واحد من هذه الأمور على منزلته من العلم والقدرة. قال أهل العلم: وفرض الله بهذه الآية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من فروض الكفاية إذا قام به قائم سقط عن الغير.

قال: والناس في تغيير المنكر والأمر بالمعروف على مراتب، وفرض العلماء فيه تنبيه الحكام والولاة وحملهم على جادة العلم، وفرض الولاة تغييره بقوتهم وسلطانهم، ولهم هي اليد، وفرض سائر الناس رفعه إلى الحكام والولاة بعد النهي عنه قولًا؛ وهذا في المنكر الذي له دوام، وأما إن رأى أحد نازلة بديهة من المنكر كالسلب والزنى ونحوه فيغيرها بنفسه بحسب الحال والقدرة، ويحسن لكل مؤمن أن يحتمل في تغيير المنكر؛ وإن ناله بعض الأذى^(١).

وفرض الكفاية معني بكفاية الأمة من الخير، فإذا قام بالدعوة إلى الخير من يكفي في ذلك ويسد حاجة الأمة إليه سقط التكليف عن الباقيين، وأما إذا لم يكف ما قام به البعض فإن الدعوة إلى الخير تظل متعينة باقية الفرض على مجموع الأمة، حتى تُسد الحاجة ويتم الاكتفاء.

وبعض الناس يظنُّ واهمًا أن الأعمال المتعدية النفع ليست من صلب العبودية، فرد الله هذا الظن:

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٨٥ بتصرف.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ
وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَكَ بِعَهْدِهِمْ
إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۗ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال ابن عاشور: (وقد جمعت هذه الخصال جماع الفضائل الفردية والاجتماعية؛ الناشئ عنها صلاح أفراد المجتمع من أصول العقيدة وصالحات الأعمال).

فالإيمان وإقام الصلاة هما منبع الفضائل الفردية، لأنهما ينبثق عنهما سائر التحليلات المأمور بها، والزكاة وإيتاء المال أصل نظام الجماعة صغيرها وكبيرها، والمواساة تقوى عنها الأخوة والاتحاد وتسدد مصالح للأمة كثيرة، وببذل المال في الرقاب يتعزز جانب الحرية المطلوبة للشارع حتى يصير الناس كلهم أحراراً، والوفاء بالعهد فيه فضيلة فردية وهي عنوان كمال النفس، وفضيلة اجتماعية وهي ثقة الناس بعضهم ببعض، والصبر فيه جماع الفضائل وشجاعة الأمة^(١).

والأمة التي يخفق أفرادها في سد الحاجات الخيرية والاكتفاء بمجالات قوتها ونماؤها تتسارع إليها الآفات، وتصبح عرضة لنهب الأمم الأخرى وغزوها.

■ ومن أسباب القوة والنصر القيادة المؤمنة المؤمنة، التي تبني قيادتها على اللين والرحمة والتواضع، والتي تشارك الأمة أمرها، وتستند إلى قوة الله وحده:

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ
وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَسَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۗ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [١٥٩] إن

(١) التحرير والتنوير ٢/ ١٣٢.

يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ ﴿آل عمران: ١٥٩-١٦٠﴾.

ورسول الله ﷺ يوحى إليه، ومع ذلك يأمره الله بأن يستشير الناس، قال ابن عطية: (والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا ما لا خلاف فيه.

وصفة المستشار في الأحكام أن يكون عالمًا دينًا، وقَلَّ ما يكون ذلك إلا في عاقل، فقد قال الحسن بن أبي الحسن: ما كمل دين امرئ لم يكمل عقله.

وصفة المستشار في أمور الدنيا أن يكون عاقلًا مجربًا وادًا في المستشار.

والشورى بركة، وقد جعل عمر بن الخطاب الخلافة -وهي أعظم النوازل- شورى، وقال الحسن: والله ما تشاور قوم بينهم إلا هدهم الله لأفضل ما يحضرتهم^(١).

فالهداية إلى الأفضل هي سبيل إلى النصر والقوة، وهذه الآية نزلت عقب المصيبة التي حلت بالمسلمين في أحد، والتي كان أحد أسبابها رأي بعض شباب الصحابة الذين حرصوا على الخروج للقتال، فاستجاب النبي ﷺ لهذا الرأي تأدبًا بأداب القيادة السامية، وليس اقتناعًا بهذا الرأي، فإن رأي النبي ﷺ كان في التحصن بالمدينة والقتال داخلها.

فأراد الله تعالى أن يعطي الأمة درسًا في أخلاق القيادة من جانب ودرسًا في أهمية التشاور من جانب آخر، حتى وإن كانت له نتائج سلبية، لأن القيمة الناتجة عن الحفاظ على هذا المبدأ أهم من النتائج المادية، لأن هذه المبادئ مفتاح للنصر وسبب للقوة، قال ابن عطية: (ثم ثبت تعالى المؤمنين بقوله: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا

(١) المحرر الوجيز ٢/٦٧٣.

غَالِبَ لَكُمْ ﴿ أَيُّ فَالزَمُوا الْأُمُورَ الَّتِي أَمْرُكُمْ بِهَا، وَوَعَدَكُمْ النَّصْرَ مَعَهَا ﴾^(١).

■ ومن أسباب القوة والنصر فهم قوانين الخلق ونظامه وسنن الله فيه وسننه في الأمم والمجتمعات والدول:

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾^(١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿ [آل عمران: ١٣٧-١٣٨].

قال ابن عاشور: (والمعنى قد مضت من قبلكم أحوال للأمم، جارية على طريقة واحدة؛ هي عادة الله في الخلق، وهي أن قوة الظالمين وعتوهم على الضعفاء أمر زائل، والعاقبة للمتقين المحققين. وفي الآية دلالة على أهمية علم التاريخ لأن فيه فائدة السير في الأرض، وهي معرفة أخبار الأوائل، وأسباب صلاح الأمم وفسادها)^(٢).

ومن تلك السنن الربانية:

- أسباب النصر وأسباب الهزيمة.
- وأسباب هلاك الأمم والجماعات.
- ومركزية البيت الحرام في معاش الناس.
- وأن العدل قامت عليه السماوات والأرض.
- وأن الظلم مؤذن بخراب العمران.
- وأن ترك الواجبات الكفائية مفسد للكيان الاجتماعي ومدمر لبناء الأمة.
- وغير ذلك مما جاءت به آل عمران وغيرها من سور القرآن.

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٦٧٦.

(٢) التحرير والتنوير ٤/ ٩٧.

■ ومن أسباب القوة والنصر الجهاد في سبيل الله والدفاع عن بيضة الإسلام:

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُظْمِينَ قُلُوبِكُمْ بِهِ وَمَا لِنُصْرٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران: ١٢٤-١٢٦].

ولكن العمل على تقوية قواعد الأمة وسياحتها يلزمه تقوى وصبر..

وليس الأمر بالتمني ولا بالأوهام والأحلام.

بلى إن تصبروا وتتقوا.

فبالصبر وتقوى الله يكون توقي أذى العدو وحر بهم.

ونلاحظ - بعد هاتين الآيتين بيسير - ورود النهي عن أكل الربا في سياق

الحديث عن غزوة أحد:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٢٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٢١﴾﴾ [آل عمران: ١٣٠-١٣١].

ليتبين لك أثر المعاملات الربوية على إضعاف الأمة المسلمة ووقوعها في مرمى السهام الأجنبية. قال السعدي في هذه الآيات وما بعدها: (ولعل الحكمة - والله أعلم - في إدخال هذه الآيات أثناء قصة أحد أنه قد تقدم أن الله تعالى وعد عباده المؤمنين؛ أنهم إذا صبروا واتقوا نصرهم على أعدائهم، وخذل الأعداء عنهم، فكانت النفوس اشتاقت إلى معرفة خصال التقوى التي يحصل بها النصر والفلاح والسعادة، فذكر الله في هذه الآيات أهم خصال التقوى؛ التي إذا قام العبد بها فقيمه بغيرها من باب أولى وأحرى، ويدل على ما قلنا أن الله ذكر لفظ «التقوى» في هذه الآيات ثلاث مرات^(١).

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/٢٤١.

وقد أعلم الله تعالى الأمة أنه سيتولى إضعاف قلوب عدوهم، وسينزل فيها الرعب، إذا تحققت في الأمة أسباب القوة والنصر:

﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنَلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران: ١٥٠-١٥١].

فلا يزال أهل الشرك والنفاق في خوف ورعب؛ وإن أبدوا غير ذلك، أو كانوا أكثر عدة وعتادًا، وهذا يوجب على كل مؤمن في أمة الإسلام أن ينزع عن قلبه الخوف من غير الله؛ فإنَّ الشيطان لا يفتأ أن يدخل في قلبك الخوف من غير الله، وعندها عليك أن تتذكر قوة الله وجبروته، وأن تستعين به:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدَ جَمَعُوا لَكُمْ فَآخَظَهُمْ فَزَادَهُمُ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَأَنقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضِّلِ لَمْ يَمَسَّسَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ. فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٥].

فعمليات التخويف التي تُبث في المؤمنين هي من كيد الشيطان، وذلك بأنه يخوف المؤمنين بقوة أوليائه الكافرين وحلفائهم قال السدي: (يعظم أوليائه في صدورهم ليخافوهم)^(١)، لكن تخويفه لا يعمل في القلوب المؤمنة العارفة بالله وقوته وقدرته وسنته وأيامه، وينبغي ألا يلج قلب المؤمن من ذلك شيء، هكذا نهى الله تعالى عن مخافتهم، (فلا تخافوا المشركين أوليائه الشيطان، فإن نواصيهم بيد الله، لا يتصرفون إلا بقدره، بل خافوا الله الذي ينصر أوليائه الخائفين منه المستجيبين لدعوته)^(٢).

(١) معالم التنزيل ١/ ٤٥٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٦٢.

■ وفي خاتمة السورة نصت الآيات على خلاصة ما هو مطلوب من المؤمنين في الأمة المسلمة، فقالت بوضوح تام:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾
[آل عمران: ٢٠٠].

فلن تفلح الأمة إلا إذا لزم أفرادها الصبر والتقوى وصابروا على ذلك واستمروا وثبتوا على صبرهم وتقواهم ومرابطة الثغور التي يريد العدو أن يتسلل منها إلى كيان الأمة.

إنه الجد والمثابرة والثبات.

وإنه شعور الرباط الذي ينبغي لمن يعملون في خدمة الأمة المسلمة ودعوتها أن يستصحبوه، ولا بن تيمية كلام يحسن إيراده هنا، إذ يعطي وصفاً أدق للرباط: (والمرابطة في سبيل الله أفضل من المجاورة بمكة والمدينة وبيت المقدس، حتى قال أبو هريرة رضي الله عنه: «لأن أرباط ليلة في سبيل الله أحب إلي من أن أوافق ليلة القدر عند الحجر الأسود». فقد اختار الرباط ليلة على العبادة في أفضل الليالي عند أفضل البقاع؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يقيمون بالمدينة دون مكة؛ لمعانٍ منها: أنهم كانوا مرابطين بالمدينة. فإنَّ الرباط هو المقام بمكان يخيفه العدو ويخيف العدو، فمن أقام فيه بنية دفع العدو فهو مرابط، والأعمال بالنيات)^(١).

وهذا يقتضي أن ثغور الرباط تشمل كل المواقع التي تمثل خطراً - في الاعتناء بها أو إهمالها - على مستوى الأمة.

(١) مجموع الفتاوى ٤١٨/٢٨.

بهذه العناصر وتلك القواعد يجب علينا بوصفنا أفراداً في الأمة المسلمة أن
نبذل ما نستطيعه، من وقت وجهد ومال وعلم في سبيل تقويتها، حراسة للأمة
وحفظاً لكيانها.

فاللهم اجعلنا من المتقين الصابرين المرابطين على ثغور الأمة المتنوعة.

أسباب الضعف والانهايات

كما أنّ للأمة قواعد متينة وسياسًا منيعًا يحفظها من التآكل والذبول ومن الاختراق والانهيان، فإنها أيضًا معرضة للأمراض التي تُضعف جسدها والمعاول التي تهدم حصونها.

وسورة آل عمران عنيت بالحديث عن هذه الأمراض والمعاول كما عنيت بالحديث عن المقومات والقواعد والسياس، لتجعل أصحاب النبي ﷺ من المهاجرين والأنصار - والأمة من بعدهم - على بينة من واجبات الانتماء إلى أمة الإسلام، وعلى وضوح من استحقاقات الأمة عليهم، إذ لا تكتمل هوية المسلم دون أن يؤدي واجباته نحو أمته، فيحافظ على ارتفاع رايته ومانته حصونها، وهكذا القرآن الكريم يهدينا إلى ما فيه قوتنا وتماسكنا وصمودنا، ويعلمنا أسباب الضعف والتردي حتى نجتنبها ونحاذرها.

عرفتُ الشر، لا للشر ولكن لتوقيه

ومن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه

■ فمن معاول الهدم وعوامل الضعف التي نستفيدها من سورة آل عمران: رفض الاهتداء بالكتاب والرسول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (١٠) كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ

شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتْغَلِبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسَّسَ الْمِهَادُ ﴿١﴾
[آل عمران: ١٠-١٢].

قصة آل فرعون من أكبر الأدلة التاريخية على أن القوة والمنعة التي تتمتع بها الدول والجماعات لم تمنعها من السقوط إذا هم كفروا وأشركوا. قال السعدي: (وهذه الحال التي ذكر الله تعالى أنها لا تغني الأموال والأولاد عن الكفار شيئاً سنته الجارية في الأمم السابقة، كما جرى لفرعون ومن قبله ومن بعدهم من الفراعنة، العتاة الطغاة أرباب الأموال والجنود، لما كذبوا بآيات الله، وجحدوا ما جاءت به الرسل وعاندوا؛ أخذهم الله بذنوبهم، عدلاً منه لا ظلماً، والله شديد العقاب على من أتى بأسباب العقاب؛ وهو الكفر والذنوب على اختلاف أنواعها وتعدد مراتبها)^(١).

قصة انتفاش فرعون ثم سقوطه جديرة بالاعتبار، حيث القوة المالية القوة العسكرية والقوة العمالية، لقد وصل الحال بفرعون إلى أن يزعم أنه الإله وأنه الرب. لكن هذا الجحود كافٍ في استحقاق السقوط، ولا شك.

والله تعالى يخبر أن العلو والغلبة للذين يتبعون الرسل وليس للذين يكفرون:

﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥].

وما يحصل خلاف ذلك فهو تربية إلهية للمسلمين، قال السعدي: (وإنما يحصل في بعض الأزمان إدالة الكفار من النصرائى وغيرهم على المسلمين: حكمة من الله وعقوبة على تركهم لاتباع الرسول ﷺ)^(٢).

(١) تيسير الكريم الرحمن ٤/ ٢٠٣٤ - فروقات.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٤/ ٢٠٤٩ - فروقات.

ضعف الأمة الحقيقي هو بضعف اتباعها للنبي ﷺ وبضعف التزامها كتاب الله تعالى، وقد ربى الله الصحابة على هذا المعنى حين انتزع النصر منهم في غزوة أحد بسبب مخالفتهم قواعد النصر وقوانين القوة الإيمانية، ذلك أن بعضهم تساءل: لقد وعدنا بالنصر، فلم حلت بنا الهزيمة؟ فأجابهم المولى الكريم:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أُرْنَاكُمْ مَا تَحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

أن يتجه الكيان إلى معصية الرسول ﷺ فهذا إيذان بسلسلة من الهزائم والانتكاسات:

﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْنَا أَلَمْ نَقُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

قال الزجاج: (أي أصابكم بمعصيتكم النبي ﷺ، وما من قوم أطاعوا نبيهم في حربهم إلا نصروا، لأنهم إذا أطاعوا فهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون)^(١).

وتأمل هذا التوضيح الرباني:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥].

قال البغوي: (أي بشؤم ذنوبهم، قال بعضهم: بتركهم المركز)^(٢). ويقتضي قوله هنا أنها ليست مخالفة خاصة، بل هي مخالفة متعلقة بالجماعة المؤمنة في غزوة أحد.

(١) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٤٨٨.

(٢) معالم التنزيل ١/ ٤٣٦.

ألا ترى أنَّ العالم الإسلامي الذي وهبه الله أكثر خيرات الأرض وكنوزها بات
يئن من ضعفه وتسلط الأعداء عليه وتنافسهم على موارده.. حين هجر كتاب الله
وثنى عطفه عن اتباع محمد!

■ ومن أسباب الضعف والتردي الانهزام النفسي أمام الكفر وطرائقه وجنوده
وحضارته ومناهجه، حتى ولو كان في حال الهزيمة الميدانية وظهور راية
المشركين واستعلاء المنافقين، فإنَّ قلب المؤمن لا ينهزم ولو انهزمت آتته
وعتاده:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

قال السعدي: (ولا تهنوا وتضعفوا في أبدانكم، ولا تحزنوا في قلوبكم عندما
أصابتكم المصيبة، وابتليتكم بهذه البلوى، فإنَّ الحزن في القلوب والوهن على
الأبدان زيادة مصيبة عليكم، وعون لعدوكم عليكم، بل شجَّعوا قلوبكم وصبروها،
وادفعوا عنها الحزن وتصلبوا على قتال عدوكم، وذكر تعالى أنه لا ينبغي ولا يليق
بهم الوهن والحزن وهم الأعلون في الإيمان، ورجاء نصر الله وثوابه، فالمؤمن
المبتغي ما وعده الله من الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي له ذلك)^(١).

ثم ضرب الله مثلاً أولئك الأبطال والشجعان الذي آمنوا بالله تعالى واتبعوا
الأنبياء عليهم السلام، وجعلهم قدوة لأبطال الأمة المسلمة وشجعانها:

﴿وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٦) **إِنْ يَمَسَّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ
الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلَهُ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** ﴿ [آل عمران: ١٤٦].

فما جبنوا عن الجهاد بما نالهم من ألم الجراح وقتل الأصحاب.

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٤٥.

وما استسلموا وما خضعوا لعدوهم وما ذلوا.

ولكنهم صبروا على أمر ربهم وطاعة نبيهم وجهاد عدوهم^(١).

■ ومن عوامل ضعف الأمة فساد النخبة من أهل العلم وأولي الأمر، فإن فسادهم يصدع بناء الأمة صدعًا عظيمًا، ويجعلها عرضة للمخاطر في أمنها ودينها وأخلاقها:

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأَسْلَمُ^٥ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ^٦ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ [آل عمران: ١٩].

قال البيضاوي: (حسدًا بينهم وطلبًا للرئاسة، لا لشبهة وخفاء في الأمر)^(٢).
ومن فسادهم ما وصفهم الله تعالى به من نبذ الكتاب والإعراض عن تحكيمه واتباعه وجعله غرضًا لأهواء الناس:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ^٥ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ [آل عمران: ١٨٧].

قال ابن عاشور: (والاشتراء هنا مجازٌ في المبادلة والثلث القليل، وهو ما يأخذونه من الرشى والجوائز من أهل الأهواء والظلم من الرؤساء والعامّة على تأييد المظالم والمفاسد بالتأويلات الباطلة)^(٣).

فهل أحد يجهل ماذا يعني انتشار الرشى والجوائز في مجتمع ما؟!!

(١) انظر: معالم التنزيل ١/ ٤٣٠.

(٢) أنوار التنزيل ٢/ ١٠.

(٣) التحرير والتنوير ٤/ ١٩٢.

ومن فسادهم اتباع المتشابه من الآيات ابتغاء الفتنة والتأويل:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾
[آل عمران: ٧].

ومن فسادهم خيانة الأمة بأخذ الغلول، لذلك نفى الله وقوعها من الأنبياء:

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغْلُفَ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

وهو تحذير لورثة الأنبياء وقادة الناس من الخيانة والمالية.

■ ومن عوامل الضعف في سورة آل عمران التعلق بالدنيا والركون إليها وكرهية الموت والغفلة عن اليوم الآخر.

وهو ما ينشأ أصلاً عن اختلال التصور تجاهها أو غلبة الشهوات على المعاني
الإيمانية في النفوس، لذلك جاء الترغيب فيما أعده الله في الآخرة لعباده المؤمنين
تعقيباً على إخباره حب الناس للدنيا:

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ
الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَآئِ ۝١٤﴾ ﴿قُلْ أُوذِيْتُكُمْ بِيحَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ
جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ
بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤-١٥].

وتعقيباً على الانهزام في أحد؛ أباحت آل عمران سرّاً مكنوناً في النفوس،
محررة من أثره، وهو مرض حب الدنيا:

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أُرْسِلْتُمْ مَّا تَحِبُّونَ ۗ مِنْكُمْ مَّن يُّرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُّرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

أي صرفكم عن النصر، قال القرطبي: (بعد أن استوليتم عليهم ردكم عنهم بالانهزام)^(١).

ولتصحيح مفهوم الحياة والفوز فيها قال تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ فَمَن زُحِرَ عَنْ الْفَكْرِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتْعٌ مَّا غُرُورٍ ۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

فالحياة وفق التصور القرآني لا تنتهي بالموت، بل تمتد إلى الآخرة، وإنما الموت هو لحظة الانقطاع عن العمل والبدء بالحساب والجزاء، ولكن الإنسان قد يغتر بزخرف الدنيا، فتلهيه عن الحياة الحقيقية، لذلك ينخر الفساد فيه، وفي أمته في آن واحد. قال الطبري: (وما لذات الدنيا وشهواتها، وما فيها من زينتها وزخارفها، إلا متعة يمتعكموها الغرور والخداع المضمحل، الذي لا حقيقة له عند الامتحان، ولا صحة له عند الاختبار، فأنتم تلتذون بما متعكم الغرور من دنياكم، ثم هو عائد عليكم بالفجائع والمصائب والمكاره، يقول تعالى ذكره: لا تركنوا إلى الدنيا فتسكنوا إليها، فإنما أنتم منها في غرور تمتعون، ثم أنتم عنها بعد قليل راحلون)^(٢).

إنَّ الأمة التي تجعل غاية طموحها متاع الدنيا ورفاهية الإنسان ستضطر إلى تعاطي المحرمات والممنوعات، ستغير وجهتها وتحرف إبرة بوصلتها، ستأخذها

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ١٥٣.

(٢) جامع البيان ٦/ ٢٨٨.

وأعظم منه خطراً على حصون الأمة: جنوح نخبها أو أفرادها إلى موالاتهم والاستعانة بهم والوثوق برأيهم ومشورتهم، وقد صرحت آل عمران بخطر ذلك، وحذرت منه أشد التحذير:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَاتِمْتُمْ أَوْلَاءَ لِيُؤْيِبُوهُمْ وَلَا يُجِيبُوكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمُ الْأَنَّامِ لِمَنِ الْغَيْظُ قُلْ مَوْئُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾
 إِن تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ سَوَّهْمُ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿﴾ [آل عمران: ١١٨-١٢٠].

ومن دونكم بمعنى من غير المؤمنين، لأن غير المؤمنين دون.

قال ابن عباس: (كان رجال من المؤمنين يواصلون رجالاً من اليهود؛ للجوار والحلف الذي كان بينهم في الجاهلية، فنزلت الآية في ذلك). وقال أيضاً ابن عباس وقتادة والربيع والسدي: (نزلت في المنافقين؛ نهى الله المؤمنين عنهم). قال ابن عطية: (ويدخل في هذه الآية استكتاب أهل الذمة، وتصريفهم في البيع والشراء، والاستنامة إليهم، وروي أن أبا موسى الأشعري استكتب ذمياً فكتب إليه عمر يعنفه، وتلا عليه هذه الآية، وقيل لعمر: إن ههنا رجلاً من نصارى الحيرة؛ لا أحد أكتب منه ولا أخط بقلم، أفلا يكتب عنك؟ فقال: إذا اتخذ بطانة من دون المؤمنين)^(١).

قال القرطبي: (يعني لا يتركون الجهد في فسادكم، يعني أنهم وإن لم يقاتلوكم في الظاهر فإنهم لا يتركون الجهد في المكر والخديعة)^(٢).

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٧٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ١١٥.

وأهل العلم - كما ترى - يحذرون من توظيف اليهود والنصارى في مناصب الأمة المسلمة، وأنه من أشد الخطر عليهم؛ استهداء بهذه الآية، إذ كيف يستأمن الذئب على الغنم؟ وكيف يستأمن العدو؟

وإذا طالعت الكتاب المترجم بعنوان: «حكاية عار - قصة نهب المصريين» لكاتبه البرلماني ورجل الأعمال الاسكتلندي «جون سيمور كي» المتوفى عام ١٩٠٩م والذي تحدث فيه عن ما آل إليه الاقتصاد المصري من الانهيار، والذي انتهى به الحال إلى الاحتلال الإنجليزي لمصر عام ١٨٨٢م.. إذا طالعت فسترى كيف يستطيع العدو احتلال دولة حين يوظف بعض خبائه في مناصب الدولة المهمة.

ولذلك فإن طاعتهم لا تجوز، وهي سبب في خسارة الأمة:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرْذَوْكُمْ عَلَىٰ
أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾
[آل عمران: ١٤٩-١٥٠].

قال السعدي: (وهذا نهى من الله للمؤمنين أن يطيعوا الكافرين من المنافقين والمشركين، فإنهم إن أطاعوهم لم يريدوا لهم إلا الشر)^(١).

يا أمة محمد! لا تطيعوا الكافرين.

وإن لبسوا ثياب الناصحين.

وإن نشروا على فقرائنا الدراهم والدنانير.

وإن قدموا لنا أحسن المخترعات وأفضل الخدمات.

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٥٠.

لا تطيعوا الكافرين.

وبينت السورة العلة التي يتعللون بها:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِنِ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥].

قال الكلبي: (قالت اليهود إنَّ الأموال كلها كانت لنا، فما في يد العرب منها فهو لنا، وإنما ظلمونا وغصبونا فلا سبيل علينا في أخذنا إياه منهم)^(١).

ذات التعليل الذي يعللونه اليوم.

■ ومن تلك العوامل تفرق الأمة وعدم اجتماعها على الحق، قال تعالى:

﴿وَأَعَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

■ ومن تلك العوامل أكل الربا، لذلك جاءت آية الربا في سياق الحديث عن غزوة أحد كما سبقت الإشارة إليه.

سورة آل عمران تربي الصحابة - والمؤمنين من بعدهم - على حراسة ثغور الأمة من كل ما يصدع بنايها ويخترق حصونها، لتبقى الأمة المسلمة أمة قوية منيعة.

فاللهم ادفع عن أمة الإسلام الآفات والأمراض التي تهدم حصونها.

(١) معالم التنزيل ١ / ٣٧١.

قائمة المراجع

١. الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.
٢. الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ.
٣. ابن الأثير الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، ت: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.
٤. أحمد بن حنبل، المسند، ت: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة.
٥. أحمد عطية الله، القاموس السياسي، دار النهضة العربية، الطبعة الثالثة.
٦. أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.
٧. البخاري، الجامع المسند الصحيح، دار التأصيل، الطبعة الثالثة ١٤٣٨هـ.
٨. البزار، مسند البزار (البحر الزخار)، ت: محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الأولى.
٩. البغوي، شرح السنة، ت: شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.
١٠. البغوي، معالم التنزيل، ت: د. محمد النمر وآخرون، دار طيبة، الطبعة الثالثة ١٤٣١هـ.
١١. البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

١٢. البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
١٣. الترمذي، الجامع الصحيح، ت: أحمد محمد شاكر، وآخرون، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٥هـ.
١٤. ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ت: د. سفر الحوالي، مركز البيان للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ.
١٥. ابن تيمية، الصارم المسلول على شاتم الرسول، ت: محمد بن عبد الله الحلواني ومحمد كبير شودري، رمادي للنشر، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
١٦. ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع عبد الرحمن ابن قاسم.
١٧. ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ت: محب الدين الخطيب، دار المعرفة.
١٨. ابن أبي الخطاب، جمهرة أشعار العرب، ت: علي محمد البجادي، نهضة مصر للطباعة النشر.
١٩. ابن خلدون، المقدمة، ت: عبد السلام الشدادي، بيت الفنون والعلوم والآداب.
٢٠. الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، ت: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
٢١. الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ت: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية ٢٠١١م.

٢٢. الذهبي، سير أعلام النبلاء، شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة السادسة ١٤٠٩هـ.
٢٣. الرازي، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.
٢٤. الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ت: عبد الجليل عبد شليبي، عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
٢٥. الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث.
٢٦. ابن إسحاق، السير والمغازي، ت: سهيل زكار، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ.
٢٧. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ت: الدكتور علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية ١٤٣٤هـ.
٢٨. السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ت: سعد الصميل، دار ابن الجوزي، الطبعة الرابعة ١٤٣٥هـ.
٢٩. ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، دار القلم، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
٣٠. الشاطبي، الموافقات، ت: مشهور آل سليمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
٣١. الشافعي، الرسالة، ت: أحمد محمد شاكر، دار الفكر.

٣٢. الشوكاني، فتح القدير، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
٣٣. ابن أبي شيبه، المصنف، ت: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
٣٤. الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.
٣٥. الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ت: د. عبد الله عبد المحسن التركي، دار هجر، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.
٣٦. عابد السفيناني، المحكمات في الشريعة الإسلامية، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.
٣٧. ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.
٣٨. عبد الرزاق الصنعاني، المصنف، ت: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.
٣٩. عبد المعطي الشعراوي، أساطير إغريقية، مكتبة الإنجلو المصرية، ٢٠٠٥م.
٤٠. ابن العربي المالكي، أحكام القرآن، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.
٤١. ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ت: مجموعة من الباحثين، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ.
٤٢. علي الملا القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

- ٤٣ . عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة عشر.
- ٤٤ . القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية.
- ٤٥ . ابن القيم، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ت: زاهر بن سالم بلفقيه، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى ١٤٤٠هـ.
- ٤٦ . ابن القيم، الصواعق المرسلّة على الجهمية والمعتلة، ت: د.علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ.
- ٤٧ . ابن القيم، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ت: عثمان جمعة ضميرية، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.
- ٤٨ . ابن كثير، البداية والنهاية، ت: د. محيي الدين ديب مستو ود. علي أبو زيد، دار ابن كثير، الطبعة الخامسة ١٤٣٩هـ.
- ٤٩ . ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ت: أبو إسحاق الحويني، سعد الصميل، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية ١٤٤٠هـ.
- ٥٠ . مالك بن أنس، الموطأ، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية (البابي الحلبي).
- ٥١ . الماوردي، النكت والعيون، دار الكتب العلمية.
- ٥٢ . محمد رشيد رضا، المنار (تفسير القرآن الحكيم)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
- ٥٣ . محمد بن عبد الوهاب، كشف الشبهات، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٥٤. مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، موسوعة التفسير بالمأثور، دار ابن حزم، الطبعة الثانية ١٤٤٠هـ.
٥٥. مسلم، صحيح مسلم، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.
٥٦. الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، دار القلم، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
٥٧. النووي، المجموع شرح المذهب، ت: محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد.
٥٨. ول ديورانت، قصة الحضارة، دار الجيل، ٢٠١٠م.
٥٩. وهبة الزحيلي، العالم الإسلامي في مواجهة التحديات الغربية، دار الفكر، ٢٠١٣م.